أ.د. مسعود بن موسى فلوسي

الأستاذ الطاهر بن مبارك حليس
لمحات من سيرته ونماذج من آثاره

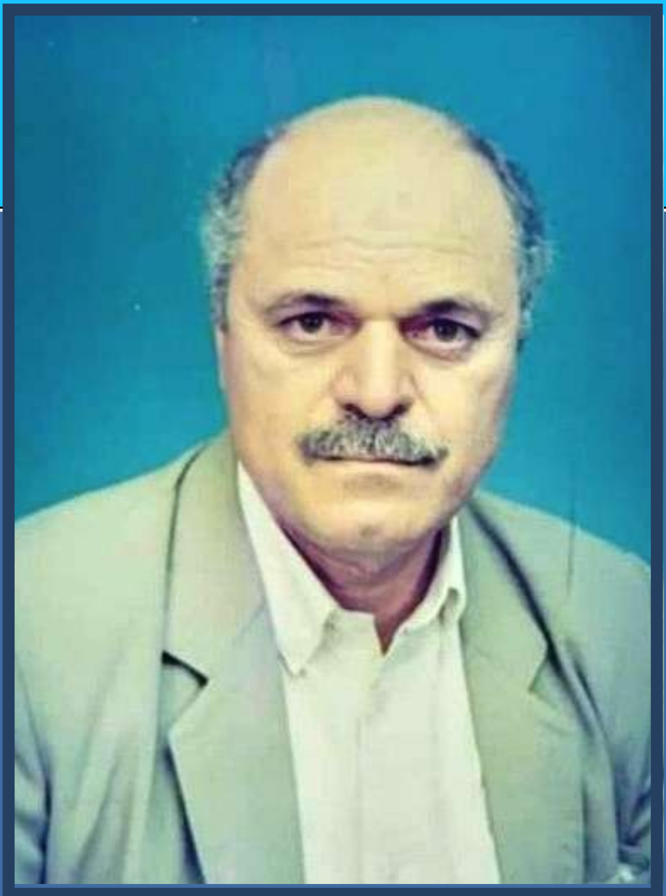

كلية العلوم الإسلامية
شهيد الواجب الوطني حليس الطاهر بن الحاج مبارك

الأستاذ الطاهر بن مبارك حليس

لمحات من سيرته ونماذج من آثاره

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
بمناسبة الذكرى الثلاثين لوفاة الأستاذ رحمه الله

ربيع الثاني 1446هـ
أكتوبر 2024م

تم الطبع في مطبعة قرفي
المنطقة الصناعية – كشيدة - باتنة

الأستاذ الطاهر بن مبارك حليس

لمحات من سيرته ونماذج من آثاره

جمع وإعداد وتحرير:

أ.د. مسعود بن موسى فلوسي

أستاذ الفقه والأصول

عميد سابق لكلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة1

بسم الله الرحمن الرحيم

جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى:

﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.

[الأحزاب، الآية: 23]

وجاء في السنة النبوية الشريفة؛ عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ الْمِائَةُ لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً».

[رواه البخاري في صحيحه]

إهداء

أتشرف بإهداء هذا العمل العلمي إلى الرجال الأماجد الذين كان لكل منهم فضل عليَّ في مسيرة حياتي ولا يمكنني مهما حاولت أن أرد أفضالهم أو أفِيَهم حقهم، والذين رحلوا إلى الدار الباقية، وما يزال ذكرهم مستمرا بما قدموا من جهود وما تركوا من آثار:

المجاهد العقيد الحاج لخضر

الأستاذ الشيخ الطاهر حليس

الأستاذ الدكتور إسماعيل يحيى رضوان

الدكتور عبد العزيز شوحة

رحمهم الله جميعا وجمعنا بهم في الفردوس الأعلى من الجنة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

شكر وتقدير

لا يسعني وأنا أقدم هذا الكتاب للطبع والنشر إلا أن أشكر نجل شيخنا الأخ الفاضل الكريم المهندس الطيب حليس (هشام)، وكل أشقائه الأعزاء الذين تربطني بهم رابطة المودة والمحبة والاحترام، على تسهيل مهمة جمع هذه الآثار ونشرها وتقديمها للقراء والباحثين.

كما أشكر الأخ العزيز والصديق الكريم الأستاذ أحمد بن السائح الذي راجع الكتاب مراجعة شاملة وقرأه قراءة دقيقة، ونبه إلى كل الأخطاء المطبعية والإملائية التي وقعت أثناء التصفيف، كما أبدى بعض الملاحظات النافعة التي أفدت منها في إنجاز الكتاب. وليست هذه مكرمته الأولى معي، فقد سبق له أن قرأ وراجع عددا من كتبي السابقة قبل تقديمها للطبع والنشر.

وأسأل الله عز وجل أن يجازي الجميع بما يستحقون من الأجر والثواب.

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد..

فها هي ثلاثون سنة تمر على رحيل أستاذنا العزيز الشيخ الطاهر بن مبارك حليس رحمه الله، الذي اغتالته يد آثمة مساء يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1994م.

كان رحيله فاجعا ومفجعا لأهله وطلبته ومحبيه من أبناء مدينة باتنة، الذين عرفوا فيه الرجل العامل لدينه ووطنه، الحريص على خدمة الناس، الساعي في الخير والإصلاح ونشر العلم والهداية.

لقد ترك فراغا هائلا في مختلف المجالات التي كان يتحرك فيها، لم يملأه أحد من بعده، إذ لا أحد غيرُه جمع كل ما كان يتصف به من غيْرةٍ على الدين والوطن وحُبٍّ للخير وحرصٍ على النفع وقدرةٍ على كسب القلوب واستماتةٍ في خدمة المصلحة العامة وأداءٍ للأعمال بإخلاص وتفان.

ويعلم الله عز وجل أنني خلال هذه الثلاثين سنة التي مرت على رحيله، لم أنسه ولم يغب عن خاطري يوما، فقد ظل ذكره حاضرا في قلبي باستمرار، كما أن لساني ظل يذكره دائما بكل خير، ويُذكِّر بأفضاله وخصاله وأعماله.

وقد حرصت على إحياء ذكره والتعريف بمآثره فيما كتبته عنه من مقالات في مناسبات خلت، لكن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة إليَّ في الوفاء له وأداء شيء من حقه، لذلك كنت دائما أمني النفس بجمع آثاره ونشرها في كتاب يُعرِّف به وبفكره وأعماله.

وعندما سنحت الفرصة بذلك لم أتردد في القيام بهذا الواجب الذي كنت شديد الحرص على أدائه، كان ذلك عندما التقيت بابنه البار الأخ الكريم المهندس الطيب المدعو هشام سنة 2020، وتحدثت معه بشأن هذا المشروع، فما كان منه إلا أن عرض عليَّ أن يمكنني من أوراق والده التي ما زالت محفوظة كما تركها رحمه الله في بيت العائلة. وافقت على الفور على العرض واتفقنا على موعد التقينا فيه في بيت أستاذنا رحمه الله، وكان

حاضرا معنا أحد أبنائه البررة الآخرين وهو الأخ الصالح، وسلَّمَاني محفظتين تجمعان الكثير من الأوراق التي تركها الشيخ رحمه الله.

كانت هذه الأوراق كثيرة ومختلطة، وقد بذلت جهدا كبيرا في فرزها، حتى اجتمعت عندي مجموعة من الخطب والمحاضرات والمسرحيات التي كتبها الشيخ في مراحل مختلفة من حياته رحمه الله، وهي المجموعة في هذا الكتاب.

وقد أنهيت إعداد النسخة الأولى من الكتاب منذ سنتين أو أكثر، وكنت أنتهز الفرصة لطباعته ونشره، إلا أن المشاغل التي تراكمت، والزيادات الكبيرة التي مست أسعار الورق وأدت إلى ارتفاع تكلفة الطباعة، جعلت المشروع يتوقف. لكن، شاء الله عز وجل أن ييسر أمر الطباعة حين أعلن الأخ الطيب إصراره على نشر الكتاب، وفاء لذكرى والده رحمه الله بمناسبة مرور ثلاثين عاما على وفاته، وحرصا على أن يطلع على آثاره من عرفوه في شخصه ولم يعرفوه من خلال هذه الآثار التي لم تنشر في حياته رحمه الله، كما يطلع عليها أبناء الجيل الجديد من الطلبة والباحثين الذين سمعوا باسم الرجل ولم يعرفوا شيئا عنه، وخاصة طلبة كلية العلوم الإسلامية بجامعة باتنة1 التي يقرؤون اسمه على اللافتة التي وضعت فوق مدخلها دون أن يعرفوا شيئا عن حياته وخصاله وآثاره وعلاقته بالكلية.

هذا، ولم أعالج آثار الشيخ بالتعليق أو التحليل، تاركا ذلك للباحثين والطلاب والدارسين، وهم واجدون فيها - بلا ريب - مجالا رحبا وميدانا بكرا للدراسة والبحث.

أرجو أن أكون بهذا المجهود قد أدَّيْتُ بعضَ الحق الذي للشيخ عليَّ وعلى جيلي من طلبة الدفعة الأولى والدفعات التي تلتها من طلبة الكلية، سائلا الله عز وجل أن يتكرم علي بقبول هذا العمل وأن يجعله في ميزان حسنات والديَّ الكريمين حفظهما الله وحسنات شيخنا الطاهر حليس رحمه الله.

مسعود فلوسي

تازولت، في: الثلاثاء 5 ربيع الثاني 1446هـ،
الموافق 8 أكتوبر 2024م

لمحات من سيرته وجهوده

خلاصة السيرة العلمية والعملية
للأستاذ الطاهر حليس رحمه الله

أسرته ومولده ونشأته:

هو الطاهر حليس.

ابن: مبارك بن عمر حليس. و: غالية بنت أحمد بن سخرية.

ولد يوم السبت 01 رجب 1362هـ، الموافق 03 جويلية 1943م، بدشرة عوانة التابعة لدوار شعبة أولاد شليح القريبة من مدينة باتنة.

مساره الدراسي:

حفظ طرفا من القرآن الكريم في بلدته على يد الشيخ خليفة بن خليف رحمه الله. ثم واصل الحفظ بعد انتقال أسرته إلى فسديس، حتى حفظه كاملا سنة 1957 على يد الشيخ تلغمتي رحمه الله.

التحق بعد ذلك بمدرسة النشء الجديد وسط مدينة باتنة التي حصل منها على الشهادة الابتدائية سنة 1959.

ذلك ما مهد له الطريق للالتحاق بقسنطينة سنة 1960، أين زاول دراسته المتوسطة في الزاوية الكتانية التي حصل منها على الشهادة الأهلية سنة 1964.

بعدها سافر إلى جمهورية مصر العربية عن طريق البر عبر تونس وليبيا، ملتحقا بإحدى ثانويات مدينة حلوان التي درس فيها ثلاث سنوات، وحصل بعدها على شهادة الدراسة الثانوية العامة (القسم العلمي) – البكالوريا – في رمضان 1387هـ، ديسمبر 1967م.

بعد عودته إلى الجزائر واصل دراسته فحصل على شهادة الكفاءة المهنية سنة 1969م.

ثم نال شهادة الليسانس في الآداب من جامعة قسنطينة، في أكتوبر 1971م.

نجح في مسابقة الدخول إلى السنة الأولى من دراسات ما بعد التدرج (الماجستير)، بالمعهد الوطني للتعليم العالي في الآداب واللغة العربية بجامعة باتنة في دورة سبتمبر 1981، ثم نجح في السداسي الأول دورة 26 جانفي 1982، وفي السداسي الثاني دورة 14 جوان 1982م، ليحصل بذلك على دبلوم الدراسات العليا بتاريخ 31 أكتوبر 1982م.

ناقش رسالة الماجستير في الأدب العربي، شعبة الأدب القديم، والتي حملت عنوان "اتجاهات النقد العربي وقضاياه في القرن الرابع الهجري ومدى تأثرها بالقرآن"، بتاريخ: 24 جوان 1986م. وقد تكونت لجنة المناقشة من الأساتذة: عبد الملك مرتاض (رئيسا)، محمد علي شرارة (مشرفا)، جودت الركابي (عضوا مناقشا).

سجل أطروحة الدكتوراه بمعهد اللغة والأدب العربي في جامعة الجزائر تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم بكري (من جامعة وهران) سنة 1989م، وانتهى من إعدادها سنة 1994م، لكنه لم يتمكن من مناقشتها بسبب الوفاة.

مسيرته العملية الوظيفية:

عمل معلما برتبة مدرس في مدرسة الذكور بحي السطا بباتنة من 18 سبتمبر 1967 إلى 22 سبتمبر 1968. ثم مدرسا بالمعهد التكنولوجي للتربية "العربي التبسي" من 23 سبتمبر 1968 إلى 15 سبتمبر 1970، ثم أستاذا للتعليم المتوسط بمتوسطة ابن باديس في حي بوزوران من 16 سبتمبر 1970 إلى 05 ديسمبر 1971، ليعود بعدها إلى المعهد التكنولوجي من 06 ديسمبر 1970 حتى 20 فبراير 1980.

ثم انتُدب للعمل في إطار حزب جبهة التحرير الوطني تحت وصاية محافظة باتنة كنائب محافظ مكلف بالنشاط الثقافي.

عُين معيدا متربصا بالمعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية بباتنة بتاريخ 31 أكتوبر 1982، ثم معيدا مرسما بتاريخ 17 أكتوبر 1983.

بعد حصوله على الماجستير رقي إلى رتبة مدرس بدرجة "ملحق بالبحث" في 15 أكتوبر 1986، ثم رُسِّمَ في سلك المدرسين بتاريخ 11 أبريل 1988.

وبعد تأسيس معهد الشريعة بباتنة كملحق بجامعة الأمير عبد القادر في سبتمبر من سنة 1987 انتُدب لإدارته، مع بقائه تحت وصاية معهد الآداب واللغة العربية.

تم تحويله رسميا إلى وصاية جامعة الأمير عبد القادر، ملحقة باتنة، بتاريخ 31 ديسمبر 1989م.

رقي إلى رتبة أستاذ مساعد مكلف بالدروس بتاريخ: 1 ديسمبر 1991م.

وبعد حصول المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية بباتنة على استقلاليته عن جامعة الأمير عبد القادر، تم تحويله ووضعه تحت وصايته وترسيمه كمدير للمعهد، ابتداء من 1 أبريل 1992م.

بعد اغتياله، حصل على الاعتراف به كضحية أعمال إرهابية بقرار من مدير ديوان وزارة الداخلية بتاريخ 15 فراير 1995م. وبناء عليه تمت ترقيته إلى رتبة أستاذ محاضر بتاريخ 27 ماي 1996م.

أحيل على التقاعد الرسمي بعد الوفاة بتاريخ 1 أبريل 2004م.

نشاطه الدعوي والثقافي:

عُرف بنشاطه الدعوي المكثف، حيث كان يلقي دروسا في التفسير بمسجد النور خلال الثمانينيات من القرن العشرين.

كما ظل يخطب الجمعة في مسجد قرية فسديس القريبة من باتنة سنوات طويلة إلى يوم وفاته، وكانت خطبته الأخيرة في اليوم الذي توفي فيه عن مكانة العلم والعلماء في الأمة..

كان يلقي دروسا ومحاضرات في المناسبات الدينية والوطنية.

عندما كان ينشط في إطار الحزب استقدم عددا من الدعاة والعلماء إلى مدينة باتنة لإلقاء دروس ومحاضرات في المساجد وفي دار الثقافة وفي محافظة الحزب، منهم الشيخ محمد الغزالي، والدكتور عمار طالبي، وغيرهما.

عندما تولى إدارة معهد الشريعة ربط علاقات مع عدد من العلماء المسلمين واستقدمهم لإلقاء محاضرات لطلبة المعهد، كأساتذة زائرين، منهم: الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله، والشيخ الدكتور مصطفى ديب البغا، والدكتور محمد الزحيلي، والدكتور جمال الدين عطية رحمه الله، والدكتور أبو اليزيد العجمي رحمه الله، والدكتور سليمان الخطيب رحمه الله، والشيخ الدكتور يوسف القرضاوي رحمه الله، وغيرهم من العلماء والمفكرين.

استشهاده:

فاضت روحه إلى بارئها إثر تعرضه لعملية اغتيال إرهابية، قريبا من بيته في حي كموني بمدينة باتنة، بعد أدائه لصلاة المغرب في مسجد علي بن أبي طالب، يوم الجمعة 17 جمادى الأولى 1415هـ الموافق 21 أكتوبر 1994م.

شيع جنازته الآلاف من أصدقائه وتلاميذه ومحبيه بعد ظهر يوم السبت 22 أكتوبر 1994م، وكان زميله وصديقه الدكتور أحمد رحماني هو من تولى إلقاء كلمة تأبينه.

ذريته:

ترك زوجة هي السيد الزهرة بنت محفوظ بوجلال توفيت بعده بعدة سنوات رحمها الله، وسبعة أبناء ذكور هم: توفيق، مراد، الصالح، محمد، عمر، الطيب، إبراهيم، وبنتا واحدة.

آثاره العلمية والفكرية:

1- رسالته التي نال بها درجة الماجستير، وعنوانها "اتجاهات النقد العربي وقضاياه في القرن الرابع الهجري ومدى تأثرها بالقرآن"، وقد طبعتها جامعة باتنة ضمن سلسلة منشوراتها سنة 1996م، في 406 صفحة.

2- أطروحته لنيل درجة دكتوراه الدولة، وعنوانها "الإعجاز القرآني وأثره في النقد العربي"، وهي كاملة في أربعة أبواب، تركها مخطوطة وتم تصفيفها على الكومبيوتر، وقد تبلغ عند الطبع حوالي 500 صفحة.

3- كتاب "قبسات من ثورة نوفمبر كما عايشها المجاهد الحاج لخضر"، طبع في دار الشهاب بباتنة سنة 1992، في 197 صفحة.

4- خطب مخطوطة.

5- مسرحيات هادفة كتبها عندما كان أستاذا بالمعهد التكنولوجي للتربية، وتم تمثيلها من قبل طلبة المعهد.

6- مقالات ومحاضرات مخطوطة.

7- دروس علمية مخطوطة في البلاغة أعدها للطلبة.

رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

أستاذي الشيخ الطاهر حليس كما عرفتُه(*)

كان رحيل أستاذنا الدكتور الطاهر حليس رحمه الله، مفاجئا ومفجعا، فالرجل لم يكن قد تجاوز الحادية والخمسين من العمر، ولم يكن يكلُّ أو يملُّ من العمل والنشاط والحركة، فمن إدارة معهد جامعي، إلى تدريس الطلاب، إلى الخطابة في المساجد، إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية المختلفة، كل ذلك توقف في لحظة ما من مساء يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1994، حين امتدت الأيادي الآثمة لتغتال هذا الرجل عندما كان عائدا إلى بيته بعد أدائه لصلاة المغرب في المسجد القريب من مقر سكناه..

معرفتي به:

تعود معرفتي بأستاذي الشيخ الطاهر حليس رحمه الله، أو الحاج سي الطاهر كما كان يعرفه الناس في باتنة، إلى أيام المرحلة الثانوية، حيث كنت أزاول دراستي في ثانوية عائشة أم المؤمنين بحي بوزوران في مدينة باتنة (ما بين 1984 و1987)، وكنت عند العودة إلى البيت أسلك طريقي عبر شارع الجمهورية (طريق بسكرة)، وأمر رفقة بعض زملائي أمام مقر محافظة حزب جبهة التحرير الوطني، أين كان الحاج الطاهر حليس يشغل منصب نائب محافظ مكلف بالثقافة. وكانت المحافظة في إطار نشاطها الثقافي تنظم ندوات وملتقيات دورية، وعادة ما تجري فعاليات تلك الندوات والملتقيات في المساء، وكان الأستاذ الطاهر حريصا على حضور الطلبة واستفادتهم مما يُلقى من محاضرات، ولذلك كان يعترض طريقنا عندما نكون بصدد العودة إلى بيوتنا حين نخرج من

(*) ـ مقال منشور على حلقتين في جريدة "الشعب" الجزائرية، الحلقة (1)، ع 16558، الصادر في 11 محرم 1436هـ/ 04 نوفمبر 2014م، ص9. الحلقة (2)، ع 16559، الصادر في 12 محرم 1436هـ/ 05 نوفمبر 2014م، ص9.

الثانوية، ويُصِرُّ علينا أن ندخل إلى قاعة المحاضرات في المحافظة لنستمع إلى ما يقوله المتدخلون من أساتذة وباحثين، ويؤكد علينا أن في ذلك فائدة كبيرة لا ينبغي أن نُضيعها.

وفي تلك المرحلة كانت جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قد افتُتحت في قسنطينة (1984)، وكان يُدرِّس فيها عدد من العلماء من جنسيات مختلفة، فكان الأستاذ الطاهر حريصا على استقدامهم وتعريف أهل باتنة بهم، وأذكر أنه استقدم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله والدكتور عمار طالبي والدكتور جبر الفضيلات الأردني وغيرهم، وكان يطوف على المساجد ويعلن للناس عن هذه المحاضرات ويدعوهم إلى حضورها والانتفاع منها.

وعندما حصلتُ على شهادة البكالوريا، كان في نيتي أن ألتحق بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وفعلا ذهبت إلى هناك وشاركت في مسابقة الدخول، وكنت من بين الناجحين. ولكني عرفت بعد ذلك أن معهد العلوم الإسلامية بباتنة سيُفتتح في تلك السنة أيضا (سبتمبر 1987)، ولذلك بادرت إلى التسجيل ضمن قائمة طلبة أول دفعة تدخل هذا المعهد.

وأذكر يوم الافتتاح الرسمي للمعهد، لقد كان يوما مشهودا، إذ أن العقيد الحاج لخضر رحمه الله الذي كان يشرف على بناء قلعة الإسلام (مسجد أول نوفمبر ومعهد العلوم الإسلامية)، أبى إلا أن يجمع لحضور حفل الافتتاح كل من يعرف من المسؤولين، ولذلك دعا لحضوره مسؤولي وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ووزارة الشؤون الدينية وإدارة جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، بل دعا إلى الحضور كثيرا من الشخصيات الوطنية. وكان حفلا بهيجا لا يمكن وصف تفاصيله.

انطلقت الدراسة في المعهد، وتم إلحاقه مبدئيا بمعهد الشريعة في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، كما تم تعيين الحاج الطاهر حليس – الذي كان حينئذ أستاذا بمعهد الآداب – مديرا له.

جهوده في إدارة المعهد:

كانت صلتنا نحن طلاب المعهد بالشيخ الطاهر دائمة ومستمرة، فقد كان عددنا قليلا، إضافة إلى أن اهتمامه بنا كان كبيرا، فكان يستطلع آراءنا ويستمع إلى انشغالاتنا ويحرص على تحقيق ما أمكن تحقيقه من طلباتنا.

وخلال أربع سنوات من الدراسة، رأينا اهتمامه الشديد بالتحصيل العلمي، وحرصه على انتظام الدروس، وتفانيه في توفير الأساتذة وتهيئة الظروف المساعدة لهم على العمل والإفادة.

وكان من دأبه خلال تلك السنوات أن يدعو أساتذة زائرين من خارج الجزائر لتقديم محاضرات إضافية، وكان ممن حضر وحاضر، جملة من كبار الأساتذة المشهورين في العالم الإسلامي، أذكر منهم: أ.د. مصطفى ديب البغا (سوريا)، أ.د. محمد الزحيلي (سوريا)، أ.د. طه جابر فياض العلواني (العراق)، أ.د. أبو اليزيد العجمي (مصر)، أ.د. سليمان الخطيب (مصر)، أ.د. محمد حسن هيتو (الكويت)، وغيرهم. وأذكر أن محاضرات هؤلاء الأساتذة كان الناس يجتمعون من أنحاء المدينة لحضورها والاستماع إليها، ولم تكن مقصورة على طلبة المعهد وحدهم، وهو ما جعل المعهد حينئذ قِبْلة لأهل باتنة ومركز إشعاع علمي حقيقي.

تتلمذنا على يديه:

دَرَّسَنا الشيخُ الطاهر حليس في السنتين الثالثة والرابعة مادة "البلاغة"، وكان يرجع إلى بعض الكتب المهمة في هذه المادة، ومنها كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس رحمه الله، وكتاب (البلاغة العربية) للدكتور عبد العزيز عتيق، وغيرهما. وكان يدرسنا بطريقة متميزة تجمع بين الجد والفكاهة. ومن ذلك؛ أننا كنا نسأله أحيانا عن بعض المسائل المشكلة في البلاغة محاولين فهمها، فيقول مازحا: وما دخلي أنا، اسألوا عنها الجرجاني أو السكاكي أو غيرهما من علماء البلاغة. ثم يبتسم ويجيب.

ولست أنسى في هذا المقام، تشجيع الشيخ الطاهر للطلبة على تنظيم أنشطة علمية وفكرية على هامش الدروس والمحاضرات، وأذكر أنه كلفني مرة بإلقاء محاضرة، عن (منهج المعرفة في ضوء علم أصول الفقه)، وعندما ألقيتها في المدرج حضرها شخصيا رفقة بعض الأساتذة، إضافة إلى مجموعة كبيرة من زملائي الطلبة. كما كلفني مرة أخرى بتقديم أحد الأساتذة الزائرين في محاضرة عامة، وهو الأستاذ الدكتور محمد الزحيلي، الذي جاءنا من كلية الشريعة بجامعة دمشق حينئذ.

بعد أربع سنوات من الدراسة، وقبل انتهاء السنة الرابعة صدر المرسوم الحكومي بترسيم استقلال المعهد عن جامعة الأمير عبد القادر، وتسميته (المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية)، ومع ذلك فقد تخرجت الدفعة الأولى (جوان 1991) تحت وصاية جامعة الأمير عبد القادر، حيث حضر الأستاذ الدكتور أحمد عروة رحمه الله مدير الجامعة حينئذ إلى باتنة ووقع شهادات الليسانس وأشرف على حفل التخرج.

وبعد أسبوعين أو ثلاثة من التخرج بشهادة الليسانس في العلوم الإسلامية، التقيت أستاذنا الشيخ الطاهر، وبعد أن سألني عن أحوالي وما أفكر في عمله بعد تخرجي، أخبرني رحمه الله أنه تم اختياري أنا وزميلي صالح بوبشيش وزميلتين أخريين للالتحاق بالمعهد، لمعاونة الأساتذة في التدريس كمطبقين، مع العمل في الإدارة والتكفل بالجانب البيداغوجي، وأوصاني بتحضير ملف التوظيف في أسرع وقت. وفعلا التحقت بالمعهد، وزملائي الثلاثة، في بداية شهر أوت 1991. وفي بداية السنة الجامعية (1991-1992) كلفنا الشيخ الطاهر بتدريس بعض المقاييس كمطبقين.

جهوده لفتح الدراسات العليا:

لكن طموح الشيخ الطاهر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد، فقد كان هاجسه الأكبر هو دفعنا إلى التكوين العلمي العالي وتمكيننا من ولوج عالم البحث العلمي، ولذلك سعى إلى فتح الماجستير على مستوى المعهد، رغم

حداثة المؤسسة وقلة الإمكانات. وقد أثمر سعيه، إذ لم يلبث طويلا حتى تمكن من الحصول على ترخيص من وزارة التعليم العالي بفتح الماجستير، وأجريت حينئذ مسابقة لاختيار الطلبة، نجح فيها مجموعة من المترشحين من طلبة المعهد وطلبة جامعة الأمير عبد القادر، وكنت واحدا منهم.

حرص الشيخ الطاهر على أن يوفر لنا الأساتذة الأكفاء المؤهلين لتدريسنا المواد المقررة، وفعلا تم تكليف الدكتور يوسف حسين أحمد الذي درسنا الأصول والفقه المقارن، والدكتور علي عبد الفتاح المغربي رحمه الله الذي درسنا منهجية البحث العلمي، كما تم استقدام أستاذ من جامعة الأمير عبد القادر، هو أستاذنا في التفسير والحديث الدكتور محمد الطاهر الجوابي رحمه الله.

انتهت الدروس النظرية، وجاء موعد اختيار الموضوعات لتسجيلها على مستوى المجلس العلمي، واخترت أن أبحث في موضوع (مدرسة المتكلمين ومنهجها في دراسة القواعد الأصولية)، على أن يكون المشرف هو الدكتور محمد الطاهر الجوابي (تونس)، واختار زميلي صالح بوبشيش موضوع (الحيل الفقهية ضوابطها وتطبيقاتها على الأحوال الشخصية)، مع نفس المشرف.

ورغم أننا كنا نعمل كإداريين، أنا وزميلي صالح، إلا أن الشيخ الطاهر سمح لنا أن نخصص أكبر وقت ممكن للعمل في البحث، وما هي إلا سنة حتى كنا قد أعددنا رسالتينا، بعد أن أصبح المشرف عليَّ هو الدكتور يوسف حسين أحمد (الهند)، والمشرف على زميلي صالح هو الدكتور حسيب حسن السامرائي (العراق)، وذلك بعد استقالة أستاذنا الدكتور محمد الطاهر الجوابي رحمه الله وانتقاله إلى السعودية للتدريس هناك، وتم تشكيل لجنتي القراءة على مستوى المجلس العلمي. بعد وصول التقارير بصلاحية الرسالتين للمناقشة، كان لابد من الحصول على رخصة المناقشة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العاصمة، ولذلك

سافر الشيخ الطاهر بنفسه مرتين إلى العاصمة وجاء برخصة المناقشة، بعد أن تكبد متاعب مضنية.

وكان اليوم المشهود، يوم المناقشة، 15 جوان 1994م، حيث أقبل الناس من كل حدب وصوب لحضور مناقشة أول رسالتي ماجستير على مستوى المعهد، وقد غصت بهم القاعة الكبرى لمسجد أول نوفمبر، وتمت مناقشة رسالة أخي صالح في الصباح ورسالتي في المساء، وحصلنا على شهادة الماجستير، هو في الفقه وأنا في الأصول.

فرحة لم تدم:

وإن نسيت فلست أنسى تلك الفرحة الغامرة التي ملأت نفس أستاذنا الشيخ الطاهر حليس، وظهرت جلية على محياه، وعبر عنها بلسانه عدة مرات. وهي الفرحة نفسها التي ظهرت على وجه الرجل الكريم المجاهد العقيد الحاج لخضر رحمه الله، الذي حضر المناقشتين، وظل جالسا مستمعا ومتابعا لما يقوله الأساتذة المناقشون، منذ الصباح إلى آخر المساء.

أيام قليلة بعد ذلك، وافق المجلس العلمي على ترقيتي وزميلي صالح بوبشيش إلى منصب أستاذ مساعد، وبذلك اكتملت فرحتنا وفرحة أستاذنا الشيخ الطاهر حليس رحمه الله.

لكن هذه الفرحة لم تدم طويلا، إذ بعد ثلاثة أشهر، امتدت أيادي الغدر والإجرام لتغتال أستاذنا الكريم؛ ففي مساء يوم الجمعة (21 أكتوبر 1994)، وبعد أن صلى المغرب في مسجد علي بن أبي طالب بحي كموني، وهو أقرب المساجد إلى بيته، ولما خرج منه وكان في طريق عودته إلى بيته، اعترض طريقه من أطلق عليه النار فأصابه برصاصة أو بضع رصاصات في رأسه، سقط إثرها شهيدا مضرجا بدمه.

وفي اليوم الموالي، تم تشييع جنازة أستاذنا بعد أن صُلي عليه في مسجد أول نوفمبر، وقد سار خلف نعشه الآلاف من أهل باتنة الذين كانوا يعرفون فضله وأعمال الخير التي كان يشارك فيها.

وبعد كلمة التأبين التي ألقاها الدكتور أحمد رحماني، تم دفن الفقيد إلى جوار أمه رحمها الله والتي كانت قد توفيت قبله بشهر أو أكثر قليلا.

وأذكر أن العقيد الحاج لخضر رحمه الله دعانا نحن أساتذة الكلية إلى الاجتماع، حينئذ، وحدثنا عن خصال الفقيد وعلاقته به، وكان مما قاله في تصوير خسارته وفاجعته هو شخصيا بفقده: "إن الذين قتلوا هذا الرجل، كأنما قطعوا يديَّ الاثنتين".

وفعلا، فقد كان رحمه الله يعتمد عليه في أمور كثيرة، ويستشيره في كبير الأمور وصغيرها، ولم يكن يبرم أمرا حتى يرجع إليه، وذلك ما شاهدته بنفسي، حيث كان الحاج لخضر كثيرا ما يأتي إلى الشيخ الطاهر في مكتبه أو يدعوه إلى أن يحضر إليه في مكتب الجمعية الدينية للمسجد، وكانا متجاورين تقريبا.

خصاله النادرة:

واليوم، وبعد مضي قريب من ثلاثة عقود من الزمن على رحيل أستاذنا رحمه الله، نذكره بخصاله الكريمة وأخلاقه العالية التي كان يتمتع بها ويتميز بها عن كثير من الناس.

لقد كان يتميز **بتواضع** مثالي لا نظير له، فما عاملنا يوما على أننا تلاميذه أو مرؤوسوه، وإنما كان يعاملنا كإخوة وأصدقاء، فكان لا يَمَلُّ جلوسَنا معه في مكتبه، وإذا غاب أحدُنا أو تأخر قليلا في الحضور سأل عنه ولامه على عدم المجيئ إليه.

وكنت شخصيا أجلس معه في مكتبه كثيرا، وعندما نكون لوحدنا، كان يخرج من محفظته مبحثا أو فصلا من رسالته، ويناولنيه ويخاطبني قائلا: "اقرأه وانظر ما يحتاج منه إلى تقويم فقومه"، رغم أني تلميذه وفي

عمر أكبر أبنائه. وفعلا كنت أقرأ العمل وإذا وجدت فيه خطأ من أي نوع أشَّرت عليه، وعندما أجلس معه من جديد أذكر له ما وجدته من أخطاء، وهي في العادة أخطاء بسيطة جدا، نتيجة السرعة في الكتابة أو السهو في النقل، فيأمرني قائلا: "وماذا تنتظر لكي تصححه؟ صحح في الورقة نفسها وسأعمل بالتصحيح عند رقن البحث".

وإضافة إلى التواضع؛ كان الرجل **بسيطا** كل البساطة، في كلامه وسلامه، في حديثه وصمته، في ملبسه ومركبه ومسكنه، في جلوسه ووقوفه ومشيته، كان يأتي كلَّ ذلك على سجيته، دون تكلف أو افتعال، يعامل الكبير والصغير، والرئيس والمرؤوس، والمشهور والمغمور، معاملة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير. ومن عجائب بساطته؛ أنه كان في بعض الأحيان لا يعود إلى بيته عند الظهر، فإذا شعر بالتعب أو غلبه النعاس، افترش على الأرض قطعة من الكرتون أو سجادة صلاة، واستسلم للنوم، بعد أن يوصي أحدنا بإيقاظه إذا لزم الأمر.

كما تميز رحمه الله **بالكرم** المنقطع النظير، فلم يكن يبخل على أحد بشيء، وكان يحرص على دعوتنا إلى بيته وتناول طعامه، وخاصة في المناسبات. بل أذكر أنه دعاني أكثر من مرة دون أي مناسبة.

وقد انفرد رحمه الله **بالتفاني** في خدمة المصالح العامة بشكل يجعله في أحيان كثيرة ينسى حقوق أسرته وأولاده. وأذكر أني رأيته أكثر من مرة يوم الجمعة في المعهد، إذ بعد أن ينتهي من إلقاء الخطبة وأداء صلاة الجمعة في مسجد "فسديس" في الضاحية الشمالية من مدينة باتنة، كان يمر بالمعهد أولا، حيث يقضي وقتا يطول أو يقصر، قبل أن يعود إلى بيته. وكان إذا قصده أحد في مصلحة ما، يبذل كل ما يمكنه من جهد، في سبيل تحقيق تلك المصلحة، كائنا من كان ذلك الشخص، وربما عرَّضَ نفسه للإحراج بسبب ذلك، دون أن يبالي.

لقد عشنا مع الشيخ الطاهر رحمه الله سبع سنوات متتالية، ما رأينا منه خلالها إلا كل خير، وما عرفنا عنه إلا الصلاح والتقوى والسعي في نفع المجتمع والناس.

والحق أني ما رأيت في حياتي مثله فيمن عرفت وعايشت من الناس. ومهما قلت فيه، فإنني لن أستطيع الوفاء بحقه.

وما شهدت للرجل إلا بما علمت، ولا أزكي على الله أحدا.

أ.د. مسعود فلوسي

كلمة الدكتور أحمد رحماني في تأبينه

قبل دفن جثمان الفقيد رحمه الله ألقى الأستاذ الدكتور أحمد رحماني كلمة موجزة نوه فيها بخصال الفقيد، هذا نصها:

الحمد لله القائل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26-27]. والقائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 1-2]، والقائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: 33].

عباد الله..

إننا إذ نبكي اليوم هذا الرجل الطاهر، فإننا نبكي فيه خصال الرجال، خصال الرجل الفاضل والأخ الكريم والمعلم الجاد والمدير الأمين، فقد كان رحمه الله خير عون للضعيف، وخير ساع في أبواب الخير، وخير رجل يمشي للإصلاح بين الناس، هكذا عرفناه وهو تلميذ يقرأ، وبهذا عرفناه وهو أستاذ يُعلم.

ما توانى يوما في مشروع خير دُعِيَ للمشاركة فيه، ولا تهاون في خير كلفته جماعة الخير ليسهر عليه.

لقد التزم - وهو طالب - بتقديم دروس التفسير والحديث في الكُتَّاب الجامع الذي أوقفه أبوه في بيته لله، فلم ينقطع حتى انتقل إلى إمامة الناس بمسجد قرية من قرى هذه المدينة التي فقدت فيه اليوم واحدا من الأئمة المخلصين لله، وواحدا من الأئمة المخلصين لدينه، وواحدا من الأئمة المخلصين للمسلمين.

وكان بذلك خير داعية فكر لهذا العمل الشريف منذ شبابه إلى أن صار أستاذا بهذا المعهد الذي سهر من أجله الليالي وأبلى في بنائه بلاء حسنا، فلم يتوان لحظة حتى رأى طلبته يناقشون رسائل الماجستير فبكى

من الفرح بكاء شديدا، ولا ينم ذلك إلا عن حبه لله وحبه للإسلام وحبه للطلبة.

وقد ظل ساهرا على بناء هذه القلعة إلى أن أدركته رحمة الله وهو خارج من صلاة المغرب وهو لا يزال على طهارته لم ينفض من جبهته بعدُ ما لصق بها أثناء السجود، فطوبى له وطوبى للمؤمنين.

إننا إذ نودعه فإننا نودع فيه المصلح العاقل، والباحث الجاد الذي كان آخر بحث له هو "أثر القرآن في الدراسات الأدبية"، والمعلم الطيب، والأخ الكريم.

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157].

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ. لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ. لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 101-103].

اللهم اجعله منهم.

آمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

قصيدة الدكتور حسيب السامرائي في رثائه

كان الأستاذ الدكتور الشيخ حسيب حسن حسب الله السامرائي العراقي رحمه الله [1925-2020]، أحد الأساتذة المدرسين بالمعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية بباتنة سنة 1994، وقد تأثر كثيرا لاغتيال مدير المعهد حينئذ أستاذنا الشيخ الطاهر حليس رحمه الله، فنَظَمَ قصيدة رثى فيها الفقيد، وأبرز خصاله ومكارمه، وقد سلمني صورة منها بخط يده، وكنت أحتفظ بها طيلة السنوات الماضية، ولعل هذه الفرصة مناسبة لنشرها.. يقول فيها:

"خواطر مؤلمة وسانحة فاضت بها القريحة المجروحة بفقد أعز حبيب وأصدق صديق: طاهر النسب"

فَوْقَ الْبَيَانِ وَفَوْقَ الشِّعْرِ وَالْكُتُبِ * فَجِيعَتِي بِكَ يَا طَاهِرَ النَّسَبِ
*
أَبْكِي بُكَاءَ غَرِيبٍ غِيلَ وَالِدُهُ * بُكَاءَ طِفْلٍ فَقِيدِ الأُمِّ مُنْتَحِبِ
*
أَرْبَعُونَ فِي خِدْمَةِ الإِسْلاَمِ مَا بَرِحَتْ * حُقُولُ غَرْسِكَ فِي خَصْبٍ وَفِي دَأَبِ
*
وَتَبْعَثُ الْعِلْمَ وَالأَخْلاقَ فِي زَمَنٍ * سَادَ الظّلامُ بِهِ بَحْرًا مِنَ الشَّغَبِ
*
يَا حَسْرَتَى قَدْ جَزَاكَ الْغَدْرُ طَعْنَتَهُ * كَمَا جَزَى عُمَرَ الفَارُوقَ طَعْنُ غَبِي
*
فَكَيْفَ فَكَّرَ إِنْسَانٌ بِطَعْنَتِهِ * مَاذَا يُرِيدُ وَمَاذَا دَافِعُ الرَّغَبِ
*
يَا عَارَ غَدْرِ الْوَرَى فِي قَتْلِ مُرْشِدِهَا * لِلهِ لِلْخَيْرِ يَا كَرْبِي وَيَا عَجَبِي
*
وَجَاءَ نَعْيُكَ لِي كَالْحِرْبَةِ انْغَرَسَتْ * فِي الْقَلْبِ تُدْمِي الْحَشَا بِالْحُزْنِ وَالْغَضَبِ
*
أَبَا تَوْفِيقَ أَلَسْتَ الْيَوْمَ تَرَى * حُزْنَ الْجُمُوعِ لَبَحْرٌ جِدٌّ مُصْطَخِبِ
*

نَشْكُو إِلَى اللهِ مِنْ نَجْلاَءَ نَافِذَةٍ * فِـي قَلْـبِ كُـلِّ أَسِـيفٍ مُسْـلِمٍ أَبِـي *
تَبْكِي الْمَنَابِرُ مَنْ كَانَتْ خَطَابَتُهُ * تُرْوِي الْجُمُوعَ كَجَيْشِ الْمُصْطَفَى اللّجِبِ *
أَهَكَذَا يَا بَنِي الدُّنْيَا جَزَاءُ الهُدَى * جَـزَاءُ كَاشِـفِ لَيْـلِ الْجَهْـلِ وَالْحُجُـبِ *
يَـا نَـائِحِينَ عَلَـى الْمَاضِـينَ مِـنْ رُسـلٍ * قَتَلْتُمُوهُمْ بِأَكْبَادٍ مِنَ الْخَشَبِ *
أَلْحَقْـــتُمُ الْيَـــوْمَ طَـــاهِرًا بِـــرَكْبِهِمُ * طَبْـعٌ مِـنَ الشَّـرِّ فِـيكُمْ دُونَمَـا عَجَـبِ *
كَمْ مُرْسَلٌ كَمْ وَلِيٌّ كَمْ فَلاَسِفَةَ * كَـــمْ مُصْـــلِحٌ قَتَلُـــوهُ طَـــاهِرَ الأَرَبِ *
صَعْبٌ عَلَى النَّفْسِ تَصْدِيقٌ بِمَصْرَعِهِ * أَيَقْتُلُ النَّاسُ هَادِيهِمْ بِلاَ سَبَبِ *
مَا زَاحَمَ النَّاسَ فِي دُنْيَاهُمُ أَبَدًا * مَطْلُوبُــهُ اللهُ وَالأُخْــرَى مُنَــى الطَّلَــبِ *
فَصَــاحَةٌ مِــنْ سَــنَا الْقُــرْآنِ نَبْعَتُهَــا * تَبْكِي وَتَهْدِي وَتَشْفِي الْقَلْبَ مِنْ وَصَبِ *
للهِ مِنْ وَاعِظٍ تَسْرِي بَلاَغَتُهُ * فِي الرُّوحِ لِلرُّوحِ فِي التَّحْدِيثِ وَالْخُطَبِ *
اخْتَارَكَ اللهُ مِنْ دُنْيَا مُلَطَّخَةٍ * بِالْعَــارِ مَمْسُــوخَةٍ بِــالظُّلْمِ وَالْعَطَــبِ *
شَهَادَةُ الرُّسْلِ وَالصِّحَابِ نِلْتَ بِهَا * عِنْــدَ الإِلَــهِ مَقَامًــا عَــالِيَ الرُّتَــبِ *

نسأل الله عز وجل أن يتغمد أستاذنا برحمته الواسعة، ويحشره في زمرة الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. آمين.

والحمد لله رب العالمين

نماذج من خطبه

الإسلام دين الوحدانية

الحمد لله على نعمة الإسلام وهديه ونوره، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله خير الأنام وعلى آله وصحبه ومن لبى نداء دعوته إلى يوم الدين.

الحمد لله الذي هدانا إلى نور دينه وجعله أعز شيء بالنسبة لنا في الحياة، جمعنا باسم الإسلام ووحد بين قلوبنا بنوره وشفى أمراضنا المزمنة بتلاوة قرآنه، وجمعنا أمة موحدة وصفها بالخيرية والصلاح والفلاح والتقوى والعمل الصالح.

عباد الله.. إن الإسلام دين الوحدانية في كل شيء؛ وحدانية الإله، وحدانية التصور والمعتقد، وحدانية المنهج والسبيل، وحدانية المستقبل والمصير... تلكم سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا ولا تحويلا....

هذا هو منهج الله وهذه هي سننه في كونه وعباده، أمرنا بالوحدانية وكتب على من آمن وأقر بذلك بأنه مسلم... جزاؤه الجنة.

لكن في نفوس العباد وساوس، وفي قلوبهم زيغ واضطرابات، وفي أهوائهم ميولات واتجاهات، وفي أعمالهم متناقضات، وفي معاملاتهم اختلافات ومضايقات....

هذه الأجهزة والأعضاء في حركة مستمرة وعمل دؤوب للوصول إلى غاية ما.... من حصن أجهزته وأعضاءه بصمام الإيمان والإسلام - اللذين أساسهما الوحدانية - كانت بداية انطلاقته حسنة ونهاية مطاف عمله مشرقة، ونشيده الأبدي الخالد: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163].. ومن انطلق في الحياة - تصورا وتفكيرا ومعاناة وعملا ومعاملات - بدون الإيمان والإسلام، متخذا من الشرك الأساس والمبدأ بالنسبة له، تشعبت به الطرق واختلفت به المسالك وأظلمت الدنيا في وجهه رغم شروق شمسها نهارا وتلألئ نجومها ليلا... وحق عليه قوله

عز من قائل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23].

سبحانك اللهم وبحمدك آمنا بك ربا وبمحمدٍ نبيا ورسولا بلغ الرسالة ونصح الأمة وهدى الناس إلى سواء السبيل.

سبحانك اللهم نحمدك ونستعينك ونستغفرك ونقر بأنك حذرتنا من الشرك وجعلت الشرك من الكبائر... جزاءُ المقرِّ به والمشبع لهواه عذابُك الأليم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

معشر المسلمين.. هذا حكم الله وهذا هو منهجه والطريق الذي رسمه لعباده في الحياة؛ الإقرار بالوحدانية في كل شيء، ومن لم يكن كذلك فجزاؤه النار، ومن لم يكن كذلك فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ومن لم يكن كذلك فقد سجل نفسه في قائمة فراعنة الدنيا الذين نطق قائدهم الأول فرعون المغرور وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]، وغرته الدنيا التي منحه الله تبارك وتعالى إياها وزخرفها ونعيمها، واعتقد بالخلود واستمرارية الحياة، وقال: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: 51].

سبحانك اللهم، ما أكثر الفراعنة في عصرنا الحديث الذي انحصر فيه الإيمان من قلوب عبادك، ولم يبق من الإيمان إلا ذرات مبثوثة هنا وهناك فوق الأعضاء والجوارح التي تتحرك لعبادتك بين الحين والآخر، تعبدك في المناسبات وتتذكرك في الشدائد والملمات وتتمنى عليك الأماني.

سبحانك اللهم، زاغت قلوب العباد وركبت هواها، وجعلت من القرآن كتابا مقدسا باللسان تقرأه على الأموات، مع أنه في الأصل إنذار لأهل الحياة، وشريعتهم منهاجهم المتعارف في معاملاتهم اليومية.

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

ربنا واهدنا سواء السبيل واجعلنا من مقيمي الصلاة.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمد الشاكرين، الحمد لله حمد التائبين الآئبين، الحمد لله حمد المقرين بوحدانيته المستغفرين من ذنوبهم آناء الليل وأطراف النهار....

معشر المسلمين.. إن الشرك كبيرة من الكبائر التي لا يغفرها الله للعبد يوم القيامة، يجازيه عن تصوراته المنحرفة وعن اعتقاده الضال بالنار.

وللشرك صور متعددة ومظاهر متنوعة، وفي مقدمة ذلك عدم الإقرار بوحدانية الله قولا وعملا....

فالوحدانية بالقول؛ أن ينطق المسلم ويقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها واحدا وربا واحد ونحن له مسلمون.

وأما الإقرار بالوحدانية عملا؛ فهو أن يقر الفرد بأعضائه المتحركة وأجهزته العاملة التي تصنع الحياة وتسجل التاريخ بأن هذا العمل أساسه أولا وأخيرا قوة الله وإرادته التي لا تغلب.

ولقد تسربت - معشر المسلمين - إلى أفكارنا وعقولنا مفاهيم أساسها الشرك بالله، فأدرجناها في حياتنا اليومية والعملية معتقدين بأنها من الدين، والدين منها براء.

ومن هذه الأعمال التي تسجل في قائمة الشرك؛ الرياء... والرياء عباد الله مرض خطير سرى في وسط المجتمع الحديث سريان النار في الهشيم، فأصبح الكثير يقوم بعمل ولا يحتسبه لله بل يحتسبه للعبد حتى يقال عنه بأنه رجل عظيم، والعظمة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، وحتى يقال عنه إنه شجاع وشهم وجريئ، إلى غير ذلك من الأوصاف والنعوت القاتلة التي تقضي على إيمان العبد وتعصف به عصفا، فيصبح عبدا همه الوحيد أن يثني الناس عليه.

كذلك؛ الاعتقاد بقوة الطبيعة وسيطرتها على العبد بدون أن نعتقد بأن هذه القوة من الله... معتقدين في قرارة أنفسنا بأن قوة الطبيعة شيء وقوة الله شيء آخر، والآيات الكونية التي أوردها القرآن الكريم ترجع هذه القوة إلى الله أولا وأخيرا....

فكم يخطئ العبد ويسجل اسمه في قائمة المشركين عندما يقول: "إن الحضارة المادية تعمل على أساس قهر الطبيعة وغلبتها والسيطرة عليها، وقد أعطت النظريات العلمانية نتائج مشجعة في هذا المجال"!!

كذلك بالنسبة لاعتقادنا بأن الطب الحديث يزيد من أعمار البشر وأن الفرد لو اعتني به عناية صحية وعناية غذائية وأخذ ما يكفيه من المقومات لما أصيب بالمرض الذي يؤدي به إلى الوفاة، ونسينا قول العلي القدير: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78].

هذه كلها معشر المسلمين من الشرك الأصغر، حذرنا الرسول ﷺ منها ونهانا وأمرنا بالابتعاد عنها اعتقادا وعملا.

حيث جاء في حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء، يقول الله لهم يوم القيامة إذا جزي الناس

بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم جزاء؟»[1]. فماذا يمكن أن يجد العبد عند عبد مثله غدا يوم القيامة؟

وحديث محمود بن لبيد رضي الله عنه الآخر، قال: خرج النبي ﷺ فقال: «أيها الناس! إياكم وشرك السرائر»، قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: «يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظر الناس إليه، فذلك شرك السرائر»[2].

وحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ»[3].

أي أن الصلاة إذا لم تكن لله، ومثلها الصوم وكل العبادات، فهي تترك في الدنيا ولا يسجلها الله تبارك وتعالى ضمن الأعمال الصالحة للعبد، لأن فيها الرياء، والرياء من الشرك الأصغر.

عباد الله.. علينا أن نرجع إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ حتى نصون أنفسنا ونحافظ على كرامة بشريتنا حتى نلقى الله وهو عنا راض ونحن بأعمالنا الصالحة الطاهرة النقية نتمتع بنعيمه الدائم وثوابه الجزيل.

اللهم احفظنا من الشرك كبيره وصغيره، وقنا عذابك المستحق لأهل الشرك. اللهم إنا نسألك بقلوب ملؤها الإخلاص لك أن تهدينا الصراط المستقيم حتى نكون من عبادك الصالحين.

اللهم ارزقنا الشهادة في ميدان الدفاع عن دينك وحرمة حدود أوامرك ونواهيك. اللهم آمين يا رب العالمين، إنك نعم المولى ونعم المجيب. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم....

---

(1) رواه أحمد والطبراني. قال المنذري: إسناده جيد. وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر: إسناده حسن.
(2) رواه ابن خزيمة والبيهقي وابن أبي شيبة، وحسنه الألباني.
(3) رواه أحمد، وصححه ابن حبان والألباني.

وجوب القراءة وطلب العلم

الحمد لله معلم البشر وهاديهم إلى الطريق السليم الذي أساسه الهداية الحقة السليمة، التي تقود الفرد إلى الاستقامة، وتبعده عن الغواية، وتجعله مستقيم الرأي والسلوك، وظاهره عنوان باطنه.

والصلاة والسلام على نبي العلم الموجه الهادي إلى الاستقامة الدنيوية التي هي بداية الحياة.

معشر المؤمنين الصادقين، المتبعين الدين الإسلامي الحنيف، الباحثين في معالم هذا الدين وقواعده ومبادئه السليمة السمحة.

لقد جعل الإسلام من العلم الوسيلة الوحيدة والطريقة المثلى للوصول إلى السعادة في الدارين الدنيا والآخرة، وكانت أول كلمة نزلت من عالم الخلود، من عالم البقاء الأبدي الذي إليه نكدح وإليه المنتهى، كلمة (اقرأ).

فالقراءة - معشر المؤمنين - مفروضة على كل مسلم ومسلمة، يرزقان الحياة ويمتلكان الإمكانيات المؤدية إلى ذلك.. فالقراءة جاءت من قبل المولى تبارك وتعالى بصيغة الأمر (اقرأ)، اقرأ بماذا: باسم المال؟ لا، باسم السيطرة؟ لا، باسم السلطة والجاه؟ لا، باسم العزة والمناعة؟ لا، باسم النجاة من الموت؟ لا، باسم البقاء والخلود؟ لا، إذن باسم ماذا؟ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)﴾ [العلق: 1-2].

1- **وسائل القراءة:** القلم، التعليم، الجلوس عند أستاذ عارف ومدرك.

2- **العلم في الإسلام مقوم للألباب:** وهل يمتلك البشر وسيلة غير هذه لتقويم العقول؟ فعقول البشر هيئت في الأصل لتكون جهازا عاملا يعمل في كل وقت، وأساس عمله الانتقال من أسوأ إلى أحسن، وبعدها تبدأ سلسلة الأحسن صعدا.

3- **التطور لا يكون إلا بالعلم:** علم الزينة، وعلم الإيمان، فعلم الإيمان هو الأول وبعدها يأتي علم الزينة.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

وعلى النقيض من ذلك، جعل المولى تبارك وتعالى الذين لا يعلمون في الدرك الأسفل فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 59].

الخطبة الثانية:

الحمد لله هادي البشر ومبين طريق الحق، ونابذ طرق الظن.

والصلاة والسلام على نبي الرحمة الذي ظهرت له الحقيقة الربانية واضحة المعالم، مشرقة كإشراقة الشمس في يوم صافي الأديم.

معشر المؤمنين.. إننا نعيش في عصر يقال عنه عصر العلم، وإن الإنسان بلغ درجة عالية من التطور والرقي الفكري، لم يصلها الإنسان في وقت من أوقات حياته عبر العصور التاريخية المتعاقبة.

غير أن العلم السائد في الآونة الراهنة علم مبني على الظن والتخمين، لا العلم المبني على الحقيقة الذي أساسه الإسلام، يقول جل من قائل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]، يَخْرُصُونَ: يكذبون.

وقد تغرر الحياة بالإنسان وتسوقه إلى منعطف خطير ومنزلق يؤدي إلى النار، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

ويأمرنا تبارك وتعالى بأن نتقيد بالعلم الذي أساسه اليقين، حيث يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36).

لا تقف: لا تتبع كل ما يقال لك مما ليس لديك عنه علم يقين، لأن الإنسان يُسأل يوم الحساب عما تلقاه سمعه وأدركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير الحقة التي تجر إلى معتقدات ضالة أو جهالات ضارة.

الإسلام ضد التقليد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)﴾ [البقرة: 170-171].

ينعق: يصيح، الدعاء: الصياح بالبهائم لتأتي، النداء: الصياح بها لتذهب.

الهجرة النبوية الشريفة

1980/11/14

الحمد لله على نعمه وخيراته التي لا تعد ولا تحصى.. الحمد لله الذي اختار محمدا سيد الخلق واصطفاه على سائر الأنبياء والمرسلين وجعله خاتم النبيين، وبعثه للمجتمع الإنساني كافة وتعهد برعاية رسالة المصطفى والمحافظة على تبليغها ونشرها في مشارق الأرض ومغاربها.

الحمد لله الذي هدانا لهذا الدين الذي حمله جبريل وبلغه للرسول محمد ﷺ ووصلنا كاملا غير منقوص ننعم بهديه ونستظل بفيض رحماته.

معشر المسلمين..

إننا نعيش في شهر محرم خير الشهور، الشهر الأول من السنة القمرية التي ربطت بهجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحيات.

لقد أمر الله تبارك وتعالى محمدا ﷺ أن يغادر مكة بعد أن قضى فيها ثلاثا وخمسين سنة فوق أرضها ووهادها وشعابها...

أمر الله رسوله ﷺ بالهجرة بعد أن قضى ثلاث عشرة سنة مبلغا وناصحا وموجها ومنذرا بالكلمة الطيبة والقول الحسن: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، فاستجاب لدعوته من استجاب وأنكر من أنكر، وكانت دعوته في بداية الأمر دعوة عقائدية إلى وحدانية الله وعبادته وحده لا شريك له وتذكير الإنسان بأن مصيره إلى الآخرة ليحاسب على عمله في الدنيا فيصير بعد ذلك إلى الجنة أو النار...

لكن الفئة القرشية استحوذ عليها الجهل والغرور وتملك عقلها الشيطان وأبت أن تستجيب لدعوة الهدى ونور الحق، فكان منها أن حاربت الرسول ﷺ وعملت ما عملت لبث روح الفتنة والشقاق والتفرقة

في وسط مجتمع اختار الله تبارك وتعالى من بينه نبيا مرشدا وموجها يعيد للمجتمع الإنساني مكانته واعتباره.

فكانت دعوة الرسول ﷺ في بداية الأمر مقتصرة على العشيرة والأحبة والعائلة، فاستجابت لهذه الدعوة فئة خيرية كان لها ما كان في نشر الإسلام والتحمس له والتفاني في خدمته بالنفس والمال والفكر...

وكان الرسول ﷺ يتصل بالوفود القادمة من قبل القبائل المختلفة الآتية لزيارة بيت الله الحرام، كما يتصل بالوفود التجارية المشاركة في الأسواق التي تنظم قرب مكة...

وشاع خبر الفتى القرشي في جموع القبائل العربية بالرسالة الجديدة التي حملها من قبل رب الوحدانية، فوجد في بداية الأمر الإنكار والإعراض من قبل الأغلبية، والاستجابة الحسنة من قبل الأقلية القليلة.

وعملت قريش ما عملت لإيقاف الزحف الإيماني وعدم انتشاره في أرجاء الدنيا، ولكن إرادة الله غالبة: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

فأتم الله تبارك وتعالى انتشار نور دعوة الإسلام واستقراره في نفوس المؤمنين الصادقين الذين عاهدوا الله على تبليغ ذلك والاستماتة في التبليغ.

إن الدعاية القرشية ببطلان رسالة محمد عملت عملها في النفوس الضعيفة التي استحوذ عليها الشيطان وألبسها رداء الكفر وخلع عنها رداء الإيمان، فقد شاع خبر بطلان الرسالة المحمدية والحذر من صاحبها حتى في بلاد مصر والحبشة، فتجد العائلة المصرية أو الحبشية والفرد منها مقبل على التجارة بالجزيرة العربية توصيه عائلته بعدم اتباع أقوال ودعوات الفتى القرشي الذي يزعم بأنه نبي ورسول.

ومما ورد في كتب السيرة أن الرسول ﷺ كان يسير بين الجموع البشرية التي جاءت للتجارة في المواسم والأسواق مثل عكاظ، يعظهم ويرشدهم وهم عنه معرضون وإليه بأصابعهم مشيرون.

وبقي الحال هكذا حتى هدى الله تبارك وتعالى أهل يثرب فاتصل بهم ووعظهم فاستجابوا، وحدثهم فسمعوا، وأرشدهم فاستقاموا، وخاطبهم فآمنوا.

فأصبحت يثرب من جراء هذه الاستجابة كلٌّ **بيوتها** إيمان وهدى وتقوى وتلهف لاستقبال الرسول ﷺ.

علمت قريش ما حدث وكيف أن يثرب أصبحت هي دار الاستجابة وصدى الدعوة ومستقر الإيمان والهدى، فشعرت بالخطر وأحست بقرب نهاية السيادة بالنسبة لها...

فما كان عليها إلا أن تفكر هذه المرة بجدية وتفعل شيئا، وقد فكرت وصممت على فعل ما يرضيها ويخلصها من محمد ﷺ، فقد اجتمعت قريش في دار الندوة بحضور مفكريها ومستشاريها، بقيادة الشيطان الذي ظهر في زي شيخ نجدي يسمع ولا يعطي الرأي ليوافق في نهاية الأمر على الخطة الناجعة التي ترضيه وتقضي على نور الهدى.

معشر المسلمين.. إن شياطين الإنس يتحدون في الفكر والرأي مع شياطين الجن، وقد ظهر هذا جليا بالنسبة لقصة الرسول ﷺ وعمله الأساس في تبليغ الرسالة الإيمانية.

واحتدت المناقشة واشتد الصراع في أي الآراء أصوب وأنجع، فكان إبليس يرد كل الآراء ولا يقبلها، حتى تكلم أبو جهل وقال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما نهدا جلدا ثم نعطيه سيفا صارما فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع ولا يمكنها معاداة القبائل كلها ونسوق إليهم ديته، فقال الشيخ إبليس: لله در الفتى، هذا والله الرأي، فتفرقوا على ذلك.

خطة تبدو وكأنها محكمة وطريقة ناجعة في تصور أهل الشرك والضلال والإلحاد ليتخلصوا من نور الله ورحمته وهداه، وتبقى خطوات الشيطان وطغيانه وضلاله هي النموذج المحتذى والطريقة المثلى للفئة

القليلة التي حبست على نفسها بالقوة النعيم والسيادة، وكأن الخلود لها وحدها والبقية الباقية دون ذلك.

معشر المؤمنين.. تدخلت رعاية الله وإرادته، وجاء جبريل في حاله وحينه يخبر رسول الهدى ونبي الرحمة بالاستعداد والتجهُّز للهجرة ليُتم بقية الرسالة ويبلغ ما تبقى من قوانين الله الثابتة الخالدة...

أخبر جبريل الرسول ﷺ عن مؤتمر دار الندوة وما جرى فيه، وأخبره عن عمل الشيطان وما تقرر إنجازه.

معشر المسلمين.. إن الإسلام قد وجد الإنكار والإعراض والصدود في بداية الدعوة ولا يزال ذلك قائما، لأن للشيطان جولات مع العباد في كل وقت وحين، علينا أن ندرك أن الإسلام لا يؤخذ بالسهولة المعتقدة ولا بالكيفية المعهودة المتعارف عليها لدى عامة الناس.

إن الإسلام مغالبة النفس وكسر جماح شهواتها الآثمة، والاستجابة لأمر الله في كل وقت وحين، وتقديم النفس والنفيس كما فعل الرسولُ ﷺ وصحبُه. وكما اجتمعت كل فئات الضلال رغم كثرتها لتقهر فئة الإيمان رغم قلتها، ومع ذلك جانبُ الإيمان تغلب على الضلال والزيغ والانحراف.

اللهم اهدنا سواء السبيل، وألهمنا الطريق المستقيم، واجعل عاقبتنا لما ترضاه وتحبه، إنك نعم المولى ونعم النصير.

الخطبة الثانية:

الحمد لله على هدى قرآنه ومحكم تنزيله، والصلاة والسلام على قائد الهجرة، ورضي الله عن صحابته الذين كانوا معه في ساعة العسرة بأنفسهم وأموالهم وأهليهم وأفكارهم.

معشر المسلمين.. جهز الرسول ﷺ نفسه للخروج من مكة أعز بلد بالنسبة له، ولم يكن التجهيز ماديا كما هو متعارف عليه قديما وحديثا ومستقبلا، إنه تجهيز نفسي وروحي.

خرج ليواصل ما تبقى من الشطر الثاني من تبليغ الرسالة، إنه بلغ جانب العقيدة وأصبح التصور واضحا والاعتقاد راسخا لدى المستجيبين الذين هداهم الله.. وفي المدينة سيواصل تبليغ الجانب الحياتي المتمثل في الشريعة الإلهية السمحة التي أساسها احترام الفرد وإعطاؤه المكانة الحقيقية التي من أجلها وجد ويتواجد فوق الأرض.

خرج الرسول ﷺ رفقة صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، خرج ومكة أعلنت حالة الطوارئ القصوى للقضاء على نور الهدى وعدالة السماء.

وتوجهت زمرة الشرك والإلحاد إلى دار الرسول ﷺ لتحيط بها وتنتظر خروجه وقت الفجر لتقضي عليه.. وعلم المصطفى كل ذلك عن طريق جبريل الروح الأمين، فأمر عليا بن أبي طالب رضي الله عنه المجاهد الأول في الإسلام أن ينام في مكانه، ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من داره والقوم قد أحاطوا به، فيحثو التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه وهو يتلو قول العلي القدير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:9].

واتجه في حينه إلى دار أبي بكر، وسارا تحت أجنحة الظلام وعين الله ترعاهما حتى وصلا إلى غار ثور، مكثا بالغار ثلاث ليال، وأسرعت قريش في طلبه وقد اهتدت إلى ذلك لولا حماية الله له وتخليصه من أذاهم وشرهم بأوهن شيء وهو نسيج العنكبوت، ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُون﴾ [العنكبوت: 41].

خابت قريش في طلبه، وسار قاصدا يثرب، والقوم هناك في حالة استعداد تعلوهم الفرحة وتستولي عليهم البهجة لأن نبي الرحمة سينزل بدارهم وأراضيهم، وسيكون واحدا منهم وهم جنوده وهم أنصاره وهم المؤازرون له....

ولم تتوقف قريش عن الطلب بل اجتمعت للمرة الثانية وخصصت جائزة معتبرة لكل من يأتي بمحمد حيا أو ميتا.. وفعلت الجائزة فعلتها في

نفس سراقة بن مالك فركب فرسه وانطلق مسرعا لا يلوي على شيء، حتى كاد أن يقترب من قافلة الإيمان والهدى، وأبو بكر يقول بين الحين والآخر للرسول ﷺ: هذا سراقة قد لحق بنا، والرسول لا يلتفت إليه أبدا، وعند اقتراب لحاقه بهما دعا الرسول ﷺ عليه، فساخت رجل فرسه في الرمل، فنادى سراقة بأعلى صوته: قد علمت يا محمد أن ما حل بي وبالفرس من دعائك فخفف عني وإني معاهدك على أن أعود من حيث أتيت وسأدفع القوم عنك في حالة ابتغاء اللحاق بك.

معشر المسلمين..

إن في رحلة الهجرة أكثر من معنى وعبرة، وإن في تاريخ حوادثها لمعجزات إلهية تتركنا نحن - والإسلام قد مضى على ظهوره أربعة عشر قرنا - نزداد إيمانا وتقوى وتقربا إلى الله تبارك وتعالى، وتجعلنا حوادث الهجرة نزداد تمسكا بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ بعد أن زاغت أبصارنا وانحرفت نفوسنا وأصابنا ما أصابنا من عدم تطبيق شريعة الله.

معشر المسلمين..

وصل الرسول ﷺ إلى المدينة وسكانُها في حالة استعداد لاستقباله، وصل المدينة والقوم كلهم حوله مهللين مكبرين، حيوه بتحية النبوة والسكينة تغشاهم في حالة اللقاء، ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

فسار رسول الله ﷺ حتى نزل بموضع يسمى قباء في بني عمرو بن عوف فأسس أول مسجد في بني عوف يسمى مسجد قباء وصلى فيه أول جمعة فوق الأرض.

هكذا وصل الرسول ﷺ إلى المدينة تصحبه رعاية الله وتحميه، ليضع اللبنة الأولى في بناء الدولة الإسلامية التي كان لها ما كان من مجد وسؤدد ونشر لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإقامة العدالة الحقة فوق الأرض.

معشر المسلمين.. إن الهجرة لم تكن خوفا من الرسول وضعفا من أهله وأصحابه، وإنما كانت أمرا من الله، إذ شاءت إرادته وعلمه أن تكون المدينة هي مهد تطبيق الشريعة بعد أن كانت مكة هي مهد تطبيق العقيدة.

اللهم أنر قلوبنا كما أنرت قلوب المجاهدين المخلصين الذين آزروا الدعوة الإسلامية وكانوا معها من أول وهلة.

اللهم اهدنا سواء السبيل واحشرنا في زمرة المهاجرين والأنصار يوم يُجازى العباد بما قدموا.

آمين يا رب العالمين، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

مشاهد يوم القيامة

1981/01/02

الحمد لله أن جعل الإنسان خليفته فوق الأرض، وحمله أمانة تعميرها ونشر لواء دينه وقانون حكمه وسلطانه، ومكنه من كل الأسرار التي تعد الأساس لمعاشه، وهداه طريقين؛ طريق الخير الذي أساسه الاهتداء بهديه ونهايته الاستقرار في مقر جنانه، وطريق الضلال الذي أساسه غواية الشيطان ونهايته الاستقرار في مقر ناره، سبحانك اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا من العلوم الدنيوية والدينية، وأنرت عقولنا بحصيلة من المعارف على ضوئها، بحولك وقوتك نتحرك في الحياة ونعرف ما أعددت للإنسان في الآخرة وما ينتظره من نعيم أو عذاب.

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك النبي الأمي وعلى آله وصحبه الأخيار الأبرار.

معشر المؤمنين الذي صدق إيمانهم وخلصت نياتهم واستقامت أهواؤهم على الطريقة المحمدية واستجابت عقولهم لهدي الإسلام..

إن الحديث عن الدنيا نتركه للحواس تحسه، وتبحث عن كل كبيرة وصغيرة فيها، ولقد ورثنا معارف لا تعد ولا تحصى عن المجال الدنيوي، فهلا عرضنا ولو الجزء اليسير من الآخرة.

إن بيت الدنيا محفوظ بكل أجزائه وأثاثه وكل ما فيه، وبيت الآخرة لا نعرف منه إلا القليل، فلنعد إلى القرآن العظيم وإلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ونتدارسهما لنعرف الأوصاف المقدمة لنا حول هذا المستقر الأخير.

إن للآخرة دارين؛ دار النعيم وهي الجنة، ودار الشقاء وهي النار، والفرز الذي يقع بالنسبة للدارين سيكون على أساس العمل الدنيوي، وخبايا النفوس ومستبطنات القلوب في كل لحظة من اللحظات التي يعيشها الفرد في الحياة وقد اكتملت صفات الرشد والبلوغ بالنسبة له.

معشر المؤمنين الصادقين عمار بيوت الله وقصاد مناراته..

عاش العبد ما شاء الله له أن يعيش وخرجت روحه، واطلع على نتيجة عمله وانفصلت روحه عن جسده واستقرت في مستقرها في عالم البرزخ، وبقي الاتصال الدائم بين الروح والجسد بالقبر، وانتهت مرحلة البرزخ إلى مرحلة البعث والنشور، فماذا قال الله تبارك وتعالى في البعث والنشور؟ وماذا أخبرنا رسول الله ﷺ عن ذلك؟

إن الحشر معشر المؤمنين عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى (عرصات القيامة) وذلك لفصل القضاء، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم.

فالناس يبعثون من قبورهم أحياء، حفاة، عراة، غرلا (غير مختونين)، وقد قال الله تبارك وتعالى في هذا الأمر والشأن: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: 104]، وقال رسول الله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ، كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ»[1]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تحشرون حفاة عراة غرلاً»، قالت عائشة: قلت: يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»[2].

أما الكافرون فيحشرون على وجوههم لقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)﴾ [الإسراء: 97-98].

(1) رواه البخاري.
(2) رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليسَ الذي أمْشَاهُ علَى الرِّجْلَيْنِ في الدُّنْيَا قَادِرًا علَى أنْ يُمْشِيَهُ علَى وجْهِهِ يَومَ القِيَامَةِ؟»[1].

وعندها ماذا يحدث معشر المؤمنين؟ تدنى الشمس من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جدا، فتشتد الحرارة في الموقف، ويعرق الناس لذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعا، فقد جاء في الحديث الصحيح عن المِقْدَاد بن الأسود قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَومَ القِيامَةِ مِنَ الخَلْقِ، حتَّى تَكُونَ منهمْ كَمِقْدارِ مِيلٍ. [قالَ سُلَيْمُ بنُ عامِرٍ: فَواللَّهِ ما أدْرِي ما يَعْنِي بالمِيلِ؟ أمَسافَةَ الأرْضِ، أمِ المِيلَ الذي تُكْتَحَلُ به العَيْنُ]. قالَ: فَيَكونُ النَّاسُ علَى قَدْرِ أعْمالِهِمْ في العَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى كَعْبَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى رُكْبَتَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن يَكونُ إلى حَقْوَيْهِ، ومِنْهُمْ مَن يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلْجامًا». قالَ: وأَشارَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ بيَدِهِ إلى فِيهِ[2].

معشر المؤمنين..

إن يوم الحشر يوم عظيم وهوْله شديد، وموقفه حرج وصعب، فعلينا جميعا أن نلتف حول الإسلام حتى نخفف من هول هذا اليوم ونكون أمام أعمالنا وهي الدليل الذي يقودنا إلى الجنة والاستقرار في مقام الرضوان.

معشر المؤمنين..

إن خطايانا الدنيوية وعدم امتثالنا لأوامر الله سبحانه وتعالى، تكاد أن تنطق وتقول: أيها الناس إنكم ظلمتم أنفسكم حيث زين لكم الشيطان سوء عملكم، واتبعتم أهواءكم وسرتم وراء شهواتكم الآثمة، وتركتم الدليل الرباني والموجه الإلهي المتمثل في كتابه الذي نقرأه ليل نهار، وتركتكم الكون الإلهي الذي نبصره صباح مساء، وكأن أبصارنا قد عميت وحواسنا قد تحجرت وعيوننا قد أصابها ما أصابها من زيغ وانحراف، وأصبحنا لا

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه مسلم.

نرى من الحياة إلا شيئا واحدا ومصدرا واحدا هو المادة التي اتخذناها شهوة ولذة ومتعة، وكأننا قد نفخنا فيها الروح فأصبحت تخاطبنا ونخاطبها وفي نهاية الأمر استولت علينا فأصبحنا لها عبيدا تقودنا إلى الهاوية وتقذف بنا إلى الجحيم.

معشر المؤمنين.. علينا بالعودة إلى كتاب الله وسنة حبيبه المصطفى ﷺ.

الإيمان باليوم الآخر

1981/01/09

الحمد لله على كتابه الذي هدانا به وأرشدنا إلى ما فيه خير صلاحنا وفلاحنا، وأعطانا من فيض نعيمه ما لا يعد ولا يحصى، ووجهنا الوجهة السليمة الصحيحة التي تعد ملجأنا في الحياتين الدنيا والآخرة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنبياء هداية وأحسنهم صبرا وثباتا على تبليغ رسالة رب العالمين.

معشر المؤمنين.. يقول الرسول ﷺ: «إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغَدَاة والعَشِي، إن كان من أهل الجنة فمِن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمِن أهل النار، فيُقال: هذا مقعدُك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[1].

إن التأكد - معشر المؤمنين - من مصير العبد غدا يوم القيامة ومجازاته من قبل الله تبارك وتعالى عن عمله الدنيوي يعد هو الدافع الأساس والقوي للسير على الطريقة الحسنة المثلى التي رسمها الله تبارك وتعالى للعبد في حياته الدنيوية، ولقد وصف الله تبارك وتعالى دار البوار في القرآن بأوصاف متعددة وبينها لنا حتى نتقي عذابها ونبتعد كلية عن كل ما هو صعب علينا مواجهة عذابه يوم القيامة.

فدار البوار - معشر المؤمنين - هي جهنم، كما أن دار السلام هي الجنة، ومن تمام عقيدة المؤمن واكتمال إيمانه أن يعرف كل ما له علاقة بالنار كما جاء في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

فجهنم - معشر المؤمنين - كما أخبرنا الله تبارك وتعالى يؤتى بها يوم القيامة ويشاهدها الناس وهم بالعرصات: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26)﴾ [الفجر: 23-

---

(1) متفق عليه.

26]، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: 91]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)﴾ [الشعراء: 91-95].

معشر المؤمنين.. إن دار البوار هي عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها، وهي سبعة تتفاوت في شدة عذابها، أخفها عذابا أعلاها وأشدها أسفلها، ولكل دركة اسمها الخاص بها، فقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (44)﴾ [الحجر: 43-44].

نار جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، الهاوية.

﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 65-66].

الخطبة الثانية:

الحمد لله رب العالمين، نحمده حمد الشاكرين ونتوب إليه ونستغفره من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلي ونسلم على نبي الرحمة ورسول الهدى.

معشر المؤمنين.. من تمام عقيدة المؤمن واكتمال معرفته بعقيدته أن يكون على علم بما جاء في القرآن وهو الكتاب الواصف لحياة الإنسان وما يصيبه في الدنيا، والواصف لحياته وهو في الآخرة وما يلقاه أو ما يجده.

لقد أخبرنا الله تبارك وتعالى عن النشور والحشر بعرصات يوم القيامة، وهناك تتم عملية الفرز على أساس العمل الدنيوي، فتظهر مجموعة النار زمرا زمرا تساق بالقوة بواسطة ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72)﴾ [الزمر: 71-72].

وما إن ترى جهنم أهلها من مكان بعيد حتى يسمعوا صوتها ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: 12].

اللهم قنا عذاب نارك وأبعدنا عن كل ما يجر إليها.

اللهم ألهمنا الطريق المستقيم في الحياة الدنيا للعمل الصالح حتى ننجو من وعيدك.

اللهم ارحمنا برحمتك الواسعة واحفظنا من كل مكروه في الدنيا والآخرة يا أرحم الرحمين يا رب العالمين.

الإسلام حارب الوثنية

1981/01/16

الحمد لله على نعمة الإسلام وهديه ونوره الذي أضاء أرجاء الكرة الأرضية بدون التقيد بالمكان والزمان منذ بعثة المصطفى ﷺ.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.. هدانا للطريق المستقيم وأنعم علينا ببركاته وخيراته التي لا تعد ولا تحصى.

والصلاة والسلام على خير الأنام محمد بن عبد الله هادي الناس وموجههم ومرشدهم إلى ما فيه سعادة الجميع.

معشر المسلمين.. إننا في بداية القرن الخامس عشر من بعثة الرسول ﷺ، ونور بعثته يشع رحمة وهداية ونورا يستضيئ به المجتمع الإنساني، ويتنعم به كل فرد هداه الله إلى الصراط المستقيم.

معشر المؤمنين.. قبل مولد الرسول ﷺ وبعثته عرفت البشرية تاريخا أسود حالك الظلام، فالباطل كان هو القانون الأساس الذي ساد حياة البشرية، ولقد أعطى الإنسان يوم ذاك لنفسه الحرية المطلقة لتسيرها، وتسخير كل ما وجدت لتشبع أهواءها الآثمة ونزواتها المتطرفة.

ولقد انسلخت البشرية عن عمرها، فخلعت عمر التقوى والتقرب إلى الله تبارك وتعالى، واستبدلته بعمر الشرك والانحلال والخلاعة.

لقد عرفت البشرية علوما وفلسفات وتجارب اجتماعية، نتيجة المجهودات المبذولة عبر الأجيال المتعاقبة، ولكنها علوم ضالة منحرفة لم تعط للإنسان إلا الجحيم الدنيوي **والانحراف** عن فطرته، فكان مصير الحضارات السابقة الزوال والاندثار والدمار، ولم يصلنا منها إلا ما سجله التاريخ على أساس خرافات وعادات سيئة، تمثلت خاصة في تقديس العجول والأبقار وعبادة الأخشاب والأحجار، وأعطت في نهاية المطاف ديانة أطلق عليها اسم الوثنية.

والوثنية - معشر المؤمنين - ضعف وهوان يصيب النفوس من داخلها، وفتور يستولي على القلوب فيحطم مادة أصلها وتواجدها، والوثنية لا تعرف التوقف ولا الفرز، التوقف حيث التفكير ومتابعة جزئيات الأشياء وربطها ببعضها البعض، إنها تعيش في الفوضى وتحيى في الشتات، فهي تنظر إلى الكون على أنه أشلاء ممزقة وقطع متناثرة لا يربطها رابط ولا يجمع بينها جامع وإن وُجد فهو صدفة أساسه المادة.

والوثنية - معشر المؤمنين - تتخذ من الخرافة دليلها ومرشدها وموجهها، والخرافة تجاري صاحبها المجنون وتعينه على غيه وبطلانه فتسلحه ببعض نتائج الحق حتى يبدو أنه الحقيقة في عالم السراب، وبذلك تستطيع أن تغير على الدين الصحيح وحقائقه الناصعة فتفسد ما تركت ولا تصلح ما أخذت.

أخذت الحقيقة الربانية واكتسبت المنطق والعلوم التجريبية، فحولته إلى شر بعد أن وصل إلى جوفها وأصبح يقذف بالسموم الفتاكة بعد أن كان كله خيرا وهو عن الوثنية بعيد.

ومن ذلك يتضح السر العجيب في أن الوثنية التي لا تعرف الله تزعم أنها بأصنامها تتقرب إلى الله وتبغي رضاه.

كيف يخطر على بال - معشر المؤمنين - أن العبد بعقله وتفكيره وخلاياه ونطقه وكل ما يمتلك من أجهزة حياتية معقدة، لا يقوى على التقرب إلى الله بل يتقرب عن طريق الحجر الأصم أو الشجر أو الحيوان.

إنهم بهذه العملية - من اتخاذهم جزءا من الحق وإدخاله في أجزاء من الباطل – جعلوا الناس ينحرفون كلية عن عبادة الله.

فالمسيحية أصابها التبديل الذي يجعل الناس ينكرون ما يقال ولا يتخذونه حتى كمادة للمناقشة.

ولقد اتخذت الوثنية كذلك - معشر المؤمنين - صحابة الأنبياء وأتباعهم، اتخذت الأماكن التي كانت تجلس بها مقاما ومزارا وأطلقت عليها أسماء أصحابها كما حدث لقوم نوح عليه السلام.

فهناك أفراد مؤمنون اتبعوا نوح وعبدوا الله تبارك وتعالى حق العبادة، فلما ماتوا اتخذ القوم الكافرون من أماكن إقامتهم وعبادتهم مزارا يزار ومعبدا يعبد، وهذه الفئة المؤمنة سماها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (23) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (24)﴾ [نوح: 23-24].

فأسماؤها: وَدًّا، سُوَاعًا، يَغُوثَ، يَعُوقَ، نَسْرًا.

ومن غرائب الصدف للوثنية أن هذه الأسماء أصبحت فيما بعد لأصنام عند العرب رغم تطاول العهد وقدم الزمن.

وُدّ: كانت لكليب بدومة الجندل. سواع: كانت لهذيل.

يغوث: كانت لمراد ثم لبني عطيف بالجرف عند سبأ.

يعوق: كانت لهمدان. نَسْر: كانت لحِمْير.

معشر المؤمنين.. هذه هي الوثنية المادية شأنها قديما هو شأنها حديثا، اتحدت في منهج واحد وطريقة موحدة أساسها الكفر بالله والابتعاد عن وحدانيته، وعصيانه وبذل المستحيل ليصير العبد من أهل النار.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193].

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي رزق العبد عقلا مدركا وقلبا خاشعا ونفسا هادئة مطمئنة ولسانا ذاكرا.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البشرية كافة.

معشر المؤمنين.. لقد رزقنا الله تبارك وتعالى بمحمد نبيا ورسولا، وقال الله تبارك وتعالى في شأنه وأمره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]، رزقنا الله تبارك وتعالى بنبي هدى الناس إلى الطريق المستقيم وعمل كل ما في وسعه لتبليغ رسالة الهدى والحق والنور إلى الناس كافة، فكان لين الجانب ودودا يتحبب للكل ويشفق على الجميع، ليجد الجميع غدا يوم القيامة إن شاء الله في جنان الخلود.

معشر المؤمنين.. جرت العادة أن نحتفل في كل سنة (وليس هذا بفرض ولا سنة) بمولد الرسول ﷺ، ونحن إذ نحتفل به نراجع حالنا وأمرنا مع الإسلام وما نحن عليه في الآونة الراهنة.

إننا ولسان حالنا يخبرنا بأن هناك العدد الهائل من إخوة لنا في البشرية والإنسانية لم يهدهم الله تبارك وتعالى لعبادته حق العبادة، فهم للصلاة ناكرون وعنها غافلون، فلنهدهم إلى عبادة الله حق العبادة، ولنحاول أن نقتلع من أنفسنا هذه الظاهرة التي تتجلى في ترك الصلاة.

نحن نحتفل بمولد الرسول ﷺ وفي مجتمعنا ظواهر غريبة عن الإسلام وهديه واتجاهه الصحيح السليم.

هناك ظواهر: الخمر، الزنا، الربا، الفحش قولا وفعلا.

فلنتخذ من هذا المولد الانطلاقة الصحيحة والبداية الفعلية لإزالة كل هذه المظاهر المشينة لنفوسنا المكرمة من قبل الله تبارك وتعالى الذي قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

اللهم اهدنا إلى سواء السبيل وأنر قلوبنا بنور الهداية والإيمان، كما أنرت قلوب أصحاب رسول الله ﷺ فتركوا الأهل والأحباب والمال والسلطة وخرجوا معه متسترين تحت أجنحة الظلام لعبادة رب النور والخلود.

اللهم صل على محمد كما صليت على إبراهيم، وصل على آل محمد كما صليت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

حال كل من المؤمن والكافر عند الموت

الحمد لله الذي خلقنا ونفخ في أجسادنا الأرواح لنعيش حياة على ضوئها نحاسب في دار الخلود، ووعد المحسنين منا بالجنة وتوعد المسيئ منا بالنار، وجعل هذه الدنيا مطية ومركبا على متنها نصل إلى الآخرة.

الحمد لله الذي سيبعث أجسادنا من القبور ويحيي عظامنا وقد تآكلت وتحللت وتناثرت ذرات في ملكوته، والصلاة والسلام على النبي محمد ناصح آخر فوج بشري، وموجه آخر موجة بشرية تعيش فوق كوكب الأرض.

معشر المسلمين..

لقد خلقنا العلي القدير في أحسن صورة وزودنا بأوثق وثيقة على ضوئها تتضح معالم الطريق وتستقيم الأمور بدايتها الدنيا ونهايتها الآخرة.. وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]. وأخبرنا بأنه لم يخلقنا عبثا بل لمهمة نقوم بها والأرواح تحملها هذه الأجساد وتتحرك حركة نحو نقطة عندها نقول انتهت الحركة في ظل المادة، وتستأنف الحركة وهي روحية لترى ملكوت الله رؤية صادقة، وتشاهد مناظر قد لا تصدقها الحواس حاضرا والجسد قد التصق بالتراب والفكر قد تشبث بجزئيات الحياة، قال العلي القدير: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115].

معشر المسلمين.. لقد أصبنا بمرض الدنيا، ووضعنا فيها الثقة المطلقة، وسلمنا لها أنفسنا أجسادا وعقولا وأرواحا وعواطف وحواس، ونحن نعتقد أن الأمور ستبقى هكذا وأن ما في الوجود يفنى ويتجدد لنا وحدنا لننعم، فنملأ بطوننا بكل ما لذ وطاب، ونمتع حواسنا بكل ما يحلو لنا في حالة اليقظة، وننام والأفراح قد أحاطت بنا.. ونسينا الإنذار الإلهي والتوجيه الرباني وهو يحدثنا عن الموت وكيف ينزل بنا وكأنه صاعقة

تصيبنا وعدو لدود ألحق بنا أقبح الخسائر ونحن لا نقوى على دفعه والهروب منه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (85)﴾ [الواقعة: 83-85]، وقال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (31) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ (33)﴾ [القيامة: 26-33].

معشر المسلمين.. عندما نقرأ هذه الآيات نقرأها ونظن في لحظة من اللحظات أننا بصدد مفارقة الحياة والجسد قد استعد كلية ليلقي آخر نظرة على المادة الفانية، ليلقي آخر نظرة على ما تعود عليه وألفه وظن بأنه خالد بالنسبة له فإذا بالفاجعة تقع.

وقد وقعت الفاجعة حقا وصدقا لأن الاستعداد الدنيوي والحرص الذي كان همنا قد انقلب في لحظة مفارقة الحياة إلى ندامة.

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾؛ بلغت الروح الحلقوم وخرجت من سائر الجسد والحواس هامدة والعضلات ساكنة والخلايا مزقت شر ممزق.

والأحبة والأصدقاء حول الجثة العزيزة، عيونهم دامعة، ونفوسهم متحسرة، وأطباؤهم حائرون، والأدوية توقفت في الفم وأبت أن تتسرب إلى الحلقوم وإن تسربت فهي لا تجدي نفعا.

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، وقد نزلت السكينة عن أهل المحتضر للموت فلا أحد يتحرك ولا أحد ينطق بكلمة إلا المؤمن يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فمن الذي أسكتهم ومن الذي تركهم لا يتحركون، أسكتهم العلي القدير وأوقف حركة ألسنتهم وشفاههم قوة الله التي حضرت في حينها لتأخذ الروح ولتترك القوم وكأن قوة مغناطيسية أخذت فيهم لحظة السكون فتغادر الروح الجسد، وإذا بالفوضى والاضطراب تعود إلى الأحياء ويظهر النحيب والبكاء والعويل...

اللهم اجعل حياتنا كلها في رضاك وتقواك، وارحمنا برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ومحاسب العباد على كل كبيرة وصغيرة.

والصلاة والسلام على النبي الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة فكان عند ربه الصادق الصدوق.

معشر المسلمين.. نحن الآن أمام جثة هامدة لا حراك بها وقد غادرت الروح الجسد، وأصبح البدن بدون حركة، بدون كلام، بدون سمع وبصر، توقفت مطالب الدنيا، فهل انتهى كل شيء؟ إن الأمر أصعب مما نتصور، والحقيقة مرة إذا ظهرت بالنسبة للعبد الذي عصا ربه وكذب بكتاب الله واتخذ لنفسه هواه يعبده ويجري وراءه.

فالمولى تبارك وتعالى يخبرنا عما يجري في هذه اللحظة بالذات فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (51)﴾ [الأنفال: 50-51]، ويقول في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (94)﴾ [الأنعام: 93-94]، الملائكة تعذب المحتضر.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ

عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنْ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ. قَالَ: فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ [يَعْنِي بِهَا] عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ [بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا]، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُك؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ: صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ. قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ. قَالَ: وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ. مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ. فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي.

قَالَ: وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ. قَالَ: فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ [بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا]، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ: كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنْ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ. فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ»(1).

(1) رواه أحمد و أبو داود.

شروط الفلاح

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4)﴾ [المؤمنون: 1-4].

الفلاح مقترن بالإنسان إذا كان من المصلين في مفهوم رب العالمين خالق الأكوان وخالق العباد وقابض أرواحهم ومحاسبهم يوم الدين.

قد أفح المؤمنون، إن الفلاح الذي أراده الله وسجله في لوحه المحفوظ ونقله إلينا رسول الرحمة والهداية فلاح الآخرة، الذي يُبنى على جانب العبادة، والامتثال لرب العالمين.

إن الفلاح - معشر المؤمنين - مصدره وأساسه ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى. ولم يكن الفلاح كما تعارف عليه المجتمع في العصر الحديث؛ اكتناز الأموال وبناء القصور، وإنجاب الأولاد وحصولهم على الدرجات العلمية، واستقرار صحتهم وثبات ذاتيتهم على الماديات وعدم صرفها إلا فيما ينفع المادة كمادة من حيث تعاظمها وكثرتها، فهذا فلاح الشيطان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: 38].

والفلاح - معشر المؤمنين - إذا كنا نبحث عنه حسب المفهوم العصري الذي ألفه الناس وتعارفت عليه المجتمعات شرقيها وغربيها، فإنه لا نجد الزمن والوقت الكافي لنا في الحياة كبشر ننظر نظرة فردية لذوات أنفسنا، وتلك هي الغريزة النوعية الإنسانية، فإن الزمان لم يكن ملكا لفرد من الأفراد فينا، فوقتنا في الحياة قصير، وعمرنا أقل مما نتصور.

وما عِلم الإنسان في قوة الكون الذي أساسه إرادة الله، إذا أراد الإنسان أن يكون سيد هذا الكون كما نسمع الحديث العجيب بالنسبة للملاحدة غير المعترفين بوحدانية الله تبارك وتعالى.

كيف يمكن أن نتصور الفلاح بدون الإيمان بالله لمخلوق بشري خلقه الله تبارك وتعالى من الطين، ونفخ فيه من روحه، فكنا على الهيئة والصورة التي نحن عليها. إن الإنسان من طين، والطين أضعف مادة بالنسبة لمؤثرات الزمن وتقلباته، إنه يزول ويصبح ذرات متنقلة هنا وهناك، إنه تراب، والتراب - معشر المؤمنين - لا يقوى على عوامل الطبيعة، ولا يمتلك القوة الذاتية على الصمود إلا إذا شكل لتأدية مهمة، وإنجاز حقيقة من الحقائق التي أرادها الله تبارك وتعالى أن يكون عليها.

فالإنسان - معشر المؤمنين - بدون إيمان، وبدون استقرار فكرة الإيمان في قلبه، وبدون الخشوع في الصلاة، يصبح ذرة تراب في حكم الزمن، وإذا لم يكن الإيمان بماذا يعوض الإنسان هذا الفراغ؟ إنه يعوضه بملزمات الشيطان وهي: الغرور والكبرياء والإلحاد، فهذه العناصر الثلاثة تغرق الإنسان في الظلام وتبعده عن النور.

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي علمنا دينه ويسره لنا منهجا سليما وطريقة مثلى نسير على هديها ونستظل بظلها، وأرشدنا لما فيه صلاحنا وفلاحنا، واختارنا لتطبيق شريعته، وبعث فينا رسولا رحيما عطوفا، يشفق علينا، وأعطاه الشفاعة في الآخرة لينقذ أتباعه الذين استقر الإيمان في قلوبهم وساروا على هديه الرشيد.

معشر المؤمنين..

إن الرسول ﷺ قد نهانا عن الغيبة، وأمرنا أن نبتعد عنها حفظا للسان وصيانة لكرامة إنسانيتنا كبشر نعيش لفترة زمنية نحاسب عليها، نحاسب على كبيرها وصغيرها، ظاهرها وخفيها، ما نطقنا به وما لم ننطق به، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12]، وقال ﷺ: «إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ

اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال ﷺ: «لا تُكْثِرُوا الكَلامَ من غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الكَلامِ من غَيْرِ ذِكْرِ اللَّه تَعالَى قَسْوةٌ لِلْقَلْبِ، وإنَّ أبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللَّهِ القَلْبُ القَاسي»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[3]، (بهته: كذبت عليه).

(1) رواه البخاري.
(2) رواه الترمذي.
(3) رواه مسلم.

ضرورة مخالفة الهوى

الحمد لله حمد المتشبعين بنعمه والمتبعين طريقه المستقيم، حمد المتغلبين على هوى النفس ومحابها وما تدفع به الإنسان إلى مهالك دنيوية وأخروية.

والصلاة والسلام على نبي الحق ورسول الهدى محمد بن عبد الله.

معشر المؤمنين المسلمين..

بحكم إسلامنا وإيماننا فقد قيدنا هذا الإيمان والإسلام بقيود ثابتة أبدية لا تتبدل ولا تتغير، وإن غيرناها فقد سحبنا أنفسنا من قائمة الإيمان والإسلام، وبقيت هي بدون أن يعتريها تبديل ولا تحريف، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والإنسان بدون إسلام يعيش في موجة من التيارات والرغبات والشهوات، يؤثر فيها مصلحته الخاصة ولو كان فيها إضرار بالغير، ولا يهمه أن تكون أعماله سيئة ما دامت تشبع رغباته وأهواءه.

إن هذه النظرة وهذا الاعتقاد يعد انحرافا في وسط المجتمع، إن هذا التصور يعد طغيانا لجانب الشيطان على جانب التعقل والانسجام الحق.

إن هذا المعتقد المادي يعتبر تخطيا للحدود الإنسانية الجماعية والشروع في حياة أنانية، بدايتها تخلي الأعضاء عن وظائفها الأصلية الحقيقية والانخراط في حياة فوضوية، لا يُعرف لها بداية من نهاية.

لذلك نجد الإسلام من أهدافه مجابهة أهواء الإنسان والحيلولة بينه وبين الانقياد لها، إذ أن هوى النفس يشوش نظام ميول الإنسان الطبيعية، وأن للميول في الحالة الطبيعية نظاما خاصا وترتيبا مستقيما يقتضيان الاعتدال والتوازن.

فالإسلام - معشر المؤمنين - يحذرنا من الوقوع في حبائل الآراء التي تصنعها النفس صباح مساء، فإن حدث ذلك وقع الفساد في النظام

الطبيعي، حيث يصبح الفرد الذي ركب هواه ورأيه يتبدل ويتغير في اليوم كذا مرة.

فالمسلم - معشر المؤمنين - ثابت الرأي مستقيم الاتجاه كما جاء في القرآن وسنة الرسول ﷺ، رأيه تابع لأمر الله في قرآنه، وعمله تابع لحكم الرب في تنزيله، دنياه آخرته وآخرته دنياه، يعمل معلوما ليصل إلى المعلوم.

يعمل معلوما دنيويا ليصل إلى معلوم أخروي، وإن كانت الآخرة لا تخضع للتجارب المادية العقلية ولا تنعكس على الحواس المسموع منها والمرئي.

صفة المؤمن صفة ثابتة ثبات القرآن، لا يتعرض للتبديل والتغيير مهما تعرض للمحن ومهما قاسى من الصعوبات.

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 71]، فالحق هو الله، والمعنى: لو استجاب الله تبارك وتعالى لكل آراء البشر وميولاتهم النفسية، فلو شرع الله تبارك وتعالى وفق ذلك لفسدت السماوات والأرض.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 105-106].

اللهم فقهنا في ديننا الذي هو عصمة أمرنا، واهدنا إلى سبيلك الواضح المستقيم، ولا تتركنا عرضة لأهوائنا المضطربة التي تجعلنا ننظر نظرة متشعبة للحياة حتى نجد أنفسنا أمام حسابك وعذابك، آمين يا رب العالمين.

فضيلة الصبر

الحمد لله الذي منح للصابرين من عباده المتقين جزاء نعيمه الجنة، وهداهم إلى الطريق السوي به يعرجون يوم القيامة إلى جنان الخلد. والصلاة والسلام على النبي الصابر محمد بن عبد الله الذي تحمل لأجل نشر الرسالة ما تحمل، ولقي من قومه ما لقي، فكان أكثر صبرا وأشد تحملا على مرضاة الله تبارك وتعالى.

معشر المؤمنين الصادقين الصابرين على عبادة الله ونشر رسالته للأجيال القادمة..

إن الصبر دواء إسلامي وعلاج حقيقي ارتضاه الله تبارك وتعالى لعباده الأتقياء الذين اختاروا المنهج الرباني والطريق الحق السوي الذي به تستقيم الحياة دنيا وآخرة.

فالإنسان يعيش في الحياة فتنهال عليه المحن والشدائد من جراء تطبيق العقيدة الإسلامية، فيجد نفسه في حيرة أو بين نارين، نار أهل الكفر وإعراضهم، ونار نفسه اللوامة التي تدعوه إلى الشهوات وترمي به في السعي وراء تحقيق الغايات الخسيسة.

إن العناية الإلهية تسوق إلى الفئة المؤمنة الشدائد لحكمة عالية، والجاهل هو الذي يضجر ويحزن ويكتئب، أما العاقل المؤمن فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

والصبر - معشر المؤمنين - هو الفاصل الحقيقي بين الحياة الروحية والمادية، فلقد عنى القرآن بالصبر ومدحه ورفع من منزلته وأثنى على المتحلين به ثناء لا مزيد عليه، وذكره حوالي سبعين مرة.

والصبر - معشر المؤمنين - في المفهوم الإسلامي يأخذ صورا متعددة وأشكالا مختلفة؛ فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد،

والعفاف هو الصبر على الشهوات، والحلم هو الصبر على المثيرات، والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار.

ومن أجل ذلك أحب الله الصابرين وأعلن أنهم ينالون مزيدا من الفضل والرحمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]، وقال أيضا: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: 12]، والصابرون يمدهم الله بعون وفيض من رحماته: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، ويرفع الله تبارك وتعالى الصابرين درجات في الدنيا فيجعلهم العدة المثلى لعباده في أفعال الخير والمحاسن الفاضلة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]، وجعل الله تبارك وتعالى المثابرة على العبادات وتأديتها في أوقاتها وعند وجوبها من مواطن الصبر، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: 132].

وعدد الله أنواع البلاء بقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ [البقرة: 155-157].

فالصابرون يفوزون بثلاث خصال:

1- غفران الله لهم.

2- الثناء الحسن عليهم.

3- تشريفه إياهم في الدنيا والآخرة.

الخطبة الثانية:

الحمد لله حمد الصابرين التائبين التابعين؛ الصابرين على البأساء، والتائبين من كل الذنوب، والتابعين إلى جلال قدره وفيض نعمه. والصلاة والسلام على نبي الرحمة الذي ابتلاه الله تبارك وتعالى فوجده خير الصابرين.

معشر المؤمنين..

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ النَّاسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياءُ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثَلُ، فيُبتلى الرَّجلُ على حسْبِ دينِه، فإن كانَ في دينهِ صلبًا اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتليَ على حسْبِ دينِه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يترُكَهُ يمشي على الأرضِ ما عليْهِ خطيئةٌ»[1].

البلاء في المفهوم الإسلامي لا يفهم منه الشقاء؛ فالسعادة والشقاء – كما يفهم الناس - لا يتحققان في الدنيا، بل يتمان في الآخرة؛ فمن دخل الجنة كان سعيدا، ومن دخل النار كان شقيا، لأن الدنيا ليست دار جزاء بل هي دار امتحان، ومزرعة للآخرة، وإن عاقبة الصبر هي توفير الأجر ومضاعفة البر.

---

(1) رواه الترمذي.

فريضة الزكاة

الحمد لله الذي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنام.

الحمد لله الذي جعل دينه نورا يغشى القلوب فيزيل ظلامها ويطهرها من الدنس ويجعلها تتعلق بوحدانيته.

معشر المسلمين.. استقر رسول الرحمة والهداية عليه أفضل السلام وأزكى التحيات بالمدينة المنورة، وشرع في حينه في إقامة الدولة الإسلامية التي أساسها الإيمان بالله والحكم بعدالة السماء، وشرع الله تبارك وتعالى في ذلك شرائع ووضع أحكاما منها فريضة الزكاة التي فرضت في السنة الثانية للهجرة.

وفي الزكاة مبدأ اقتصادي محكم.

وفي الزكاة مبدأ توزيع الأموال على الفقراء بعدالة.

وفي الزكاة مبدأ ملكية الأموال لله والعبد حارسها: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7].

وفي الزكاة تعميم للإيمان ودفع للكفر والجحود والعصيان: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103].

والزكاة فرضها الله تبارك وتعالى على المال والحبوب والماشية، واشترط في وجوبها سبعة شروط وهي: 1- الإسلام، 2- الحرية، 3- بلوغ النصاب، 4- الملك، 5- حولان الحول، 6- عدم الدَّيْن، 7- مجيئ الساعي إن وُجد السعاة.

كما اشترط لصحة أدائها أربعة شروط وهي: 1- النية، 2- تفريقها بموضع وجوبها، 3- إخراجها بمجرد وجوبها، 4- ودفعها إلى الإمام العادل المطبق للشريعة الإسلامية أو لمستحقيها الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [التوبة: 60].

المساكين هم الفقراء ولكن لا يسألون الناس تعففا لقوله ﷺ: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِى يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنِ الْمِسْكِينُ الَّذِى لاَ يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلاَ يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ»(1).

وقد رغب الله تبارك وتعالى المسلمين في تأديتها لأنها تعد من العوامل التي ترفع صاحبها ليتبوأ مقامات النور غدا يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)﴾ [الذاريات: 15-19].

وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 17].

وقال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وقد قال ﷺ: «ثلاثٌ أُقسِمُ عليهنَّ وأُحدِّثُكم حديثًا فاحفظوه: ما نقص مالُ عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلِم عبدٌ مظلمةً صبر عليها إلَّا زاده اللهُ عزًّا فاعفوا يُعزَّكم اللهُ، ولا فتح عبدٌ بابَ مسألةٍ إلَّا فتح اللهُ عليه بابَ فقرٍ»(2).

---

(1) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:273]، وكم الغِنَى، ومسلم، كتاب الزكاة، باب المسكين الذي لا يجد غنى، ولا يفطن له فيتصدق عليه.

(2) أخرجه الترمذي، وأحمد مطولاً

الخطبة الثانية:

الحمد لله الذي لا يرد دعوة عبده المؤمن حيث قال سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

الحمد لله الذي من علينا بنور الإسلام وحذرنا من عذابه غدا يوم القيامة، وجعل تبليغ رسالته الهادية الصادقة لكل الأمم من اختصاص أمره وتدبير شأنه.

معشر المسلمين.. إن الزكاة فرض من قبل الله على عباده المسلمين، وكل من أنكر ذلك يعد منكرا وكافرا كما سماه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7)﴾ [فصلت: 6-7]، وتوعد جل وعلا الممتنعين عن أدائها بأشد العذاب فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)﴾ [التوبة: 34-35].

ولقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يَقْضِيَ الله بَيْنَ الناس فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَالإِبِلُ؟ قَالَ: «وَلا صَاحِبُ إِبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ أَوْفَرَ مَا كَانَتْ لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الناس، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ؟ قَالَ: «وَلا صَاحِبُ بَقَرٍ وَلا غَنَمٍ لا

يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، لَيْسَ فِيهَا عَقْصَاءُ وَلا جَلْحَاءُ وَلا عَضْبَاءُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلافِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الناس فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ»[1].

وعن أبي هريرةَ رضيَ الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عُرِضَ علَيّ أوّلُ ثلاثةٍ يَدخُلُونَ الجَنّةَ وأَوّلُ ثَلاثةٍ يَدخُلُونَ النّارَ؛ فأَمّا أَوّلُ ثَلاثَةٍ يَدخُلُونَ الجنّةَ فالشّهِيدُ وعفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ وعَبدٌ أدَّى حَقَّ اللهِ ونَصحَ لسَيِّدِه. وأمّا أوّلُ ثَلاثَةٍ يَدخُلُونَ النّارَ فمَلِكٌ مُتَسَلِّطٌ، وذُو ثَروَةٍ مِن مالٍ لا يؤدّي حقَّ اللهِ، وفَقِيرٌ فَخُور»[2].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: "مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يُبَلِّغُهُ حَجَّ بَيْتِ رَبِّهِ، أَوْ تَجِبُ عَلَيْهِ فِيهِ الزَّكَاةُ فَلَمْ يَفْعَلْ، سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، اتَّقِ اللَّهَ إِنَّمَا سَأَلَ الرَّجْعَةَ الْكُفَّارُ، قَالَ: سَأَتْلُو عَلَيْكَ بِذَلِكَ قُرْآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (10) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 9 - 11][3].

---

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) حديثٌ حَسَنٌ أخرجَه التّرمِذي.
(3) أَخْرَجَهُ التِّرمِذِيُّ، والطبري في "تفسيره"، والفاكهي في "أخبار مكة".

تحريم الربا

الحمد لله على نعمة الإسلام وشريعته المستقيمة والهادية المرشدة في الدنيا والمنيرة في الآخرة للعباد ليكونوا من أهل الصفوة والخيار عند المولى سبحانه وتعالى.

والصلاة والسلام على معلم البشرية الذي بين لنا الحق من الباطل وأرشدنا إلى ما فيه صلاحنا دينا وآخرة، أرشدنا قولا وسلوكا وعملا.

معشر المسلمين.. من القضايا الأساسية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية؛ تحريم الربا، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275].

التشريع الإسلامي في قضية الأموال واضح، وضحه الله تبارك وتعالى:

- إخبار الله تبارك وتعالى عن حال أكلة الربا ومصيرهم غدا يوم القيامة يوم البعث، قيامهم كحال رجل مسه الشيطان فهو لا يقوى على حفظ التوازن ولا يستقر على حالة معينة.

- حالهم في الدنيا كذلك لا يستقرون على مذهب ومنهج سليم، بل هم خليط فكر وشتات عقل، وأسرهم في حالة يرثى لها من عدم التماسك.

- قال ابن عباس: "آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق".

- حدث رسول الله ﷺ قال: «أَتَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ بُطُونُهُمْ كَالْبُيُوتِ فِيهَا الْحَيَّاةُ تُجرى مِنْ خَارِجِ بُطُونِهِمْ، قال: فسألت جِبْرَائِيلُ عَنْ هَؤُلاَءِ، فقَالَ: هَؤُلاَءِ أَكَلَةُ الرِّبَا»(1).

(1) رواه ابن ماجه.

- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275].

1- الإعراض عن حكم الله في شرعه، وعدم الاعتراف بالمشروعية الإلهية في قضية البيع.

2- إنما البيع مثل الربا من باب القياس.

3- الله لا معقب لحكمه.

- ﴿فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة: 275]، أي من بلغه نهي الله عن الربا وانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة، أي عفا الله عنه.

- ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]، من عاد بعد أن بلغته شريعة الله، فأولئك محكوم عليهم يوم القيامة بالنار.

أبواب الربا متشعبة، وقد رده الرسول ﷺ إلى الجانب القلبي حيث قال: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: «الربا ثلاثةٌ وسبعونَ بابًا، وأيسرُها مثلُ أنْ ينكِحَ الرجلُ أمَّهُ، وإنَّ أربى الرِّبا عرضُ الرجلِ المسلمِ»[2].

وقال ﷺ: «يأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَأْكُلُونَ فِيهِ الرِّبَا»، قِيلَ لَهُ: النَّاسُ كُلُّهُمْ؟ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَأْكُلْهُ مِنْهُمْ، نَالَهُ مِنْ غُبَارِهِ»[3].

وقال ﷺ: «لَعَنَ آكِلَ الرِّبَا وَمُؤْكِلَهُ وَشَاهِدَيْهِ وَكَاتِبَهُ»[4].

(1) رواه مسلم.
(2) أخرجه ابن ماجة، وابن المنذر في الأوسط، والحاكم.
(3) رواه أحمد.
(4) رَوَاهُ الْخَمْسَةُ، وَصَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

كلمة كتبت لتلقى من قبل الأئمة قبل إقامة صلاة الغائب على ضحايا زلزال الأصنام في أكتوبر 1980[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد، أيها المؤمنون..

لقد شاءت القدرة الإلهية أن تتعرض مدينة الأصنام - مرة أخرى - إلى كارثة طبيعية عنيفة[2]، بعد ست وعشرين سنة خلت عن فاجعة سنة 1954، قضتها في سكون وهدوء وطمأنينة، ولكن شاءت الأقدار أن تعود الكارثة اليوم بصورة أعنف، فتثخن الجراح من جديد وتدمي القلوب ثانية، وتفتت الأفئدة مرة أخرى. هكذا – أيها المواطنون – كان زلزال يوم الجمعة الفارط، الذي دك مدينة الأصنام، فحولها في بضع ثوان إلى أطلال وحُطام وركام، وجعل المدينة والقرى المجاورة لها - في أسرع من تقليب البصر وارتداد الطرف - خرابا مهولا، ودمارا هائلا، وكأنها لم تكن بالأمس القريب قائمة، مترامية الأطراف، منتشرة الأركان، تملؤها حركة دائبة ونشاط قوي وحيوية نادرة.

أيها الإخوة المؤمنون.. تلك هي مشيئة الله التي لا مَرَدَّ لها، وإرادة المولى عز وجل لا مفرَّ منها، فسبحناك ربنا لا نناقش قدرتك، ولا نجادل

---

(1) لست متأكدا تماما أن هذه الكلمة من تحريره، لأني لم أجدها بخط يده، وإنما مطبوعة بالآلة الكاتبة، لكن عليها تصحيحات بخطه رحمه الله..

(2) وقع زلزال الشلف (الأصنام حينئذ) في 10 أكتوبر عام 1980، الساعة 13:25:23 بالتوقيت المحلي، بقوة 7.1 درجة، واستمر الزلزال الأولي لمدة 35 ثانية. كان هذا الزلزال هو أكبر زلزال يضرب الجزائر، وأعقبته بعد ثلاث ساعات هزة ارتدادية بقوة 6.2 درجة. كان الزلزال عنيفًا جدًا لدرجة أنه تسبب بتدمير 80 بالمئة من المدينة وخلّف وراءه خسائر بشرية بلغت 10000 ضحية من بينهم 2633 قتيلا.وكانت المدينة – قبل ذلك - قد شهدت زلزالا قويا في 9 سبتمبر 1954، بلغت قوته 7 درجات، وخلف نحو 1500 قتيل و5000 جريح.

سلطانك ورحمتك، ولا نعارض مشيئتك، ولا نقف حيال إرادتك، وإنما نسألك اللطف بنا، والعفو عنا، والمغفرة والثواب عند المصائب، والجَلَد والصبْر عند الشدائد.

وإنه لحريٌّ بالشعب الجزائري المسلم المؤمن أن يصبر على هذا البلاء، ويصمد تجاه هذا الحادث المؤلم، وحريٌّ به أن يجمع قوته ويربط جأشه لمواجهة هذه الفاجعة بحكمة ورويَّة. كما يجدر بنا جميعا أن نشاطر إخواننا المنكوبين في الأصنام وضواحيها آلامهم، ونقاسمهم المصيبة، وأن نسارع إلى إعانتهم ومواساتهم، مبرزين بهذا التضامن الإسلامي فيض المحبة والمودة والشعور بالوحدة التي يُجسمها حديث نبينا وحبيبنا رسول الله ﷺ بقوله: «مثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتَرَاحُمِهِم ، وتعاطُفِهِمْ؛ مثَلُ الجسَدِ إذا اشتكَى منْهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائِرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى» [رواه الشيخان].

أيها الإخوة المؤمنون.. إذا كان الموقف رهيبا، والمصيبة عظيمة، والفاجعة أليمة، فإنه من الواجب الإسلامي والوطني أن نكون في مستوى هذا الحدث الرهيب، وأن نعمل بتوجيهات ديننا الحنيف الذي يحثنا على الأخوة والتضامن والتآزر والتكافل وقت الشدائد، ويأمرنا بتقديم يد العون والمساعدة والتحلي بروح التضحية والإيثار عند المحن والنكبات.

وقد أجاز المجلس الإسلامي الأعلى – بهذه المناسبة الأليمة – لمن أراد صرف مبلغ الأضحية للمنكوبين، احتسابا للأجر وتضامنا مع المصابين، وتلك - لعمري - هي الرحمة والشفقة والمواساة والمحبة والتضامن والإخاء الذي يأمر به الإسلام، وطبقه أسلافنا من الصحابة وصالح سلفنا من المؤمنين. فأي مواطن صالح تطيب له أمام هذا الحدث المهول الأفراحُ وتسره الأعيادُ، وآلاف من إخواننا يعانون مأساة التشرد وآلام النكبة وهول الفاجعة؟! ومن تحلو له التضحية، وإخوانه في منطقة الأصنام يتجرعون كؤوس المرارة والعذاب، ويجوبون الشوارع في غدو

ورواح، تائهين بدون مأوى؟! ومن يتذوق طعم الأفراح، ومئات من إخوانه المسلمين ما زالوا حتى هذه الساعة يئنون تحت الأنقاض؟!

أيها الإخوة المؤمنون.. حسبنا أن نقف هنا في بيت الله متوجهين بكل قلوبنا إلى الله عز وجل أن يتغمد شهداء هذا الحادث برحماته ورضوانه، ويسكنهم فراديس جنانه.

وإننا نتوجه، في هاته اللحظة التي تجتمع قلوبنا حول المصاب الجلل، بدعواتنا بالرحمة للأموات، وتعازينا وتضامننا مع كافة افراد الشعب الجزائري عامة، ومع رجال دولتنا بصفة خاصة.

والآن نتوجه إلى الله العلي القدير لأداء صلاة الغائب، حسبما أمرت به السنة النبوية، ونادت به هيئة المجلس الإسلامي الأعلى في بلدنا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نماذج من محاضراته
في المناسبات الدينية

مقاصد الصيام في الإسلام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ.. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الأنبياء والرسل، وعلى أفضل المجاهدين الذين وهبوا أنفسهم خالصة لله دفاعا عن مبادئه واستماتة لحفظ قيمه ومثله السامية الجليلة.

معشر الصائمين.. تقبل الله صيامنا وقيامنا بمزيد من الأجر والمغفرة والثواب، وأعاد الله علينا هذا الشهر كل سنة بالخير واليمن والبركة، نستظل بظله ونهتدي بنفحاته التي تدفعنا إلى المزيد من الإيمان والتقوى والعمل الصالح الجليل، وتجعلنا نسترشد الخطة الهادية والطريق المستقيم للوصول إلى ما تصبو إليه الأرواح المؤمنة الطاهرة التي تصارع آناء الليل وأثناء النهار، باحثة عن الحقيقة الربانية التي أخفاها عنا زَمَنًا ومنحنا نفوسا وعقولا وأرواحا عن طريقها نكتشف هذه الحقيقة ونتوصل إليها، ولا يتأتى لنا ذلك إلا إذا خشعت النفوس وتدبرت العقول وسمت الأرواح، فليس هذا بالعمل السهل الذي يستطيع تصوره كل مخلوق فوق هذا الكوكب الأرضي، وإنما هي عملية معقدة وطرق متشابكة ونزعات مختلفة واتجاهات متباينة، ونحن في وسط هذه جميعا نتخبط طيلة حياتنا، تجتذبنا الدنيا بزخارفها وزينتها وتشدنا المادة بحقيقتها الواهية وسرابها الفتاك القتال، معجبين بفلذات أكبادنا، ظانين بأن الحياة أبدية هي خلقت لنا ونحن خلقنا لها، وتفكرنا لا يتعدى غير ذلك. ولحكمة ربانية ورحمة منه أرسل الرسل والأنبياء لهداية العباد إلى الطريق السوي المستقيم، ترشد الناس وتوجههم الوجهة الصحيحة.

وهكذا معشر الصائمين تبقى الحياة صراعا ومدا وجزرا بين الإيمان والتقوى من ناحية، والشرك والضلال من ناحية أخرى، والذي يُعَدِّلُ الكفة ويُرَجِّحُ الميزان هو الجهاد، وأساس كل جهاد هو جهاد النفس عن طريق العقل، حيث يقف هذا الأخير موقفا صلبا وحازما للتغلب على الشهوات الآثمة العاتية التي تغشى كل نفس سيولا وأمواجا، فإذا تغلب

العقل على ذلك تكون نهاية المعركة نفسا راضية مطمئنة، قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر: 27-30].

وقد تتغلب الشهوة ويسود الإثم وتكبر نتائجه وتتكدس فتعطي إنسانا منحرفا معوجا لأنه قد انطوى على نفس خبيثة أمارة بالسوء، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)﴾ [الشمس: 7-10].

وتزكية النفس - معشر الصائمين - هي الرصيد الأول والأخير لكل قوة بشرية تستطيع الصمود لتواجه التحديات، وهي قوة النفس التي انتصر عليها العقل وهذبها الدين وصقلها الإيمان، وبدون هذه القوى لا تنفع أية قوة بشرية كثير عددها وقلوب أصحابها مفرغة من حرارة الإيمان، حيث يصبح الإنسان بدون نفس مهذبة تهذيبا أساسه الدين ومدرسته الصيام عبارة عن أعجاز نخل خاوية، كل صيحة يسمعونها تنشطر قلوبهم خوفا وترتعد أجسامهم منها، وكل تحد لأفكارهم ومبادئهم يسكتون عنه ولا تتعدى مقاومتهم لذلك إلا وسوسة فيما بين اثنين وسكوتا تاما من قبل الجميع.

فالمسلم الذي بلغ هذه الدرجة تجرده من إسلامه وتبعده كلية عن أن يكون ضمن الجماعة المؤمنة المسلمة، فما عليه إلا أن يبحث عن طريقة أخرى يستطيع بها أن يزيل عن نفسه تلك الغشاوة التي لحقت به ويطهر ذاتيته من الأدران التي تشبث بها ولن يجد طريقة غير طريقة مدرسة الصيام.

فالصيام - معشر الصائمين - كما عرفه رب العالمين المقصد منه هو التقوى حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 193]، وما التقوى إلا خشية للنفس وورع للقلب وتهذيب للقول، وجهاد للأفعال التي تخدم النفس والتي تغذي البطن وتستجيب للرغبات الزائلة الحيوانية وإطلاق العنان للجسد

الذي اتخذ من النفس الآثمة موجها له يلهو ويعبث في هذه المدة الزمنية القصيرة المكتوبة عليه ليحياها.

فالصوم خير مرب وأفضل معلم لكل العباد، هو صمام الأمان الذي يقينا من الانسياق وراء هذه الشهوات ويصدنا عن اتباع هذه الأهواء التي تعصف بنا عصفا وتبدد إنسانيتنا تبديدا.

فالصوم يغذي العقيدة وينميها تنمية صادقة، حيث يشعر الصائم برقيب يراقبه وبحارس يحرسه، وأن هذا الرقيب وهذا الحارس لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، هذا الشعور يخلق لدى المسلم ملكة جديدة لا يحظى بها إلا من رسخت قدماه في الصيام وعاش زمنا في رحاب العقيدة الراسخة، هذه الملكة هي ملكة مراقبة الله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه، والمسلم إذا عاش حياته لا يخشى إلا الله ويؤمن في قرارة نفسه بأنه مطلع عليه (وهذا أساس الإيمان في كل مكان) فإنه يصل إلى درجة العبودية الحقة لله تبارك وتعالى، فهو لذلك يستهين بالموت في سبيل الله، ولا يشغله في الحياة الدنيا عرض زائل أو متاع فان، فضلا عن الصيام والامتناع عن الشرب والأكل.

فالصوم - معشر الصائمين - من الشعائر السامية التي تسمو بصاحبها إلى الدرجات العالية وتضعه في مصاف الملائكة المقربين لله تبارك وتعالى، فهل رجعنا إلى أنفسنا وحاسبناها حسابها الحقيقي حول هذا الركن الأساسي الذي خصنا به المولى سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات، فبدونه لا تكتمل إنسانيتنا ولا تتحقق مبادئنا السمحة، وجعلنا من أولئك الذين وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: 29]، ولعل الكثير منا أصبح من تلك الفئة التي وصفها رب العالمين.

والصوم - يا معشر الصائمين - يعودنا الصبر ويدفع بنا أن نكون في المستوى المطلوب من حيث نصبر على الجوع والظمأ، ونصبر على مقارعة الخطوب والويلات، ونصبر على مغالبة الشهوات وما تدفعنا إليه.

فالصوم - معشر الصائمين - هو ضبط للسلوك وكبح للشهوات وكبت للغرائز وانتصار لإرادة الروح على إرادة الجسد حيث تنطلق من أسار الجسم وقيود المادة لتسير في عالم الصفاء والنقاء وتظلها السكينة المؤمنة ويغمرها الإشراق العلوي بفيضه، ويزود الجسم بطاقة من الصبر وقوة الإرادة والإخلاص في العمل ومراقبة الله تعينه على اجتياز رحلته في هذه الحياة وتجعله إنسانا صالحا لبناء مجتمع جديد قائم على التقوى والعمل الصالح.

أما أولئك الذين يرون في الصوم تكاسلا للجسد وضعفا ووهنا يستولي عليه طيلة شهر رمضان، وتقليلا للإنتاج والعمل، وفتورا يستولي على الذهن والتفكير والنشاط، وقعودا عن الجهاد والنضال، إنما يتعامون عن حقيقته الروحية بما فيها من قوة دافعة إلى العمل ومراقبة باعثة على الإخلاص وإرادة حافزة على الكفاح وصبر وازع على احتمال الصعاب والمشقات.

إن أمة يدرك أفرادها هذه الحقائق ويستشعرون حقيقة الصوم كما أراده الله ورسوله، حيث يجعلون من هذه التعبئة الروحية زادا لهم طوال العام، لجديرون أن يصنعوا المعجزات ويقتحموا ميادين المعارف والاكتشافات، ويقفون صفا واحدا كالبنيان المرصوص ضد كل التحديات التي تعوق نشاطهم وتمنعهم حق الممارسة والحياة لأحكام دينهم.

معشر الصائمين.. الصوم ليس معناه الصبر على الذلة والاستكانة، فإن المؤمن الصائم لا يصبر على الحُرُمات إذا رآها تنتهك، ولا يصبر على الباطل إذا رآه ينتصر، ولا يصبر على الحق إذا رآه يُخذل، ولكنه يغار ويغضب لله وهو صائم أكثر من غضبه وهو مفطر، ولقد وصف

القرآن الكريم المؤمنين فقال وهو أصدق القائلين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: 29].

معشر الصائمين.. قد يتبادر إلى أذهان بعضنا أن الصوم يحقق الصحة الجسمية ويقوي العضلات ويجعل الصائم ينال أكبر قوة جسدية يتباهى بها أمام خلائق الرحمن.. إنها لنظرة خاطئة وتفكير بعيد كل البعد عن المنطق القرآني، ولو كان الأمر كذلك فهناك من أنواع الرياضات الجسمية ما يفوق الصوم والصلاة وغيرهما من العبادات البدنية في تحقيق الصحة للجسم والقوة للبدن.

وقد يظن البعض أنه العطف على المعوزين المحرومين، وهذا أيضا قد أخطأ الصواب، فلماذا إذن يصوم الفقراء والمحتاجون؟ زيادة على أن أكثر القادرين يستبدلون جوع النهار بتخمة الليل.

صحيح أن الصوم رياضة للبدن وحافز على الصدقات والإحسان، ولقد جاء في الحديث الشريف: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»[(1)]، وفي رواية غير ثابتة بزيادة: «فضَيِّقوا مجارِيه بالجوعِ والصَّومِ»[(2)].

غير أن حكمته الكبرى تتمثل في أثره النفسي، وهذا الرسول الكريم عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليم يرسل جماعة من أصحابه للغزو، فيختلفون ورجعوا قبل أن يغزوا، فلما رآهم النبي عليه السلام غضب وقال: «ذَهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جَمِيعًا، وَجِئْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ؟ إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْفُرْقَةُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلاً لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ، أَصْبَرُكُمْ عَلَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ»[(3)].

ومن هنا ندرك أن مدرسة الصيام تعد الرجال المجاهدين إعدادا روحيا ونفسيا، والإعداد الروحي والنفسي من أهم أسلحة النصر في القتال.

---

(1) متفق عليه.
(2) قال الألباني: "لا أعلم لها أصلا في شيء من كتب السنة".
(3) مصنف ابن أبي شيبة.

ومن هنا ندرك حكمة انتصار المسلمين في شهر رمضان في حروبهم التي غيرت موازين القوى في العالم وأحدثت هزة عنيفة وقوية في وسط الإمبراطوريات في ذلك الحين، وقضت على كل التكتلات والتجمعات القائمة على مبادئ الطائفية والقوانين الفردية والتشريعات الوضعية التي تخدم فئة معينة وتتجاهل السواد الأعظم من الناس.

والتاريخ خير شاهد على ذلك؛ فهذه غزوة بدر كانت في شهر رمضان، وهي المعركة التي قلبت الميزان السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الجزيرة العربية، وانتصر فيها الإيمان على الشرك والضلال بقلة من المؤمنين على كثرة من المشركين، فلم يكن الصوم عائقا للمسلمين عن الجهاد، بل كان قوة دافعة وسيلا جارفا يفوق كل قوة مضادة، وكانت عزيمتهم الصلبة وإيمانهم القوي وإخلاصهم المتين سلاحا فتاكا غلابا لكل سلاح.

ومن أجل ذلك آزر الله عباده المجاهدين الصائمين بجند من ملائكته وروح من عنده، لأن هدف وغاية الأرض هو هدف وغاية السماء، حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

في شهر الصيام كان الفتح المبين؛ حيث دخل الرسول الأمين على رأس جيشه المؤمن الصائم الصابر مكة معقل المشركين في ذلك الحين، واقتحمت ذلك بقوة الروح وصلابة الإيمان وثقة اليقين الأوثان والأصنام وأزالتها عن بيت الله الحرام إلى الأبد، وانقادت الأعناق المتطاولة بالبغي والشرك لسماحة الرسول الكريم ﷺ ودينه القوي الغالب.

وفي شهر رمضان المبارك العظيم كانت غزوة (تبوك) ضد قبائل لخم وجذام وغسان التي ساندت قيصر الروم للانقضاض على الدين الجديد، وتبارى المؤمنون الصائمون من الصحابة في تجهيز جيش العسرة، فكانوا نماذج رائعة للبذل والتضحية والإحسان، حتى سحق هذا الجيش بقيادة الرسول الكريم ﷺ كل محاولات الروم فانسحبت جيوشهم أمام القوة الروحية للمسلمين.

وفي شهر الصيام قاد خالد بن الوليد معركة (الفراض)[1] ضد الفرس والروم معا بجيش من المسلمين في حر الصيف وضمأ الصوم وفارق العدد والعدة، ولكن قوة الإيمان دفعت هذا الجيش المجاهد الصائم إلى اقتحام المعركة بشجاعة وصبر حتى أجهز على عمالقة الدولتين وبلغت ضحاياهم خلقا كثيرا.

وتم فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد عابر القارات في شهر رمضان، حيث واجه بجيشه الذي لم يزد على اثني عشر ألفا جيش (لوذريق) الذي بلغ مئة ألف فتم له الفتح والنصر.

هذا هو الصيام معشر العباد في عهد السلف الصالح، مغالبة النفس وقهرها وانتصارها على الشهوات ومصارعتها، وتخلص من الماديات واحتقارها، وتسامح فيما بينهم وشدة وقوة على العدو ومغالبته، وعقد ألوية الجيوش والسير بها في أرض الله لنشر دين الله.

وليس الصوم، يا معشر المسلمين في القرن العشرين؛ ملأ البطون والتباهي بكل ما لذ وطاب والتجمعات هنا وهناك للحديث فيما يرضي الشيطان ويغضب الله، والتكاسل عن العمل والتواكل على الغير.

ربنا لا تجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

واجعلنا ممن قلت فيهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: 103].

والصلاة والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(1) معركة الفِرَاض وقعت في 15 ذي القعدة 12هـ، المُوافق 21 يناير 634م، بين جيش المُسلمين بقيادة خالد بن الوليد من جهة، وجيش الفرس والروم وحلفائهما من نصارى العرب من جهة أخرى. وجرى بين الجانبين قتالٌ دمويٌّ رهيب انتصر فيه المسلمون وانتهى بهزيمة الأعداء وقتل أعداد كبيرة منهم.

ذكرى غزوة بدر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه ومن لبى نداء دعوته إلى يوم الدين.

معشر الصائمين المؤمنين، تقبل الله صيامنا وقيامنا بمزيد من المغفرة والتقرب إلى أهل الرضوان، وجعله كل سنة مدرسة التقوى والعمل الصالح، يجد فيه التائه ضالته ويتقبل فيه الله تبارك وتعالى توبته ويعصمه من الزلل والوقوع فيه مرة أخرى حتى يلقى ربه وهو عن عمله راض، ويجد فيه المؤمن الرضى والاطمئنان ووضوح المنهج والطريق، ويجد فيه الصفاء الروحي وشفافيته ليعيش حياته تحت ظلال الإيمان، متخذا من هذا الصيام خير علاج لقضاياه النفسية العارضة.

معشر الصائمين.. إن في حياة الأمم والشعوب أحداثا ووقائع لها مكانتها في قلوب الأفراد والجماعات، تبقى أحداثها صورا حية ونتائجها دروسا وعظات للأجيال مهما بعدت المسافات وحجز عنها طول الزمن.

فغزوة بدر - معشر الصائمين - تعد بالنسبة لنا من هذه الأحداث التي التصقت صورها بكياننا، وأصبحت أحداثها ونتائجها دماء تجري في عروق كل مسلم مؤمن بربه تخلص من ضبابية التيه وعقد العزم على مواصلة رحلة الجهاد التي أعلن عنها الرسول ﷺ ورفع رايتها يوم السابع عشر من رمضان.

ففي هذا اليوم خرجت فئة مؤمنة بقيادة قائدها المؤمن محمد بن عبدالله ﷺ، خرجت تلفحها الشمس الملتهبة أشعتها وتحرقها الرمال المشتعلة في تلك الصحراء التي لا ترحم حيا، حتى الحجارة أحرقتها فبدت جَدَدًا سوداء يتطاير منها الشرر وكأن ألسنة النيران قد سكنتها فغدت هي والنار سواء.

خرجت مع قلة في العدد لا تحمل من الأسلحة إلا ما ضعف منها وهان، خرجت تظللها رحمة الرحمن وأقدامها مسرعة تطلب الاستشهاد

لتتخلص الأرواح من الأجساد لتلقى جزاءها المعد لها من قبل خالقها في جنان الخلود.

خرجت وأعينهم تفيض من الدمع، لا خوفا من الأعداء وإنما خشية من الله وحياء منه، خرجت وقد ودعت الدنيا وزخرفها، وتخلصت كلية من كل ما يمت بصلة إليها ولم يبق من الحياة في مخيلتهم إلا صور واهية ضعيفة، لا المال ولا الأهل ولا الأقرباء ولا الأحباء تقوى على شدهم وتجعلهم يتقاعسون عن الجهاد.

خرجت وفي يدها أسلحة خفيفة مهلهلة لا تقاوم اللصوص فضلا عن الجيش القوي الشوكة الذي أرهب الجزيرة العربية وأدانها.

خرجت وقد حملت معها سلاح الإيمان الذي لا توزن به الجبال ولا تنتصر عليه جيوش الدنيا قاطبة يومها لو اجتمعت.

خرجت والمدينة المنورة تودعهم الوداع الأخير على أن لا يكون اللقاء في مرة أخرى في عالم الحياة بل كانت شفاههم تنطق جميعا: الجنة لقاؤنا.

خرجت وبدر لا تبعد عنهم إلا مسافة ثلاثة أميال وطبيعته سهلٌ رملي، يحده من الشمال الشرقي تلال شديدة الانحدار، ومن الغرب كثبان رملية، ومن الجنوب منحدر صخري منخفض، وينساب في الوادي جدول من الماء وينقطع هذا الجدول فيصبح آباراً على شكل أحواض.

في هذا المكان بالذات شاءت إرادة الرحمن أن تكون المعركة الفاصلة بين الإيمان والشرك، في هذا المكان شاءت إرادة العلي القدير أن تتحطم شوكة المشركين وتتلاشى قوتهم الزائفة وتحل محلها قوة الإيمان بعلام الغيوب.

في هذا المكان سقطت خرافة عبادة الأصنام وعوضتها وحلت محلها عبادة الرب الرحمن.

في هذا المكان تلاشت الفلسفات والنظريات والخرافات الزائفة وعوضت بعقيدة ثابتة راسخة إذا سكنت قلب حي لا تغادره إلى أبد

الآبدين، إذا سكنت هذه العقيدة نفسا هيمنت واستولت عليها فصنعت منها إنسانا آخر، إنسانا لا يخشى في الله لومة لائم.

إنسان تهون عليه نفسه وتتلاشى عظمة الدنيا وخيالها فيقذف بها جميعا في ساحة الوغى لإعلاء كلمة الله ونشر دينه.

إنسان عجنته الفكرة الربانية وحولته تحويلا جذريا وبدلته إنسانا آخر عندما قرأ قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11)﴾ [الصف: 10-11].

إنسان قد علم وطبق ما علم وهاهو اليوم في ميدان التطبيق والتجربة، ولم تكن التجربة على الحيوان أو مخلوق اصطناعي وإنما هي تجربة على النفس من قبل صاحبها يغشى الموت بنفس راضية وقلب هادئ حتى قال قائلهم وهو عمير بن الحمام رضي الله عنه: "ما بيني وبين أَن أَدخل الجنة إِلا أَن يقتلني هؤلاء؟"، فيقذف التمرات من يده، ويأخذ سيفه ويقاتل القوم فيُقتل فيجد ما وعده ربه حقا.

هذا هو النموذج البشري الذي سنعيش معه معشر الصائمين في معركة غير متكافئة من ناحية العدد والعدة والاستعداد.

حيث إن الرسول ﷺ خرج يريد عير قريش وليس معها من الحراس إلا عدد قليل 70 أو 80، لكن العير تنجو فتجهز قريش جيشا جرارا مسلحا بأسلحة فتاكة بالنسبة لذلك العصر، وكان عددهم تسع مائة أو يزيدون، ومعظمهم من أولئك الذين بطرتهم النعمة وغرهم الشيطان ووقفوا موقفا معاديا لدين الله، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: 32].

وهذا أبو جهل يقول بعد أن سمع بنجاة العير وانتشر خبر مفاده عدم التعرض لمحمد ﷺ وصحبه: "واللهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرَاً، فَنُقِيمَ فيهَا

ثَلَاثًا، نَنْحَرَ الجَزُورَ، وَنُطْعِمَ الطَّعَامَ، ونشرب الخَمْرَ، وَتَعْزِفَ القِيَانُ علَينَا، فلن تزال العَرَبُ تَهَابُنَا أَبَدًا".

معشر الصائمين، إنها لحماقة غذتها المادة المتحجرة، معلمها الشيطان، وصاحبها ركب هواه وراح يسبح في الشهوات والمعاصي معتقدا أن العزة المستمدة من الطائفية والقبلية والأصنام المنتصبة عزة أبدية ونسي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

وترى الرسول ﷺ رفقة صحبه لا يتجاوزون ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا من المهاجرين والأنصار، وإبلهم لا يزيد عددها على السبعين، سار بها الرسول ﷺ حتى إذا كان دون بدر أتاه الخبر بمسير قريش بعد أن علم أن العير قد نجت ولم يبق إلا النفير.

والتقى الجمعان في المكان المعلوم، واشتدت المعركة وحمي لهيبها، وفي غمرة ذلك ترى رسول الله ﷺ رافعا كفيه إلى السماء وهو يردد بين الحين والآخر: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ ما وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنْ تُهْلِكْ هذِه العِصَابَةَ مِن أَهْلِ الإسْلَامِ لا تُعْبَدْ في الأرْضِ» [صحيح مسلم]، ويستمر في ذلك حتى يشفق عليه أبو بكر فيقول: "يا رسول اللهِ، بَعْضَ مُناشَدَتُكَ ربَّكَ؛ فإنَّ الله مُنْجِزُ لكَ ما وَعَدَكَ"، وما هي إلا ساعات معدودات حتى كان النصر المبين للرسول ﷺ وصحبه، نصر من عند الله الذي وعد رسوله فأنجز وعده وبعث أمته التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وقد يتساءل المرء، وما أكثر التساؤلات في العصر الحديث حول هذا الدين الحنيف: كيف استطاع الرسول ﷺ أن ينتصر على جيش الجزيرة العربية بقلة قليلة ولم يستتب له الأمر بعد بيثرب؟

كيف استطاع الرسول أن ينتصر على دولة الشرك والأوثان، دولة المادة المتحجرة التي تملك أموالا وعتادا ورجالا كلهم حقد وغيظ على الرسول ﷺ وصحبه؟

كيف استطاع الرسول ﷺ أن ينتصر على دولة اللات والعزى ومناة، ولم يمض على هجرته من مكة إلى المدينة سوى سنتين؟

كيف استطاع الرسول ﷺ أن ينتصر على دولة الأحلاف التي حمت نفسها بالقبائل العربية المجاورة تذود عنها وتحميها وتسلم لها السيادة والقيادة وتمنحها أموالها كل سنة في موسم الحج؟

إن الانتصار معشر الصائمين لم يكن رحلة بين الورود والزهور والرياحين، ولم يكن انتصارا مرده الصدفة.

إنما للانتصار أسبابه ودعائمه وخططه، فهو يعود بالدرجة الأولى إلى:

1- **قوة الإيمان**: والإيمان - معشر الصائمين - هو الرصيد القوي لأي دعوة ولأي عقيدة تريد أن تسود فوق الأرض، فالمسلمون الأولون آمنوا بربهم ورسولهم، وطبقوا ما جاء في دستور قرآنهم حرفيا وكان إيمانهم عن عزيمة صادقة، ولم يكن إيمانا مصدره الرياء والنفاق بحيث يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض منه.

لقد آمنوا بصدق دعوتهم وأن هذه الدعوة هي الخالدة وهي التي ستنتصر على كل ما هو بعيد عن القانون الرباني، وأن هذه الدعوة مصدرها خالق هذا الكون وكل من وما عليه، لذلك تجدهم مندفعين للجهاد لتطبيق هذه الدعوة غير مبالين بالدنيا وما فيها من متاع زائل مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: 20].

فهذه الأفكار - معشر الصائمين - لم تكن في تلك الفترة وفي ذلك الحين كلاما يقال ودروسا يستمع إليها، بل كانت وقائع تطبق في أرض الميدان، لذلك نجدهم في هذه المعركة غير مبالين بكثرة العدو الذي فوجئوا به، بل اندفعوا إلى الميدان بقلوب مطمئنة ونفوس هادئة وإيمان صادق.

2- **تماسك الجبهة الداخلية**: بمجرد أن هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، كان أول عمل قام به هو أن ألف بين

المهاجرين والأنصار، واتخذ من المسجد الذي بناه هو وأصحابه مدرسة يتعلم فيها المسلمون روح الأخوة والتفاهم مما قضى على رابطة القبلية وحلت محلها رابطة عربية إسلامية إنسانية واسعة.

كما أنه عقد حلفا مع يهود المدينة لاستقرار الأمن فيها، وهادن المنافقين تجنبا لما يحدث من هزات سياسية في وسط المدينة، وبذلك أصبح جميع سكان المدينة داخل وحدة متحالفة للدفاع عنها ضد أي عدوان يقع عليها، وهذا التماسك للجبهة الداخلية له أثره على القوات المحاربة ورفع روحها المعنوية وإمكان إمدادها بكل ما تحتاج.

3- **الروح المعنوية والتخطيط المنظم**: هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة تعد إعلانا عن حالة الحرب بين الرسول والمشركين القرشيين، ولذلك لما استتب الأمر للرسول بالمدينة وشعر بثبات الأرض تحت قدميه، فكر في القيام بعمل ضد مصالح قريش لإشعارهم بقوة المسلمين وقدرتهم على أن يلحقوا بهم الضرر عسى أن يحملهم ذلك على الرجوع عن غيهم وطغيانهم.

وكان أول خطر بالنسبة لهم أن هدد مصالحهم التجارية حين عقد حلفا مع بعض القبائل التي تشرف على الطريق التجاري، فأصبح هذا الطريق في يد المسلمين.

كما أن الرسول ﷺ استعمل كل الوسائل لمعرفة قوة المشركين واستطاع أن يعرف ذلك، كما أنه تولى بنفسه تقويم الصفوف وحثهم على الثبات وعدم الخضوع أو الذلة والخوف، وأعد كتيبة الرمي إعدادا أفسد تفوق المشركين في سلاح الفرسان. كل هذه الاعتبارات الآنفة الذكر، يضاف إليها العقيدة الثابتة التي آمن بها المسلمون، حيث إن الإنسان لا يموت إلا إذا جاء أجله تصديقا لقول العلي القدير: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

بينما هذا الاعتقاد لا نجده لدى المشركين حيث يحرصون على الحياة والبقاء فوق ظهرها معتقدين بأن الحياة هي نقطة البداية والنهاية،

وأنهم خلقوا للنعيم والملذات وكل ما سوى ذلك يعد جهالة وانحرافا عن قانون الطبيعة.

4- **القيادة الناجحة**: كان الرسول الكريم ﷺ هو القائد للجيش وهو الموجه له، حيث إن هذا الجيش خرج يريد مطاردة قافلة قرشية، فإذا بالقافلة تنجو وإذا بقريش تجهز جيشا جرارا لمحاربة الرسول ﷺ وصحبه، فيسمع الرسول ﷺ بذلك ويخبر أصحابه بما حدث وبأن المعركة ستكون حامية وأن القوتين غير متكافئتين، لكن الله تبارك وتعالى يعده بالانتصار حيث يقول: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7].

إن الاستعداد والتخطيط المحكم والاستماتة من الشروط الموضوعية التي تمكن الفئة المؤمنة القليلة من أن تنتصر على الفئة الكثيرة المشركة.

ففي هذا الظرف العصيب الذي يطيش فيه عقل أعظم قائد، يبرهن الرسول ﷺ على عبقرية فذة وقيادة حكيمة ناجحة، حيث يطلب النصيحة والمشورة من قبل أصحابه، فتكلم أبو بكر بالتقدم إلى الحرب، وقال عمر: "يا رسول الله، إنها والله قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، والله ما آمنت منذ كفرت، والله لا تسلم عزها أبداً، ولتقاتلنك، فاتهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته". ثم قام المقداد بن عمرو فقال: "يا رسول الله، امض لأمر الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لنبيهم موسى عليه السلام: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا".

هذا كلام المهاجرين كله تأييد للقتال ودخول المعركة بدون تردد وبدون هوان، وأنهم عازمون على تحطيم شوكة المشركين والاستشهاد عن آخرهم، لكن الرسول ﷺ لم يسمع رأي الأنصار الذي هم معه هذه المرة فقال: «أشيروا علي أيها الناس»، فقال سعد بن معاذ وهو زعيم

الأنصار: "كأنك تريدنا نحن يا رسول الله، إنك عسى أن تكون خرجت عن أمرٍ قد أوحي إليك في غيره، فإنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن كل ما جئت به حقٌّ، وأعطيناك مواثيقنا وعهودنا على السمع والطاعة، فامض بنا يا رسول الله لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك".

وهنا عرف الرسول ﷺ أن الجيش وحدة متكاملة وقوة منسجمة يستطيع أن يدك به صفوف الشرك والوثن بدون خوف ولا حيطة، فقال: «سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين (العير أو النفير) وقد أفلتت العير (القافلة وما تحمل من بضائع)، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

5- **نصر الله:** معشر الصائمين.. إذا كنا قد تناولنا بعض الأسباب التي عقدت لواء النصر للمسلمين في هذه المعركة الفاصلة، فإن هناك سببا يأتي في المقام الأول وهو (نصر الله) لعباده المؤمنين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، هذه الفئة المؤمنة التي باعت الدنيا رخيصة من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه، فنصرهم الله حيث يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: 47]، ونصْرُ الله لعباده المؤمنين في غزوة بدر نصْرٌ معنويٌّ وماديٌّ.

فالنصر المعنوي يتجلى في تثبيت المسلمين عندما علموا أن قريشا خرجت بفلذات أكبادها، تريد أن تقضي على الرسول ﷺ وصحبه، فبلغ الخوف والفزع مبلغه في نفوس جيش المسلمين، فأرسل الله سكينته عليهم فيغشاهم النعاس ثم يصحون والسكينة تغمر نفوسهم والطمأنينة تفيض على قلوبهم.

وينزل الله عليهم مطرا من السماء فيشرب المسلمون ويتطهرون للصلاة، لأن المسلم إذا دخل المعركة بدون صلاة روحه المعنوية تنهار لأن الرابط القوي الذي يربطه بالله قد انقطع، وكيف يتأتى لهم ذلك وهم

بدون وضوء حيث إن الله تبارك وتعالى لم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم، ولقد جاء ذلك متأخرا في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة.

وسقوط المطر في ذلك الحين ساعد المسلمين على السير فوق الرمال المتحركة فأصبحت أقدامهم ثابتة فوق الأرض ثبات قلوبهم على الإيمان، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

ويوحي تبارك وتعالى إلى الملائكة أن تدخل المعركة لتثبت الذين آمنوا وتلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12].

هذا قليل من كثير عن هذه الغزوة الميمونة المباركة التي كانت فاتحة الإيمان حتى سماها الله تبارك وتعالى يوم الفرقان.

ولقد أراد الله - معشر الصائمين - وله الفضل والمنة أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون معركة فاصلة بين الحق والباطل، فيُقتل من يُقتل ويُؤسر من يُؤسر وتنكسر شوكة المشركين، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها راية الله ويُمَكِّن الله للعصبة المسلمة أن تعيش بمنهج الله وتنطق به لتقرير ألوهية الله في الأرض، وأراد سبحانه وتعالى أن يكون هذا التمكين عن استحقاق وعن جهد وجهاد.

أراد الله للفئة المؤمنة أن تصبح أمة وأن تصبح دولة وأن يصبح لها قوة وسلطان.

وأراد الله للفئة المؤمنة أن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة وليس بالمال والخيل والزاد، وإنما النصر يكون بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقوى عليها قوة العباد، ولم يكن ذلك حديثا يقال بل عن تجربة، ولم يكن ذلك مجرد تصور أو اعتقاد بل كان واقعا قائما.

ومن ذلك نتأكد جميعا - معشر الصائمين - أن كل جماعة مسلمة مؤمنة بربها إيمانا حقيقيا، تملك في كل زمان وفي كل مكان أسباب التغلب على خصومها وأعدائها، مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة، ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد.

ولم تكن هذه الحقيقة لتستقر في القلوب قديما وحديثا إلا بهذه الموقعة الفاصلة التي كانت خير درس وأفضل موعظة للمسلمين في كل عصر وزمان.

ولنتأكد جميعا أن الإسلام لم يكن بالكلام والحديث الفارغ هنا وهناك، وإنما كان معاناة وجهادا من قبل أولئك الذين رفعوا رايته وتحملوا أمانة ذلك بصدق لأنهم متأكدون بأنهم سيلاقون ربهم، ويجدون ما قدموه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

اللهم ارزقنا صبر أهل بدر وثبت أقدامنا كما ثبت قلوبهم وأقدامهم يوم الزحف الأكبر، وامنحنا إيمانا قويا يكون خير عون لنا للدفاع عن مبادئ ديننا حتى نلقاك ونحن من الذين قلت فيهم: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30].

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

رسالة النبي محمد ﷺ
وفضلها على الإنسانية

1979-12-10

أيها الإخوة الأكارم والسادة الأفاضل.

باسم رب العزة رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الخلق أجمعين وعلى أصحابه الأتقياء المؤمنين الذين وهبوا أرواحهم خالصة لوجه الله وامتزجت دماؤهم وعواطفهم وأفكارهم بدين الهدى ورسالة الحق والتقى، فكنت ترى يوم ذاك رجلا فتحسبه ملكا يسير فوق أديم الوجود؛ شعلة في الإيمان، وتقوى في الأعمال، وثبات على المبادئ، وابتعاد عن كل عرض الدنيا وزخرفها الزائل، ووثوب إلى عالم الحق والرشاد رفقة رسول الرحمة والقدوة المثلى. وكنت ترى الأعمال يوم ذاك فاقت الأقوال. وكنت ترى الزمرة القليلة كيف استقطبت حولها وتجمعت في يدها كل عناصر القوة المعنوية لتندفع بها إلى عالم المجد الإلهي والخلود الأبدي، لا لشيء، وإنما لكون الإنسان يوم ذاك ولأول مرة في تاريخ تواجد البشرية فوق أرض الله تلتحم إرادة السماء الغالبة بإرادة الأرض المستسلمة فتكون جسدا محسوسا يريك عالم الأشياء، وطاقة روحية غلابة تريك عالم الغيبيات حيث الزحف على جحافل الظلم والشرك والانتصار على الطاقة الفكرية المنحرفة عن عبادة الرب الرحمن.

فكم من عصبيات وإمبراطوريات زالت في لمح البصر إذا قورنت بالمدى الزمني الذي تكونت فيه وترعرعت على بساطه الواقي الممتلئ بالنتوءات والالتواءات التي تترك الإنسان في أكثر أوقاته الحياتية يتبرم من حياته ويرمي بنفسه في نارها الملتهبة بالكذب والنفاق والغش والاحتيال والجوسسة، لا لشيء وإنما لأن هناك انحرافٌ وقع، وتشعبٌ قد حدث في مسار إنسانيته التي خلق ليحياها، سعيدا بسعادة الله، قويا بقوة

القوي، رحيما برحمة الرحمن، متواضعا بعظمة العظيم، مستغفرا ربه آناء الليل وأثناء النهار، وكان شعاره الأبدي: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].

في ظل هذا التباين اللامتناهي وعلى مسار هذين الخطين المتناقضين الذين لا يلتقيان، حيث ظن الكثير يوم ذاك أن إرادة الشر قد تغلبت على إرادة الخير وأن وثنية الأرض أصبحت هي سفينة النجاة، ولم يقو على ركوبها إلا فئة قليلة حملت في يدها عصا غليظة قتالة فتاكة نغصت الحياة على الكل، وساقتها جحافل غير منقطعة تجوب بها أسواق النخاسة تبيع الكرامات والأرواح والقلوب، وتشتري بها الذلة والمهانة لتوزعها من جديد على الأجنة في البطون، ولتزفها كخير بشرى مذلة للرضع وهي تبتسم في المهد. في هذا الجو المشحون - والذي لا يوصف - تراءت في الأفق فكرة جامحة من قبل طاغية سولت له نفسه شرا فأراد أن يحطم الكعبة ويزيلها من فوق أرض الله، حيث أراد أن يزيل نورا أبديا من فوق أرض الوجود، وسولت له نفسه بإطفائه في بقعة معينة وتحويله إلى المنطقة التي بسط نفوذه فوقها، وركب رأسه واستجاب لنزوات نفسه وسار مع خيوط لعابه، وراح يجهز جيشا قويا مكتسحا به الصحراء العربية ضاربا بعرض الحائط كل الإرادات القوية التي كونت درعا ماديا يحمي الكعبة ويصونها.

وكم يوم ذاك من عربي وقف يشاهد الفيلة التي ستدك بخراطيمها الأحجار الكريمة التي بنيت بها الكعبة الشريفة وتقضي على الآلهة المنتصبة في رحبتها والرابضة في بطائحها، وكم من عربي رأى ذلك فلم يملك وسيلة من الوسائل للدفاع عن قدس الأقداس فراح يذرفها دموعا ساخنة وراح يعلنها حروبا خيالية في عالم حلمه وواقعه.

ويتجه جيش الفيلة يوم ذاك وكله عزة وكله ثقة بالنصر المدعم بدعائم الإلحاد والشرك، وظن العرب قاطبة أن الجانب العقائدي سينطفئ

من اليوم ولن تقوم له قائمة.. إنه حزن شديد وخطب أليم يضاف إلى تلك الأحزان والخطوب السابقة المتمثلة في الحروب التي لا يخمد لها أوار، وإلى ذلك الفقر الذي ضرب أطنابه في كل خيمة ودار، وإلى ذلك الجفاف الذي خيم على الجزيرة العربية وغشاها واستولى عليها حتى غدت نارا وجحيما لا يطاق.

في ظل هذه المتناقضات وفي وسط هذه المظالم تشرق شمس بإذن ربها وبخيوط نورها التي تبدد الظلام وتعيد الرؤية لخلائق الوجود. ولكن شمس صبيحة الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول كانت ساطعة وكانت دافئة تقرأ على مسار خيوطها الرحمة والإخاء والأمان والصدق والمساواة والعدالة والوحدانية، ولو كان يوم ذاك عالم فيزيائي ووجه آلاته المعينة له لاستنتج أن ألوان الطيف السبع أصبحت يوم ذاك ثمانية، وأن ذلك الطيف الثامن لم يكن إلا بشرى تزف لكل مخلوق يدب فوق الأرض وكل جنين في البطن وكل منتظر ليؤدي رسالة حياته فوق أرض الوحدانية، إنه طيف الوحدانية الذي سيحطم الوثنية ويقضي على الثنائية والثلاثية من ناحية عبادة الواحد الأحد، إنه الطيف الذي لا يختفي ولا يزول حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

في هذه الليلة:

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ * وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ
*
الروحُ وَالمَلَأُ المَلائِكُ حَولَهُ * لِلدينِ وَالدُنيا بِهِ بُشَراءُ
*
وَالعَرشُ يَزهو وَالحَظيرَةُ تَزدَهي * وَالمُنتَهى وَالسِدرَةُ العَصماءُ
*

وجاء المخاض في أول السَّحَرِ آمنةَ بنت وهب وهي وحيدة في منزلها ليس معها أحد سوى جاريتها، وأحست بما يشبه الخوف، لكنها ما لبثت أن شعرت بنور أبدي يغمر دنيا دارها، ثم بدا لها كأن جمعا من النساء يحطن بمضجعها ويحنين عليها فتحسبهن من بنات عبد مناف، وتتعجب يومها كيف علمن بأمرها في هذه الساعة من الليل وهي لم تخبر

أحدا بوضعها وحالتها، غير أنها سرعان ما أدركت بأن ذلك لم يكن إلا مجموعة من أطياف سارية، وخُيِّلَ إليها أن من بينهن مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون وهاجر أم إسماعيل.

وعاودها الخوف فتجلدت للحظة الحاسمة، وما كاد نور الفجر ينبثق حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل أنثى.

وكان ولدها إلى جانبها يملأ الدنيا حولها نورا وأنسا وجمالا وبهجة، ومضت ساعات وساعات وهي لا تفتأ تحدق في طلعته البهية وذاتيته اللطيفة المشرقة، وينبلج الصبح فترسل إلى جده عبد المطلب تبشره بمولد حفيده، فأقبل مسرعا وكله ابتسامة وكله أمل وكله عزة بالدنيا ونعيمها لأن خليفة عبد الله قد حل بأرض الدنيا، وكأنه يوم ذاك قد هبط لجده من السماء، وتجد عبد المطلب يوم ذاك كله آذان صاغية لآمنة وما رأته وشاهدته أثناء الوضع.

وحمل صغيره العزيز بين ذراعيه في رفق ورقة وانطلق به حتى أتى الكعبة فقام يدعو الله ويشكره أن وهبه ولدا من ابنه الفقيد الغالي الذي أهدر لأجله مئة ناقة أو يزيد، ويجتمع بنوه حوله في خشوع وغبطة وهو بالكعبة يطوف منشدا:

الحمد لله الذي أعطاني * هـــذا الغـــلام الطيـــب الأردان
*
قد ساد في المهد على الغلمان * أعيـــذه بالبيـــت ذي الأركـــان
*
حتى يكون بلغة الفتيان * حتـــى أراه بـــالغ البنيـــان
*
أعيذه من كل ذي شنآن * مـــن حاســـد مضـــطرب العنـــان
*
ذي همـــة لـــيس لـــه عينـــان * حتـــى أراه رافـــع اللســـان
*

وينشأ الطفل الصغير في بيئة تعج بالوثنية والإلحاد، والأرض تموج برياح الإلحاد والشرك في ظل حياة لا تطاق.

حيث الحياة يكتنفها الجحيم ويسودها تيار الزوال والاندثار، وكم يوم ذاك من قلوب تلاشت لا لشيء وإنما لأنها فقدت حُرَيْرَات الحياة التي تعطيها دفعا نحو عالم الحياة، وكم يوم ذاك من أعناق وجباه خضعت لمخلوق لا يملك من قوة الحياة وسلطانها إلا أن يستعبد غيره ويسوقه أصحابها أفواجا وجحافل يجوب بهم أسواق النخاسة ليبيعهم بأزهد الأثمان.

وكم يوم ذاك من رايات نصبت هنا وهناك لا لشيء وإنما كشعارات للإشهار لبيع الخمور في كل زاوية وساحة من البيت الحرام، في ظل هذا شب محمد وعايش هذه المتناقضات شابا يتمتع بالقوة الجسدية التي تخول له أن يكون واحدا من أبناء قومه ومجتمعه، لكن إرادة السماء كانت له عونا وسندا تحميه وتذود عنه وتحفظه من كل الأرجاس.

وينزل الوحي عليه وهو بالغار متعبدا ويعلنها دعوة فكرية على الملأ يوم أن ناداه ربه عن طريق الروح الأمين: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]، فيتوجه محمد الأمين بخطى ثابتة وقلب متجلد صبور ليتصدر المسيرة في حلبة الكفار وينادي: «يا معشر قريش»، قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه: ما له؟ قال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدّقون؟»، قالوا: نعم! أنت عندنا غير متهم وما جرّبنا عليك كذبا قطّ. قال: «فإني نذير بين يدي عذاب شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة - حتى عد الأفخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله».

ومنذ الإشراقة الأولى لنور الإسلام في المدينة المنورة على ساكنها أفضل السلام وأزكى التحيات، خاضت الجيوش الإسلامية معارك الحرب في جميع أنحاء الدنيا وخاض معها العقل الإسلامي معارك أشد هولا حيث نزل الإنسان المسلم يوم ذاك إلى ميدان المعارك ولم يملك معه لا السلاح

ولا المؤونة في أغلب الأحيان ليحفظ بها روح الحياة ويمد بها الخلايا المهمة في الجسد لينطلق لتحقيق بعض المهام الفسيولوجية.

غير أن قوة الإيمان صنعت من ذلك الإنسان المعجزات وكونت منه كتلة متلاحمة كل ذرة منها تكمل صاحبتها وتعطيها قوة ودفعا نحو عالم الخلود والمثل العليا، وبذلك تقوضت أركان الدول تحت وطأة الجند المظفر، وتقوضت معها دعائم الثقافات المتناقضة تحت الأنوار الكاشفة لنور العقل المسلم المنصور من قبل رب العالمين.

وظلت الملاحم دائرة الرحى قرونا متطاولة في ميادين الحرب وميادين الثقافة جيلا بعد جيل.

أما إذا رجعنا إلى ذلك الإنسان العربي الذي كونه الرسول صلى الله عليه وسلم بالأفكار المستمدة من أشعة السماء الخالدة ماذا تراه وماذا تخاله وهو رفقة رسوله ﷺ؟

***

رسولَ الله.. إن هذه الرسالة الأمينة التي جئت بها لم تكن حدثا عارضا أو خبرا مفاجئا سرعان ما يزول ذلك الحدث ويُنسى ذلك الخبر، بل هي رسالة أبدية حيث انقلبت فيها الموازين وتحولت البشرية تحولا تاما.

فالذين كانوا يأتون الفاحشة من الرجال ويهتكون أعراض غيرهم أصبحوا حماة للأعراض، والذين كانوا يعاقرون الخمر علانية وعلى رؤوس الملأ عادوا دعاة لإلغاء المسكرات واستئصال شأفتها.

والذين كانت شرعتهم ومنهاجهم التلصص وقطع الطرقات وتنغيص الحياة على النفوس الآمنة، قد بلغوا من الورع والعفاف مبلغا جعلهم يتحرجون من الأكل عند أصدقائهم حذرا أن يكون ذلك باطلا وحراما.

والذين كان من طبيعتهم وشيمتهم شنّ الغارات والاعتداء على حقوق الناس تسنموا أعلى مراتب الزهد والورع والتقى، حتى إنهم لما

فتحوا عاصمة الفرس (المدائن يوم ذاك)، حدث حادث قد لا يصدق يوم ذاك إذا روعيت فيه طبيعة العربي الذي قطع المسافات الشاسعة، وتجشم لأجل ذلك الأهوال والخطوب وجاء يريد أن يدك قلاع فارس وينتصر، ويدخل جندي قصر كسرى فيجد التاج الكسروي الذهبي الذي يناهز ثمنه ملايين الدنانير، حمله وسار متسترا تحت جنح الليل مخفيا إياه تحت كسائه المرقع البالي، حمله بيده الضعيفة التي أنهكتها النبال والرماح ولم يبق منها إلا الصورة الهيكلية التي تريك مظهر إنسان، حمله متسترا حتى لا يراه أحدا فيشيع به في وسط خلانه وإخوانه بأنه نعم الصادق الأمين وخير جندي يحمي الإسلام ويدافع عن مبادئه، حسبه الله في صنيعه ونعم الوكيل حتى لا يتسنم ذروة الرياء.

والذين ما كانوا يقيمون وزنا للنفس البشرية ويسفكون الدماء ويهدرونها في غير طائل ويئدون بناتهم فلذات أكبادهم بأيديهم، بلغوا من شعورهم بحرمة النفس أن أصبحوا لا يقدرون أن ينظروا إلى طائر صغير يراق دمه من غير شفقة ولا رحمة.

والذين ما كانوا من قبل من الأمانة والعدل في شيء، أصبحوا بررة يضرب المثل بأمانتهم وتعففهم، حتى إنه لما ذهب عامل الخراج إلى يهود خيبر بعدما انقادت لأمر الإسلام وخضعت له قدموا له مبلغا كبيرا من المال ليخفف عنهم بعض ما عليهم من خراج الحكومة، فأبى أن يقبل الرشوة ورفض رفضا يوحي بالأنفة وعزة النفس والثبات على المبدأ، بل شطر جميع ما أغلته أرضهم في ذلك العام شطرين وخيرهم أن يأخذوا أيهما شاؤوا، ولما رأت اليهود من العامل هذه المعاملة الغريبة أخذ العجب منهم مأخذا عظيما، واستولت عليهم الدهشة حتى صاحوا قائلين: "ما قامت السموات والأرض إلا بمثل هذا العدل والقسط".

ونشأ فيهم من الرعية من بلغ من شعوره بالمسؤولية الخلقية أن كان أحدهم يقترف جناية فيأتي الأمير ويعترف له بجنايته ويلح عليه أن يُجْري عليه حدود الله ولا يتهاون في أمره، وهو يعلم علم اليقين أنه تعدى حدا من

حدود الله جزاؤه قطع اليد أو الرجم بالحجارة حتى يهلك، وذلك ليتطهر من أرجاس الإثم الذي اجْتَرَحَهُ، ولا يأتي ربه سارقا أو زانيا يوم تبلغ الروح الحلقوم وتشخص الأبصار.

رسولَ الله.. قد جعلت بفضل شريعة السماء السمحة كل الناس الصالحة في مشارق الأرض ومغاربها تسير وراء قافلة الإيمان وتكون منظمة في سيرها بدون دليل ولا قائد يقودها، وإنما دليلها أتقاهم وأكثرهم تقربا من الدين، وتقرب هذا الدين إليهم حيث حدث ما يسمى بالالتحام الكلي بين الإنسان المؤمن ورسالة السماء.

ولعل الكثير يتساءل عن الأسباب التي هُيِّئَت للإسلام وجعلته ينتشر بهذه الصورة كما وكيفا، أهي أموال طائلة تُنفق عليه من قبل الهيئات المختصة، أم هي دعاية واسعة النطاق قامت بها فئات مختلفة من كل أمم الدنيا قاطبة، أم هي فرق عسكرية جابت اليابسة وشقت عباب البحر وامتطت مطية السماء تحمل معها أسلحة الإرهاب والدمار تقذف الرعب وتسلط أنواع إزهاق الأرواح على العباد لينتشر هذا الدين؟ كلا، كل ذلك لم يكن ولن يكون لا قديما ولا حديثا، والله أعلم كذلك لا يكون مستقبلا.

لأن رسالة الإيمان لم تتقيد بقيود الجمارك والحدود الجغرافية ولم تقف عند اللهجات واللغات التي تنطق بها الألسنة، ولم تتخذ من العنصرية راية خفاقة تحملها في كل المنتديات الدولية والمحافل العالمية، وإنما هي نظرة كلية إلى الإنسان على أنه إنسان بالدرجة الأولى ولم تكن هناك درجة لا ثانية ولا ثالثة ولا رابعة إلى غير ذلك عدًّا وحصرا.

ورسالة الإيمان ثابتة لا ينالها التغيير والتبديل، وطبيعة وفطرة الإنسان كذلك تساير وتواكب هذا الثبات، فلم تنتصب في يوم من الأيام فرق مختصة في علم من العلوم لتدرس الدين على أساس التغيير والتحريف، وإنما لتدرسه على أساس الفهم والوضوح، وما ظهور المذاهب الأربعة إلا دليل على ذلك، لكل إمام وجهة نظر حسب اجتهاده وهذه الوجهة النظرية لا تتعارض مع القاعدة العامة لتماسك هذا الدين وترابطه.

رسولَ الله.. الناس في عالم الوثنية المادية في شرق الدنيا وغربها، طائفتان متناحرتان لا لشيء وإنما لأنها دخلت عالم المتاهة وسارت في طرقاته، والقليل النادر من خلص نفسه من المسارات المتاهية وخرج منها إلى نور أبدي سرمدي نور الحاكمية لله والعبودية المطلقة له، فحاكم المسلم هو الله، والمتولي لتطبيق شريعته والسهر عليها وإمدادها بما تستحق من شروط مادية ومعنوية هو خليفة الله.

فهذه واحدة من أعظم الصفات التي جعلت المخلوق البشري يلتف حول هذا الدين الحنيف ويتخذه قبلته الأبدية، لأنه جرب كل حكام البشر على امتداد الرقعة الأرضية وعلى امتداد المدة الزمنية، فوجد العادل منهم عادلا لنفسه ظالما لغيره، ووجد ظالمهم ظالما لنفسه دكتاتوريا على غيره.

إن النظام الإسلامي الذي توضحه الآية الكريمة خير وضوح وتضعه في الدرجة والمكانة اللائقة به خير ما يقال ويتحدث عنه ويُعمل به، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55].

فالآية واضحة في مهمة الاستخلاف، حيث أصبح كل المؤمنين وكل الملتفين حول العقيدة الإلهية والحاكمية المطلقة له خلفاء الله دون أن يختص ذلك بفرد معين أو عائلة خاصة منحدرة من ناحية السلالة النسلية أو النسب الشريف، وما الحديث النبوي الشريف الذي أعطى المسؤولية المطلقة والخلافة لكل المؤمنين: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ»، إلا خير دليل على ذلك.

رسول الله.. إن الفساد الذي يدب في وسط الأفراد والشعوب والأمم هو سبب زوالها واضمحلالها، وكم من أمة تلاشت قوتها وذهبت ريحها لا لشيء وإنما لأجل النزاع على السلطة والتحكم في العباد.

فالمجتمع الذي يكونه النظام الإسلامي مجتمع يصبح فيه كل عضو منه خليفة لا يتسرب إليه فساد التفريق بين الطبقات والامتيازات المادية والمعنوية، وإنما الفوارق تظهر من ناحية التقوى والعمل الصالح والتقرب إلى الله، وإذا كان هناك من تنافس بين المسلمين فلا يكون إلا على أساس

العمل الصالح والخضوع للحاكم المطلق وهو الله، وبذلك تسقط كل الاعتبارات الحياتية، وتزول تلك الفوارق التي يُحيط بها الإنسان نفسه من ناحية المال والعلم والجاه، وتصبح الجوسسة يوم ذاك حراما على المسلم، لأن أي تجسس سيحدث يكون على الله لا على سواه والآية واضحة في ذلك: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الحجرات: 12].

إن الفردية في الإسلام لا وجود لها أصلا من ناحية الاستبداد والتعالي والتسلط، فكل ما جاء في القرآن الكريم محارب لها.

فخلافة المسلمين لا تعني الاستيلاء على السلطة والتحكم في الناس أحبوا أم كرهوا، إنما الخلافة الإسلامية وخليفة المسلمين تعني أن قوانين الرسالة تتجلى فيه وتنعكس عليه فهو شبيه بعدسة لامة يجمع كل هذه القوانين ويفرقها على أفراد المجتمع بدون إجحاف أو زيغ أو تفريط، والمؤمنون كلهم حراس ذلك.

الإسلام لم يكن في يوم من الأيام ولا يمكن أن يكون في المستقبل مجموعة من الأفكار المبعثرة، والطرق المتفرقة المتباينة للعمل حشدت فيها من هنا وهناك أشياء لا رابطة تربطها ببعضها بعضا.

والملاحظ أن المسلم المستحدث المعلب الذي ينتمي إلى الإسلام جغرافيا له الحق أن يختار أي طريق شاء وينهج المنهج الذي يريد، فأصبح الإسلام مرة جلبابا يلبس على الرأسمالية فيكون بذلك ثوبا أنيقا، وثانية يلبس على الاشتراكية فيصبح رداء لا ينقص إلا أن يعرض في معارض الأزياء ليكون محل إعجاب الكل من قبل أمم الدنيا قاطبة في كبريات عواصم العالم، ومرة أخرى بذلة منظمة يلبسها الحاكم الدكتاتوري فيخرج متبجحا بذلك في شوارع تجمعات الشعبة الإسلامية الجغرافية وشعاره: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]، والقائمة طويلة وعريضة، والله أعلم بما سينبئ به الغيب من الخميرة المتخمرة في جفان أرباب المادية الحديثة من نظم مستجدة سيكون لها نصيب موفور في عالم النظم الإسلامية إذا كان النهج هو هذا، والاتجاه تبين بالنسبة لهؤلاء المتذبذبين.

ومرة يكون الإسلام إسلام المساجد؛ فعبادة الله لا تكون إلا في المساجد، أما إذا خرج الإنسان المسجدي من مكان ركوعه وسجوده واستغفاره فإنه ينتشر في الأرض ويعبد ما شاء له أن يعبده من ملوك ورؤساء وطغاة وجبابرة وأرباب مصالح. فهذه الطائفة شبيهة إلى حد ما بالكفار والمشركين الذين كانوا في جدال ونزاع مستمر مع الأنبياء والرسل، حيث إنهم لم يكونوا من المنكرين لوجود الله، بل كانوا يسلمون له بخلق السماوات والأرض ويسلمون له بخلق نفوسهم وخلق نفوس العباد والمخلوقات كافة، حيث يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (89)﴾ [المؤمنون: 84-89]. غير أن التقوى منعدمة والصَّلف مستمر والتعنت باق كما أن التذكر لا وجود له حيث إن القلب غشيته سحائب الكفر والطغيان واستولت عليه طبقة سميكة من الفجور والمعاصي، وأصبح الواحد منهم قديما وحديثا كالصخر الأصم لا يتقبل الالتحام مع الغير ولا يرضى بالإصلاح.

رسولَ الله.. إن الإسلام كما أردته أنت هو هذا وسيبقى هكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ طاقة متفجرة وينبوعا متدفقا طيارا جارفا لكل النزعات والاتجاهات المغرضة المتحركة تحت راية العنصرية المدعمة بالقبلية حينا والقومية أحيانا أخرى والطائفية في كثير من الأحيان.

إن الإسلام هو قانون الله الخالد الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وسيبقى المد الإسلامي مستمرا استمرارية تواجد هذا الإنسان فوق أرض الله، فدرعه المتين وحصنه العتيد قوله عز من قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

***

وإذا ما رجعنا إلى حالنا الذي نعيشه وحاولنا أن نقارن بين ما نحن عليه وذلك المجتمع النموذجي الذي قام على أساس الوحي السماوي والهدي النبوي، لا أكون مغاليا إذا ما قلت إنه شتان بين حالنا الذي أصبح موصوفا بالمادية الحديثة التي استولت علينا وتكاد أن تصبح عند الكثير من سكان الكرة الأرضية هي العقيدة المتشبث بها دون غيرها، وأصبح المال هو الشغل الشاغل لكل فرد يملك طاقة وحيوية تدفعانه إلى البحث عنه بأية طريقة ووسيلة حيث احتل الدينار مكانة ومقام العمل.

فكلما اختزنا الملايين معناه استطعنا أن نختزن العمل، حتى ظهرت فكرة البنوك التي يلجأ إليها أرباب الملايين لتحفظ لهم ما جمعوه، فغدت البنوك هي القبلة والكعبة والمسجد بالنسبة لهؤلاء، وساقوا وراءهم جحافل من البشر تشايعهم في اختياراتهم وتقف معهم في كل اتجاهاتهم المادية وأغراضهم ومطالبهم الدنيئة وهم يسيلون لعابها بالتمني والوعود الكذابة على أنهم سيضعون لهم جنات الخلود في الدنيا، ويبقى المستقبل هو اليوم الموعود، ولن يكون هناك مستقبل لأن الطبيعة تأبى ذلك، اللهم إلا إذا حدثت معجزة وتغير التوقيت الزمني وهيهات أن يكون ذلك.

وعبادة المال فكرة خاطئة من أساسها، لأن المال - كما سبق - هو العمل، والعمل لا يقوم به إلا الإنسان، فكلما بذل الإنسان الجهد كلما تحصل على المال، فالمال نتيجة وخلاصة لعمل يقوم به الإنسان، فإذا ما عبدناه وكأننا نعبد ذاتيتنا ونصبح يوم ذاك في جاهلية مظللة بمظلة الحضارة الحديثة وكأننا نتفنن في عصيان الله والخروج عن جادة هديه القويم.

والعالم الإسلامي اليوم قد اتجه كلية إلى الحضارة الحديثة شرقيها وغربيها يعبدها ويقف إجلالا لها ولا يريد سواها، لا شيء وإنما أصيب بمرض الخمول والكسل، وسلبه الغربي بعمله ونشاطه الذي تحول إلى مخزون حضاري في عالم الأشياء المغرية التي تجتذب ألباب السذج وتوقع الكثير من المغفلين في شرك الإلحاد فيجد نفسه عن طواعية يعبد إنسانا يغايره شكلا وفكرا، ويصبح يوم ذاك معول هدم بالنسبة لتراثه الخالد وقيمه السامية.

وهذا ما نلاحظه ونشاهده ونعيشه في عالمنا الذي ينزف دما، حيث القيم يُقضى عليها من قبل أبنائها وحماتها، لا لشيء وإنما لأن هذه المجتمعات الإسلامية لم تُعبأ تعبئة حقيقية لتخرج من منطقة عبادة البورصة والدينار، وينقلب جهدها هو الدينار والبورصة، وعندما يوضع العمل في كفة والدينار في كفة أخرى يحدث التوازن وتسقط يومها فكرة عبادة المادة، ويعود الإنسان من جديد إلى عبادة الله الواحد الأحد.

فكلما تقاعسنا وتكاسلنا عن العمل كلما تسرب إلينا الإلحاد، وما أصدق قول العلي القدير: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

إن المسلم المعاصر يبذر صباح مساء رصيده المالي بفعل تقاعسه وعدم اندماجه في صفوف وطوابير العمل، لا لشيء وإنما لأن العقيدة بالنسبة إليه قد علتها غشاوة مضببة وتركت الطريق معتما، مما جعل الكثير يرى المال هو كل شيء في عالم الحياة، وجعل الواقع الاجتماعي الذي تحركه العقيدة الإسلامية هو الرصيد الأوحد لا العقيدة المادية المزعومة التي لا تساوي أي شيء.

وكثيرا ما نرى العالم الإسلامي يلتجئ إلى الاعتماد على رؤوس الأموال الأجنبية لتنفيذ مشاريعه الإنمائية الخاصة، فهو يعتمد على وسيلة يفتقرها تصورا وهي في الحقيقة متوفرة بالنسبة إليه، وتكون النتيجة ترك الجانب العقائدي بدعوى أنه العائق الذي يعوق مسار التخطيط والخروج من التخلف، وهذه الأفكار ليست وليدة الوطن بل هي مستوردة من الجانب الذي انتصر إلى حد ما على الجانب المادي واختزنه على شكل دولارات أو خبراء يصدرهم إلى الغير وضمن استمرارية انتصاراته، وهي مرهونة بتخلفنا نحن.

إن المال يجب أن يكون خادما مطيعا للفرد ولا يجب أن يكون سببا يطاع من قبل المواطن.

فإذا ما التحم المسلم بفكرة العمل جاعلا من الزمن خير مطية تركب للوصول إلى الهيمنة على مقاليد الأمور في كل مكان يتواجد فيه مجتمع

إسلامي متعطش أن يرى تعاليم قرآنه وحديث رسوله ﷺ في كل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

***

أيها الإخوة.. إن الحديث عن الإسلام ونبيه محمد بن عبدالله ﷺ يجعل المرء حائرا ماذا يقول وماذا يدع، وفي تردد مع نفسه وفكره وخلجات نفسه.

إنها دعوة مستحثة ونداء مفروض على المسلم المعاصر أن يخطو خطوات عملاقة في عالم الاقتصاد بثبات، شريطة أن يتخلص من عِجل الذهب الرأس مالي وزخرف القول الماركسي الذي يسيل اللعاب ويجتذب العين بسرابه المنعدم نحو رفاهية البشرية التي نهايتها الزوال، أية رفاهية وأية سعادة لا تبقى مع الإنسان.

إن المسلم في العالم المعاصر يملك الطاقات الروحية والفكرية والمادية وهو مطالب اليوم أن يستثمرها وفي أسرع وقت، وإلا فإن نهايته ستكون استعبادا واستعمارا من جديد، لأن المسلم الذي وضع نفسه في قمة الحضارة الروحية وراح يوجه الإنسان إلى عالم المثل في الدنيا ويقوده إلى النعيم الأبدي في الآخرة جدير به وبمبادئه أن لا يبقى عالة على غيره يمد يده ليملأ بطنه وينتظر الذي يرميه بالزيغ والإلحاد والزندقة متى يفتح له خزائن صناعاته وأبواب نعيمه ليقتات الفم ويتنعم الجسد.

وقد قال مالك بن نبي رحمه الله: "كل فم يأكل وكل ساعد يعمل"، هذا هو الشعار الذي يجب على المسلم المعاصر المتشبث بدينه أن يرفع من يعيد أفكاره الإسلامية الصحيحة إلى عالم الاقتصاد.

والمجتمع الإسلامي يجب أن يكون النموذج المحتذى في هذه التجربة حتى يحقق لغيره من المجتمعات الإنسانية كل رفاهية وازدهار بما يجعل غيره من الأعداء يتساءلون: ما سبب نجاح هؤلاء؟ فيكون الجواب: هو التشبث بالعقيدة الإسلامية. فترى الناس يومئذ يدخلون في دين الله أفواجا كما جاؤوا أفواجا يوم أن تمكن الرسول ﷺ رفقة أصحابه من الانتصار على الجانب المادي لا بشيء وإنما بالعمل المتواصل والنشاط الدؤوب في كل لحظة من لحظات حياتهم.

فهذه مساجد تبنى وتلك بيوت تشيد وألوية تعقد لتدك قلاع الضلال والكفر والإلحاد، بدون الاعتماد على زخرف الدنيا ونعيمها، وإنما الزخرف يستقيه الإنسان المسلم من ذاتيته التي ستصبح سراجا منيرا ومصباحا مضيئا يوم أن يحدث التوافق بين الإيمان والعمل ويصبح التهجد والتعبد والتقرب إلى الله العلي القدير بالصلوات وفعل مكرمات الخير ويصير الإيمان هو السلطان الغالب، يومئذ ترى الجماعة الإسلامية وفرقها ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: 29].

أيها السادة.. هذه بعض الخواطر جادت بها القريحة في ذكرى مولد المصطفى، وأستسمحكم في النهاية إذا لم أتعرض لجانب سيرة المختار، لا لشيء وإنما لأن سيرته هي المنهاج المقرر هذه السنة في برنامج التربية الدينية، فهي موضوع حديثنا ومناقشاتنا داخل الفصول، هذه واحدة.

وثانيتهما: أن الرسول ﷺ وهو الشخصية الفذة في العالم، على امتداد العصور ماضيها وحاضرها ومستقبلها، يعجز الإنسان عن الإحاطة بكل جوانب سيرته، وماذا يقول عن رجل توفي في أحضان ملائكة الرحمان وسار على الصراط المستقيم المعبد بإسمنت الإيمان.

نسأل الله التوفيق والهداية إلى درب سيد المرسلين، والشكر والحمد لله رب العالمين.

كلمة في حفل افتتاح معهد العلوم الإسلامية بباتنة

يوم الثلاثاء 12 ربيع الأول 1408هـ الموافق 3 نوفمبر 1987م

أيها الإخوة الضيوف الكرام..

مرحبا بكم في هذا المكان الذي أذن الله تبارك وتعالى أن يُذكر فيه اسمه، استجابة لقوله تبارك وتعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 36-37].

في هذا المكان الذي اختاره العلي القدير أن يكون منارةً للعلم، فيه تُنَوَّرُ عقولُ العباد بالدراسات الإسلامية التي هي خير مُحَصِّنٍ للشخصية العربية الإسلامية، وقلعةً من قلاع مواجهة الغزو الفكري والذود عن العقيدة الإسلامية.

وقد شاء العلي القدير أن تقترن هذه المناسبة بمناسبتين عظيمتين:

أولاهما: ذكرى اندلاع الثورة التحريرية المباركة، التي احتفلنا بذكراها الثالثة والثلاثين منذ يومين.

وذكرى مولد صاحب الرسالة الخالدة محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة وأزكى التحيات.

وثورة نوفمبر - معشر السادة الأفاضل - استمدت شعلتها ومبادئها من تعاليم الإسلام الخالدة، فرحم الله أولئك الشهداء الذين روت دماؤهم هذه الأرض الزكية، ونصر الله الذين ما يزالون يواصلون المسيرة ليتحقق فيهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

أيها الإخوة الضيوف..

إن هذا المُجَمَّع الذي نحتفل بافتتاحه اليوم، إنما هو من مجهودات كل المؤمنين المخلصين، الذين ندعو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منهم ما قدموا ويسخرهم لإمداد المشروع حتى يتم إنجازه.

وبهذه المناسبة؛ فإن الجمعية الدينية - وعلى رأسها العقيد الحاج لخضر - تتوجه بالشكر الجزيل لكل من مد يد العون والمساعدة من قريب أو بعيد لإنجاز هذا المشروع المبارك.

كما تشكر الجمعية كل السلطات المحلية والوطنية التي شاركت بالإمكانات المتعددة ليظهر هذا المشروع إلى الوجود.

كما تتوجه بالشكر الجزيل إلى كل الوزارات وكل المؤسسات الوطنية التي أمدت المشروع من قريب أو بعيد، وعلى رأسها السيد الأمين العام للحزب رئيس الجمهورية الشاذلي بن جديد.

نسأل الله تعالى أن يتقبل من جميع المحسنين والمحسنات، وأن يجعل خطواتهم ذكرا لهم ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88-89].

كما نسأله تبارك وتعالى أن يوفقنا للعمل الصالح ويهدينا إلى ما يحبه ويرضاه.

نماذج من محاضراته التربوية والعلمية

دور المربي في الجزائر

حضرة السيد المدير، حضرات الإخوة الأساتذة والمعلمين المطبقين..

إذا كان الموضوع الذي قمت بإعداده وتحضيره ينحصر عنوانه في دور المربي في الجزائر حاضرا ومستقبلا... فإن هذا يعد من الخطورة بمكان لأنني سأجد نفسي أتحدث مع التربية وهي أمامي أنظر إليها، ولست أدري أكون واصفا كما هو موجود أم مجللا له....

كما أنني سأجد نفسي - في نهاية الحديث - وجها لوجه مع رجال التربية أناقش رغم أنني لست مختصا في هذا الميدان.

أيها السادة الأفاضل.... هناك عدة استطلاعات أكاديمية أو قاموسية لابد أن أشير إليها في البداية قبل أن أفي صميم الموضوع... في مقدمتها الفرق بين التربية والتعليم، والبيداغوجيا... أهي كلمات أم اصطلاحات وهل هي مرادفة لبعضها البعض أم كل واحدة لها عائلتها وفرعها الخاص بها؟

فكلمة التربية جاءت من لفظة ربا يربو أي زاد ونما... وقد تعني كما جاء في القاموس تنشأ وتتغذى وتثقف.

وقد تطلق الكلمة كذلك على الحيوانات فنقول تربية الدواجن والأبقار والأغنام إلخ...

لكن كلمة البيداغوجيا كما هو في اللغة الأجنبية تعني تربية الطفل فهي خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية الأخرى وهي خاصة بتربية الطفل في مرحلته الأولى.

أما كلمة التعليم فقد تعني غير هذا تماما.... وقد يقصد بها تربية التلميذ على بعض المهارات والنظريات والقوانين المتعارف عليها من قبل الفئة الدارسة والباحثة والمتعلمة.

أما من الناحية الإصلاحية فالتباين واضح من ناحية المدلول العام، فالبيداغوجيا أو التربية تنصب على الإنسان وتربيته من قبل الإنسان نفسه، عن طريق نظريات وضعية واتجاهات تربوية مأخوذة من المجتمعات كل حسب بيئته وعاداته وتقاليده.... وبمرور الزمن كذلك، فما كان صالحا اليوم قد يصبح غدا لا يُهتم به ولا يُعتد به...الخ، فعامل الزمن هو الذي يحدد المفاهيم ويضع القوانين المتجددة بين الحين والآخر.

فالمربي إذا أخضعناه لمعامل الزمن حسب هذا المفهوم فهو في تطور مستمر... فهو يرى دائما إذا كان يتطور دائما، وهو لا يتربى أبدا إذا كان لا يتطور أبدا....

والمقصود بكلمة التطوير هنا التأثير المباشر وغير المباشر في الغير... وكأن المربي أصبح مغناطيسا يجذب إليه الآخرين ويتركهم في مجاله المغناطيسي، فلما أرى هناك مغناطيس قوي يكون الانجذاب ويحدث التفاعل، وتبقى دورة الحياة في حركة نشيطة، أما إذا انعدم المغناطيس انعدمت الحركة وكان هناك جمود أو تجاذب للاتجاه الأقوى والأكثر تأثيرا... حيث إننا نعيش في الآونة الراهنة حسب المفاهيم الوضعية – المنحرفة طبعا- في إقطاعيات تربوية خاضعة لتأثيرات متعددة ومتباينة.

فهناك اتجاهات ذاتية أنانية مصدرها الفرد المنطوي على نفسه والذي قدم استقالته من المحيط الاجتماعي نتيجة ضعف تكيفه معه... فراح بطريقة أو أخرى ينتج سيلا من القوانين التربوية ويصدره إلى غيره خاصة الشعوب المغلوبة على أمرها باسم الحضارة والتقدم والتكنولوجيا.... والهدف من ذلك تشتيت المجتمعات وتركها في حيرة من أمرها وهدفها الأساسي الذي من أجله وجدت.

وقد نجد بعض ضعاف النفوس والذين فقدوا شخصيتهم نتيجة نشأتهم الأولى في بيئات لا يصلح بأية حال من الأحوال أن نطلق عليها بيئات تربوية يهللون ويستقبلون هذه النظريات بقلوب مؤمنة وبنفوس

مبتهجة لا لشيء وإنما ليجدوا لأنفسهم مكانة ومقعدا يتربعون به على الزعامة التربوية المستوردة....

فالحركة الصهيونية واضحة أعمالهم في هذا المجال حيث نصبت الحركة الماسونية أكبر مصنع عالمي يصنع النظريات التربوية ويصدرها إلى الخارج باسم التقدم والتحضر، وكل شخص لم يقتنع بهذه النظريات فهو بعيد كل البعد عما يسمى عندهم بحضارة القرن العشرين، وقد كان لذلك مقدماته وأسبابه وعوامله، حيث التربية الإسلامية كان لها السلطان القوي في نفوس الأفراد والأسر والجماعات، ولكن سرعان ما احتوى الغرب الشرق بطريقة جهنمية واضحة المعالم، لكل واحد هنا، ولا بأس بذكرها باختصار.

ولم تكن هذه الأمور تجري اعتباطا بدون أن يكون وراءها مخطط ومقامها متوفر عن يمين وشمال، المنفذ تلك القاعدة العريضة من أمتنا العربية المسلمة في مشارق الأرض ومغاربها تسير وفق هذا المخطط المحكم الذي رسمه التاريخ المعاصر كصفحة سوداء فوق الساحة الإسلامية.

أمام هذه الأفكار الشنيعة، وردا لهذا كله، ظهر جمال الدين الأفغاني كمرب إسلامي ليعيد السلطة المقطوعة بين الفرد وأخلاقه الإسلامية، وليجدد الحيوية والنشاط في هيكل الفرد المنتمي إلى الإسلام جغرافيا ومرتعا، ومستفيدا من كنوز أرض الله بترولا وغازا وحديدا وفسفاطا... ظهر جمال الدين الأفغاني بفكرة الجامعة الإسلامية التي يعد الإسلام مقومها الأساسي، والروحانيات الحبل المتين الذي يشد هذه الأقطار المترامية الأطراف بعضها إلى بعض... فهي على غرار الوحدة الأوربية الحالية مع فروق في التصور والمنهج، فالجامعة الإسلامية كما يريدها جمال الدين أساسها الأخلاق والتربية والمنهج الإسلامي، والوحدة الأوربية - كما أرادها ديقول - أساسها الاقتصاد الأوربي بتوفير الدجاج والبيض والبطاطس... إلى غير ذلك.

لكن الجامعة الإسلامية التي خطط لها جمال الدين الأفغاني لم يُكتب لها النجاح في ذلك الحين للأسباب التالية كما يقول التاريخ الحديث والمستحدث.

حيث ظهرت في ذلك الحين على مسرح الأحداث السياسية فكرة الجامعة الطورانية كبديل للجامعة الإسلامية، فقد ادعى أصحاب الفكرة الأتراك بأنهم أمة عريقة في التاريخ أشد عراقة من العرب، وتغلب المفهوم القومي الذي سيطر يوم ذاك على الفكر الأوربي الغربي، وقد انطبع في نفوس أصحاب الفكرة صهر جميع عناصر الدولة العثمانية في الجامعة الطورانية، أو تتريك العناصر ومنهم العرب. ومن ذلك بدأ الانقسام الذي هز الوحدة الإسلامية وأصابها بالتصدع والخلاف والخصومة، ووجد النفوذ الغربي في هذه الخصومة بغيته فعمل على توسيع شقة الخلاف وتعميق هوة الخصومة.

وظهرت فكرة يوم ذاك لعلها أشد خطرا مما سبق وهو أنه قد راج في أوساط أصحاب الفكرة الطورانية أن تأخر المسلمين وتخلفهم يعود أساسا إلى الدين الإسلامي، ولعل هذه النغمة لازلنا نسمعها حتى الساعة من قبل بعض المنحرفين أصلا وملة ومنهاجا.

وبدأ تيار الغرب يظهر في الساحة العربية على أن المنهج الغربي هو المنهج السليم الذي تبنى عليه الحضارة العربية من جديد، مع طرح كل ما من شأنه أن يمت بصلة إلى الإسلام وتجربة المجتمع الإسلامي.

وقد حمل لواء هذا الاتجاه الخطير في الهند أحمد خان وخلفاؤه، وحمل لواءه في تركيا (جول ألب)، ثم انتقل هذا التيار سريعا إلى العالم العربي عن طريق الإرساليات من أمثال جورجي زيدان وطه حسين ومحمود عزمي..

ولقد كانت نقطة التمزق الأولى بين القومية والدين وبين العروبة والإسلام، فقد التمس المفكرون الذين هم أكثر تطرفا ما التمسته أوروبا في العصر الحديث من إقامة جمعياتها على أساس وحدة الجنس واللغة، ورأى

أمثال (جول ألب) وغيره من الناظرين إلى ضرورة التماس مناهج الغرب أن الوحدة التي قامت على أساس الفكر الإسلامي قد ضعفت وأصابها الاضطراب، (وعندنا أن ضعفها كان نتيجة تخلف المسلمين عن مفاهيم فكرهم الأصيلة في هذه الفترة وليس لضعف في هذه المقومات ذاتها)، وأن على العالم الإسلامي أن يلتمس قوته في القومية والرابطة الجنسية واللغوية.

فظهر التيار الجارف للقوميات: القومية التركية، والهندية، والكردية، والعربية... الخ.

عند هذا الحد بلغت الفكرة الاستعمارية منتهاها حيث وضع الفكر الإسلامي في قفص الاتهام من قبل أهله وأصحابه، وأصبحوا شيعا وأحزابا من مؤيد للفكرة الإسلامية وهم أقلية، ومعارض لها بدعوى أنها غير صالحة للعصر وهم أكثرية في ذلك الحين....

وتسرب اليأس للكثير وأصبح الفرد المسلم العربي لا ينظر إلى الشرق أبدا وإن نظر إليه فمن باب التسلية والتهكم، وإنما نظر الجدية إلى الغرب في كل شيء: ثقافة وتعليما، ومسكنا وملبسا، ومنهاجا حياتيا وسلوكيا وأخلاقيا. نتج عن ذلك أن المربي في كل الساحة الإسلامية لا يهتم بالتربية الإسلامية على أنها المنهج السليم الثابت الدعائم المخطط من قبل خالق السماوات والأرض والمطبق من قبل معلم البشرية (محمد بن عبد الله)، بل المربي في ذلك الحين وحتى الساعة ينظر إلى أوروبا على أنها هي قبلة التربية والمناهج؛ فنرى التقليد الأعمى في كل شيء ملبسا وسلوكا وانحرافا في كل ما هو أصلي يمت بصلة إلى الإسلام... والتعصب القوي... وغرس هذه الاتجاهات في الناشئة الصغيرة... ولعل فكرة الجامعة الإسلامية التي نادى بها جمال الدين كان لها صداها في وسط الجماهير الشعبية المؤمنة في ذلك الحين، غير أن ذلك الصدى نراه يضعف تدريجيا حتى استبدل بفكرة الجامعة العربية التي أوجدتها بريطانيا لتحارب بها الفكرة السابقة المتمثلة في الجامعة الإسلامية. ونفس فكرة

الجامعة العربية في الآونة الراهنة لعل فاعليتها كهيئة قومية، اتخذت من القومية شعارها على غرار القوميات الأوربية، بدأت تضعف.

ذلك ما نقرؤه ونعيشه الآن على الصعيد الفكري والتربوي، نتج عنه التنكر لكل القيم الأساسية التي بنيت عليها التربية منذ أربعة عشر قرنا خلت. واستبدل ذلك بمقومات أوربية، فالمربي أصبح يطلق عليه كلمة الحديث، وأصبحت التربية نوعان قديمة وحديثة... فالقديمة معناها الأصلية، والحديثة معناها الأوربية في نظر المربين في الساحة الإسلامية العربية.

ففكرة الاختلاط عندهم تعد من الدعائم القوية لحضارة القرن العشرين، لأن في ذلك ذهاب لسلطة الرجل وانهزام لفكرة سلطان العقل وانتصار لفكرة العاطفة، وبذلك تزول الرجولة ويزول سلطان القوة الذي يعد إحدى الدعائم القوية إن لم يكن هو الأساس في نصرة الحق الذي جاء به الإسلام.

كما أن الفكر الماسوني لعب دورا قويا في تثبت فكرة القوة المطلقة للعلوم الحديثة، وأن الإنسان يملك خزانا قويا ونبعا لا ينضب، بالنسبة للطاقة العلمية الخلاقة التي تقهر الطبيعة وتذلل حتى البراكين والإعصار على حد زعمهم... وأن ذلك لا يتأتى للإنسان إلا إذا تخلص كلية من عبادة أي شيء، وراح بكل ما يملك من جوارح **يعبد** عقله.

وبذلك يقطعون الصلة بين الحياة والآخرة وبين الإنسان وتصوره للمستقبل الأخروي الذي ثبتت عليه كل التخطيطات، بالنسبة لما يقرب من نصف سكان المعمورة حاليا... وأن **القداسة** المطلقة تمنح للعقل الجبار الصانع المكتشف، وكأننا في عهد روما من جديد حيث العبادة المطلقة لأصحاب الأجساد القوية والذين يتمتعون ببنيات جسدية قوية... نفس الفكرة نعيشها الآن؛ فبدل عبادة الأجساد أصبح يعبد العقل، وهل المجهر هو الذي حول النظرة وغير الاتجاه؟ وفي حقيقة الأمر وواقع الحال أن

الأشياء باقية كما هي وكأنه لم يتبدل ولم يتغير شيء، فالكفر هو الكفر، وإنما كل ما في الأمر استبدال كلمة الكفر بالإلحاد لا غير...

كما أن الماسونية بفكرها المتغلغل على مستوى العالم تسعى إلى نبذ القديم وتعويضه بالجديد، حتى لو كان الجديد أسوأ حالا من القديم، غاية ما في الأمر أن الجديد جيد بدون استعمال العقل... وهذا ما نعيشه في واقعنا الحياتي.... فالرجل على سبيل المثال الذي كان بيده زمام الأمور عبر التاريخ يجب تعويضه بالمرأة وإعطاؤها مناصب الزعامة وترقيتها إلى درجة القاضية والوزيرة، وتعليق صورها في الشوارع لتخوض معارك الانتخابات بكل حرية وفوزها في ذلك عن استحقاق وجدارة... والأسرة والمجتمع تحت السلطة الأبوية قديم، فيجب تعويض ذلك بتشتيتها وإعطاء السلطة لأصغرهم سنا حتى يستطيع أن يواصل المسيرة المتجددة.

والمناهج التربوية القارة الثابتة أصبحت لا تصلح في الآونة الراهنة، فالتربية تتجدد بين الحين والآخر، وعلماء التربية في كل عام يطالعوننا بأشياء جديدة تستحق الإسراع في تنفيذ وتطبيق ما استجد واستحدث في الحين، وإلا فقاطرة الحضارة ستتركنا نجري حفاة الأقدام في ميدان كله أشواك، فالركوب شيء حتمي والتغير أمر جبري لا مناص من ذلك... وكل تفكير مغاير لذلك يعد جمودا وانحرافا عن جادة الصواب، وملبس الإنسان فيه مستحدثات ومخترعات في كل حين ولحظة، تحت الأضواء الكاشفة للخلاعة العالمية المتطايرة عبر الأثير والملتقطة من قبل الأجهزة الدقيقة المكتشفة من قبلهم.

فالتلفزيون لا يصدر إلينا كآلة وكفى وإنما يصدر إلينا مع برامجه المسمومة. وآلة السينما لا تشترى كآلة جامدة تنفخ فيها روحنا بما تنتجه من أفلام واقعية يراعى فيها أصالة المجتمع وثباته ثبات جبال بلادنا، وإنما نشتريها ومعها أفلامها الخاصة بها، وقد تكون بأثمان زهيدة حتى نقبل عليها لنخرب حضارتنا وفكرنا وروحنا الذي يمت بصلة قوية إلى الرسالات السماوية. والإبرة لا تصدر لنا كقطعة حديدية نخطط بها كما

نشاء، بل تصدر لنا ومعها المودة، ومعها الثوب الشفاف والكاشف للعورة لا الساتر لها. والورق لا يصدر إلينا كورق أبيض نخطط عليه أفكارنا ونسجل فوقه أمالنا ونهجنا الحياتي، كما أملته علينا أربعة عشر قرنا من تواجد الإسلام فوق أرض الله، وإنما يصدر إلينا وهو مكتوب لنقرأ الانتصارات الساحقة التي حققها العقل الأوربي الجبار في ميادين الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة، هذا الانتصار على من يا ترى؟

فكلمة الانتصار لا تطلق لغويا إلا إذا كان هناك خصمان اختصما وانتصر أحدهما على الآخر...

فالمنتصر هو الأوربي والمنهزم هو ما يسمى بالمسلم... لأن الصراع الحضاري بدأ والمسلم هو صاحب القوة والنفوذ، والأوربي هو النبتة الجديدة بالنسبة لدورة الحضارة حسب التعريف الخلدوني.

كل هذه العوامل الآنفة الذكر، وإن كنت قد ذكرتها باختصار شديد، لها أثرها الفعال وتأثيرها البليغ على المربي الحديث إن صح هذا النعت... ومن ذلك شاعت بعض المفاهيم الخاطئة لدينا حيث لا نفرق بين الجهل والأمية والتعليم والتربية.

فالجهل، حسب التعريف القاموسي لهذه الكلمة؛ يعني أن صاحبه يعرف أشياء عن خطأ، أما الأمي فهو الذي لا يعرف أي شيء. فالجاهل يتطلب من المعلم أو المربي أمران: أحدهما إشعاره بخطئه، وثانيها تزويده بالصواب، أما الأمي فهو الذي ينتظر الجديد بالنسبة لكل شيء.

أما التعليم فهو تزويد المتعلم ببعض المفاهيم أو النظريات التي تأكدنا من صحتها لنا...

فالعلم هو إدراك النسبة والجزم بوقوعها والتدليل عليها، أما إذا أدرك الإنسان النسبة والجزم بوقوعها ولم يملك الدليل عليها فهذا هو التقليد.

أما التربية فهي السلوك الثابت **القار** الذي لا يتبدل ولا يتغير بين لحظة وأخرى، فهي لا تفرق بين كلمتي التعليم والتربية، فهما عندنا

كلمتان مترادفتان، كذلك لا نفرق بين الأمية والجهل فهما كلمتان مترادفتان.

وشاع عندنا كذلك أن التربية تقام على أساس العلم المادي وأن هذا العلم يدخل في مجالات التربية فيطورها بين الحين والآخر، وأصبحنا نؤمن إيمانا جازما بالتربية المتطورة وأن تطورها يعود إلى العلم المادي الحديث، ونتشبث بذلك جازمين، ومؤشر الأخلاق في كل سنة ينحدر نحو الصفر لا لشيء وإنما لأننا تركنا الجانب التربوي الحق وأصبحنا نخلط بين التربية والتعليم... نتج عن ذلك أشياء عملية ملموسة نعيشها في واقعنا الحياتي.

كلنا يقول بأن السرقة عمل غير أخلاقي، وكلنا يرمي السارق بمجموعة من النعوت المشينة، لكن السارق المستحدث أو الحديث - حسب مفهوم التربية الحديثة أو المستحدثة - لا يسرق إلا والناس مجتمعون أمام محطات الركوب أو في الأسواق العامة، وكأنه بذلك يتحدى إرادة الجماعة بعد أن انتصر على الإرادة الفردية الخاصة، كما أننا - لعل معظمنا إن لم أقل كلنا - يُشهر بشارب الخمر ويرميه بأوصاف متعددة لا تليق به كإنسان، ولكن بائع الخمر يفتح حانته عند الشروق ويغلقها عند الغروب وكأن ما يقوم به عبارة عن حق من حقوقه الخاصة، لأن التربية الحديثة أو المستحدثة ترى ذلك: "أنت حر مالم تضر غيرك".

والزنا شيء شائع مباح حيث تتخذ له **بيوت** محمية بصفة رسمية، لأن التربية الحديثة تقول بأن فصل الرجل عن المرأة يوَلِّدُ الكبت والكبت ينتج عنه أمور لا يليق بنا ذكرها..

تلكم - أيها السادة - هي نتائج التربية الحديثة، وهذا هو المربي الحديث الذي أصبح عبارة عن جسد جميل يهرج نفسه بالوسائل المادية التربوية المستحدثة، فغدا عبارة عن جسد هامد بدون روح حتى أصبح يشتكي ويرفع صوته عاليا بأنه بدون كرامة وأن المجتمع لا يحترمه، فهو يلتمس من الشرطي ورجل الأمن أن يعيد إليه كرامته واعتباره السابق

بصفة مربيا، ومرة ثانية يرفع صوته بأن الطلبة وتلاميذ السنة الأولى الابتدائية لا يحترمونه لأن القوانين التربوية تمنع من الضرب حتى يحفظ لنفسه كرامته وقيمته.

هذا - أيها السادة الأجلاء - كله وصف لما هو كائن، ولعله كذلك سيكون، وإني لمعتقد أن البعض منكم يراني متطرفا فيما قلت وأن الواقع شيء وما يقال أو يكتب شيء آخر.... فإني أرى بأن ما قلته شيء حتمي أصبح يفرض نفسه علينا فرضا، ونحن جميعا نشعر بأننا في طريق الهاوية التربوية متجهون، ونتائج ذلك لا يعلمها إلا رب العزة رب العالمين.

وإني - أيها السادة – أرى، ولا شك أنكم كذلك معي ، بأن الحل لهذا المشكل التربوي العويص يكمن - أساسا وبالدرجة الأولى - في العودة إلى الأخلاق الإسلامية أو التربية الإسلامية، لأن في ذلك المنهج السليم والقاعدة الصحيحة والاتجاه الصحيح.

فالتربية الإسلامية عناصرها أربعة ولا يمكن لأي مربٍّ يؤدي دوره على أحسن ما يرام إلا إذا لبسها هو لباسا أبديا طيلة تواجده فوق أرض الحياة، يقتات خبزا ويشرب ماء. وعناصر التربية الإسلامية كما قلت سابقا أربعة: الإيمان، الإسلام، التقوى، الإحسان.

وهذه العناصر مرتبة ترتيبا فطريا، فلا يمكن لأي عنصر أن يسبق صاحبه، لأن كل واحد من هذه العناصر الأربعة ناتج عن صاحبه.

فالإيمان هو الأساس للحياة الإسلامية؛ وهو الإقرار بوحدانية الله والرسالات السماوية، فإذا ما أقرَّ بها المرء استوفى الشرط الشرعي للدخول في الإسلام، وأصبح من عداد المسلمين.

فالإيمان إقرار بالقلب؛ فنحن كمربين نخطئ دائما عندما نحكم حكما جازما بأن كل إنسان أقر بذلك صالح بأن يبني مجتمعا إسلاميا، فالتصورات الإيمانية نراها الآن متباينة ومتباعدة بين فرد وآخر.

وكلما جاوز الإقرار بالله صورته العادية وتناولته التفاصيل ظهر بمظاهر مختلفة لا تحصى؛ فطائفة من الناس ترى بأن الله تعالى له وجود وهو خالق هذا الكون ولا شريك له في ذاته، وطائفة أخرى ترى بأن الله هو إلهنا فعلينا بعبادته، وهناك مجموعة أخرى ترى بأن الله عالم الغيب والشهادة السميع البصير مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ولا شريك له في استحقاقه لجميع الصور الجزئية للعبودية، إلى غير ذلك من التصورات التي نعرفها جميعا.... والتي نصورها للتلاميذ في المدارس الابتدائية والمتربصين في المعاهد التكنولوجية، فلا شك أن هذه التصورات المتباينة والمختلفة لا يمكن أن نرسم بها منهجا ونظاما لحياة واحدة، فكلما كان التصور ضعيفا محدودا كانت الصبغة الإسلامية في الحياة العلمية والخلقية والتربوية أيضا محدودة.

حتى إننا نجد أولئك الذين بلغ عندهم الإيمان بالله أقصى غايته حسب التصورات الدينية الشائعة، يجمعون بين طاعة الله وبين الإذعان والتذلل للذين نصبوا أنفسهم جبابرة الحياة باسم التقية وقضاء الحاجات، فهم يجمعون بين عبادة الله وعبادة الكفر، فهم يجمعون بين الإسلام والكفر... فنتج عنهم مزيج مختلط ونموذج حياتي فريد من نوعه، لكن التربية الحديثة أو المستحدثة هي المسؤولة عن ذلك، وبذلك يتكون مزيج جديد يجدون فيه كل مبتغاهم... فهو مؤمن في المسجد وكافر في المتجر حيث يتعامل بالربا... ومؤمن في القسم وكافر في المقهى حيث يلعب الميسر والورق... ونجد كذلك مقياس رسوخ الإيمان بالله وبُعد غوره باختلاف الناس، فمنهم من لا يرضى ولو ببذل شيء حتى مما يعز عليه في سبيل الله مع إقراره وإيمانه به، ومنهم من لا يريد التضحية في سبيل الله بأفكاره وآرائه الخاصة حتى لا يفقد سمعته التي نالها بين الناس.

فالإيمان إحاطة شاملة بحياة الفرد والجماعة، وهو لا يعرف مكانا دون غيره ولا وقتا دون وقت آخر.

والركن الثاني من التربية الإسلامية هو الإسلام، فإذا تأصلت دعائم الإيمان واكتملت وأخذت في الأرض مكانتها اللائقة بها ظهر الإسلام كصورة عمل للإيمان؛ فعلاقة الإيمان بالإسلام كعلاقة البذر بالشجر....

وأصبحنا الآن نحن ندرس الإيمان للطلبة كباب مستقل بذاته فنقضي فيه الساعات ونحن نلقن لهم التعاريف الخاصة به، ونعزله كلية عن الإسلام، وعمله.... والحقيقة أنه لا يمكن معرفة الإيمان بدون أن تكون هناك نتائجه المتصلة في الإسلام.

والركن الثالث من التربية الإسلامية هو التقوى الذي يعد عبارة عن حال النفس التي تتكون وتتولد من خشية الله تعالى والشعور بالتبعة.... وأن يدرك المتلقي بأن الحياة الدنيا ما هي إلا مضمار لامتحان، حيث بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن، فليكن حذرا في كل ما يملك من وقت ومال وصحة ويستخدمها في مرضاة الله حسب التصور الواضح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ثم بعد ذلك يأتي الركن الرابع وهو الإحسان، حيث يعد أعلى طبقات الإسلام وأرفعها، فالإحسان هو تفاني المسلم في خدمة الإسلام، لا بناء نفسه وكفى، وإنما تمتد نظرته إلى أن المجتمع الإنساني الذي استولت عليه نظريات الجهالة المعاصرة وهو في حاجة إلى من يعيد له اعتباره الأصلي وواقعه الحقيقي، يندفع للعمل الجاد باذلا كل ما يملك مضحيا حتى بنفسه لأجل السعادة البشرية....

تلكم أيها السادة دعائم التربية الإسلامية إن استوفيناها وتفاعلنا معها كنا مسلمين حقا وصدقا، واستطعنا عمليا أن نؤدي واجبنا التربوي كمربين في دينه الرسمي الإسلام وبرامج تعليمه تشتمل على حصص خاصة بالتربية الإسلامية.

أهمية التعليم وضرورة القضاء على الأمية(1)

إخواني المناضلين..

إنها لفرصة سانحة لنلتقي هذه الليلة لنتحدث عن مشكلة من المشاكل التي تقف حجر عثرة في طريق التقدم الإنساني، وتكون العائق والحائل الحقيقي للبشرية جمعاء عن الرقي والتخلص من المضادات حتى يستطيع الإنسان الارتقاء إلى حياة أفضل ومكانة أشرف وأجل، هذه المشكلة هي الأمية.

والأمية ليست بالقدر المفروض على شعب دون آخر، ولا بالطبيعة الجبرية القاسية التي عرفت بها مناطق من العالم دون سواها، كما أنها لا تعرف الاستقرار والثبات بل حركتها دائبة وعملها متواصل ولا تميز بين الأعمار والأجناس والصفات، إنه مرض يصيب الجميع فيعرقل الجميع، وداء وباؤه خطير فحيثما حل بقرية آمنة هادئة مطمئنة حولها آثارا بالية ورسوما فانية. لذلك كان حذر الإنسان منها قديما وحديثا، حذره من العدو اللدود الذي يخالفه في اللسان والعقيدة والمعاش، فيعد له ما استطاع من قوة ويهيئ له ما تيسر لديه من زاد حتى يقضي عليه قبل أن يفكر في محاربته ويستعد للانقضاض عليه.

ولذلك نرى الديانات السماوية حذرت الإنسان من خطر الأمية ووجهته الوجهة الصحيحة السليمة، حتى يشق بنفسه وبمحض إرادته، الطريق الملائم له لمعاشه المستمر ولحياته الباقية، فتجد الرسول محمدا ﷺ منذ أربعة عشر قرنا خلت يعطي الإشارة الأولى للمجتمع العربي الإسلامي ليتشبث بالتعليم حتى يتخلص من الاستعباد والعبودية، والاستغلال والاستعباد لا يفهم منهما الطعام والشراب وإنما هناك ما هو أشد خطرا وأفدح أثرا وهو الاستعباد الفكري والاحتكار العلمي.

(1) محاضرة بمناسبة الاحتفال بيوم محو الأمية بمدينة باتنة، في 1977/01/08.

فضمان الرقي الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمع الإنساني مرهون بالتعليم ولا يتأتى للإنسان ذلك إلا إذا رجع إلى ذاتيته ودرسها درسة شاملة ليتفهم المنهاج الحقيقي الذي وجد من أجله وكانت له المكانة المرموقة عن سائر المخلوقات، فقال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9]، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]، والتكريم هنا عن طريق التعليم ورفع الأمية.

وها هو الرسول ﷺ يشترط على القرشيين المأسورين في غزوة بدر أن يعلموا أبناء الأنصار جزاء وثمن إطلاق سراحهم، فحتى في ظروف الحرب وأحلكها لم ينس الرسول ﷺ التعليم بل جعله الدعامة الأساسية وأن الحياة تمنح للأسرى عن طريقه، فالحديث عن التعليم وفضله أصبح من تحصيل الحاصل فكل واحد منا يعرف معرفة جيدة أن التعليم هو أساس الحياة، إن لم يكن في العصر الراهن هو الحياة، وبدون ذلك تنقلب الحياة ظلاما دامسا وعذابا أليما، فهذه حقيقة لا مراء فيها وبينة لا جدال ونقاش حولها.

إخواني..

إن موضوع الأمية قد أخذ حقه من الكلام، فلو تحول ذلك إلى الحياة العملية لقل ضرره واختفى جيشه وحذفنا لفظته من القاموس.

وسأحاول في هذا العرض المتواضع أن أعطي بسطة عن فائدة التعليم وتلاحم المجتمعات فيما بينها عن طريقه، **وفداحة** الأمية ومدى تشتت المجتمعات الأمية وسآمتها من الحياة وقلقها من الزمن وطول الحياة.

إخواني..

إذا كان العصر الحديث عرف بعصر الرقي الإنساني وازدهاره وتقدمه، فإن لفظتي الرقي والازدهار مقصورة على فئة قليلة دون سائر الفئات الأخرى الكثيرة، وإن الرقي لم يكن شاملا بل هو نسبي حيث احتكرته الجماعة المتعلمة وحرمت منه الجحافل الجاهلة.

فعصر الرقي لفئة معينة، وإن معنى الرقي لا نستطيع أن نتصوره وندرك **كنهه** إلا إذا شكلنا أنفسنا وأدخلنا عليها تعديلات حتى تتلاءم وهذا الرقي، لن يتأتى لنا ذلك إلا عن طريق التعليم والتخلص من الأمية.

وقد يتساءل البعض عن الأمية، ومن هو الأمي؟ وهل كل شخص لم ينل حظه من التعليم ولم تُتَحْ له الفرصة للجلوس على مقاعد الدراسة يعد أميا؟ فحوْل تعريفه اختلف المتخصصون في حقل دراسة الأمية ومشاكلها، فالبعض يقول إن الأمي هو كل من تعدى سن العاشرة وتوقف عن الدراسة ولم يصل إلى المستوى الوظيفي في القراءة والكتابة.

والبعض يرى بأنه الشخص الذي لا يعرف القراءة والكتابة مطلقا، والبعض يرى بأنه كل شخص لم يكمل أربع سنوات من التعليم، والبعض يزيد في ذلك فيرفعها إلى الست سنوات.

تحديد المقصود بالأمية:

الواقع أن التعليم صفة ينالها الأفراد ويكتسبونها بدرجات متفاوتة، من مستوى أعلى قليلا من لا شيء إلى مستوى لا حد له في الارتفاع، وبعض الأفراد أكثر أو أقل تعلما من الآخرين، فالواقع الاجتماعي تكونه فئتان: فئة متعلمة، وفئة أمية، ولا وجود لفئة ثالثة والتي تسمى عند البعض بأنصاف المتعلمين، فالمتعلم في حقيقة الأمر وواقعه صفة قائمة بذاتها مكتملة لا تعرف النصف أو الثلث أو الربع، وهنا يطرح سؤال: ما هو الحد الذي يفصل بين الأميين والمتعلمين؟

فإذا كانت الجماعات البشرية وجدت نفسها في حاجة إلى وضع رموز لتدل على آثار أعمالها وتفكيرها، هذه الرموز تسمى بالكتابة، فبلا شك أن المجتمعات التي توصلت إلى التفاهم عن طريق الكتابة في كل شؤون حياتها أحسن وأفضل من المجتمعات التي بقيت لديها الإشارة والصورة المحرك الرئيسي لنشاط حياتها، لذلك يعد كل فرد لديه القدرة على الكتابة متعلما وقد تخلص من عالم الأمية، ويبقى سؤال آخر: هل هذا

الشخص أصبح في مأمن على نفسه من الأمية أم لا؟ ذلك ما سنبينه بعد حين.

والقدرة على الاتصال عن طريق اللغة المكتوبة تتكون من عنصرين: الكتابة والقراءة، وكل من العنصرين ضروري للاتصال على المستوى المرضي، ومن ثم يمكن أن يعد الشخص الذي لديه أحد العنصرين دون الآخر شخصا أميا خاصة في عالمنا المعاصر.

فإذا ما وجدنا شخصا ما بإمكانه أن يكتب اسمه أو يعرف بعض الأرقام فقط، فهذا لا يزال في عالم الأمية لأنه لا يملك تعليما فعلا، ومن ذلك يرى البعض أن الحد الأدنى للخروج من الأمية ينبغي على الفرد أن يكون الفرد قادرا على قراءة وكتابة خمسة آلف كلمة على الأقل، هذا طبعا مع مراعاة نوعية اللغة التي ينتمي إليها الفرد باستثناء المجتمعات الهندية الصينية، هذا كحد أدنى. وإذا ما ارتقينا صعودا حتى نضع أيدينا على الشخص المتعلم حقيقة والذي ضمن لنفسه جزءا من الحياة التعليمية ولا يخشى عليه في يوم ما أن يرتد إلى الأمية تماما، إذا انسلخ من حقل المعرفة الحالية الفكرية منها والمادية؛ فهو كل شخص يستطيع أن يفهم قطعة أدبية رفيعة مع قراءتها قراءة جيدة.

ومن هنا نرى أن مفهوم التعليم مفهوم مرن جدا، وتعريفه يمكن أن يتوسع فيه حتى يشمل جميع المستويات من الحد الأدنى المطلق إلى الحد الأقصى، فالحد الأدنى يشمل قراءة فقرة بسيطة وفهمها وكتابة رسالة من وإلى صديق، ويتميز المتعلم عن غير المتعلم في سد الكثير من الحاجات العلمية للحياة اليومية كمعرفة الخطر الذي يهدده ومعرفة الطريق الذي يسلكه والوقوف على الأحداث الجارية والبقاء على اتصال بالأسرة.

وفي تحسين مستوى المعيشة عن طريق الحصول على معلومات قيمة مطبوعة تتصل بالصحة والظروف الصحية وبالإنتاج واختيار الطعام وإعداده ورعاية الأطفال والتدبير المنزلي.

وفي ترقية الوضع الاقتصادي عن طريق معرفة ما يتوافر من أعمال وملء الاستمارات وكتابة الطلبات والقدرة على اتباع التعليمات المكتوبة أو المطبوعة أثناء العمل بدون توفير المهنيين والمشرفين الفنيين في كل وقت، وفي اكتساب السمعة الاجتماعية والاشتراك في كثير من الأنشطة الفردية والجماعية التي تتطلب القراءة والكتابة.

مهما يكن هذا الاختلاف بين واضعي المصطلحات والتعاريف الخاصة بالأميين، فإن الأمي هو كل شخص لا يعرف القراءة والكتابة بمعنى الكلمة، حيث إن الكتابة هي التي يستطيع أن يعبر بها عما يختلج في فكره، والقراءة هي التي يفهم بواسطتها شؤون الحياة الخاص منها والعام، وهذه حتمية لابد منها فرضها العصر الراهن نظرا للتقدم العلمي والتكنولوجي، وتعقد الحياة وتشعبها بالنسبة للفرد الذي عزل نفسه عن محيط الثقافة وعن الحضارة الراهنة.

فإذا ما حاولنا أن نلقي نظرة على مدى انتشار الأمية عبر العالم بصفة عامة وفي الوطن العربي بصفة خاصة تطالعنا أرقام خيالية مخيفة تجعلنا لا نطمئن على مستقبلنا، وتبعث في نفوسنا شكوكا حول التقدم والارتقاء إلى حياة أفضل.

إفريقيا	78% من سكانها أميون
آسيا	61% من سكانها أميون
الدول العربية	83% من سكانها أميون
أمريكا الشمالية	17.5% من سكانها أميون
أوروبا	3.5% من سكانها أميون

فنلاحظ من خلال النسب المئوية أن الدول العربية نالت حصة الأسد من الأمية، ويعني هذا أن هذه الجحافل محرومة من وسائل الإعلام، وتبعا لذلك فهي محرومة من العلاج الصحيح والسليم، محرومة من الإشراف على الناشئة الصغيرة ومراقبتها والاهتمام بها، محرومة من المشاركة الفعلية في الإنتاج القومي والعمل في حقله بفعالية. ومن أجل ذلك سيكون

لزاما على المجتمعات العربية أن تبذل قصارى جهدها للقضاء على خطر الأمية وما ينجم عنها من أضرار. وإذا كنا جميعا نعرف أن الوطن العربي غني بثرواته المعدنية حيث يزخر بالخامات الأولية ويحتل مكانة مرموقة في الاقتصاد العالمي.

فهل رجعنا إلى أنفسنا وحاولنا أن نعرف وعن حسن نية وصدق عزيمة؟ هل هذه الجُمُوع الهائلة من البشر التي تسكن هذه الرقعة من العالم التي تسمى بالشعوب العربية هي الأخرى تكون رصيدا في حقل الإنتاج ويشكل نشاطها اقتصادا قائما بذاته إن فقدنا الثروة المعدنية؟ هل نحافظ على استمرارية الحياة ضمن ركب الحضارة الراهنة أم لا؟ قبل توضيح هذا الافتراض لابد من الإشارة إلى التخطيط الاجتماعي للمجتمعات الإنسانية التي شكلت نفسها قديما وحديثا وغدت قوة اقتصادية، أي نشاطها هو الذي تحول إلى القوة الاقتصادية، فإذا ما رجعنا إلى التاريخ نجد أن المجتمعات القديمة والحديثة أدركت وعن حقيقة أن الحياة ليست نعيما بطبعها ولا جحيما بطبعها، وإنما يحدث فيها ما يحدث ويتبدل فيها ما يتبدل نتيجة الالتحام المستمر بين الإنسان والطبيعة وبين الإنسان وصنوه الإنسان، وقد وجد الإنسان نفسه في تقدم مستمر ومعايشة حسنة تجاه الطبيعة كلما ازداد وعيا ونشاطا وكلما ازداد تعاونا مع أخيه الإنسان تعاونا عقليا – عاطفيا – فكريا.

فاكتسب لذلك حصيلة من الخبرات جعلته يتخذها القاعدة الأساسية لانطلاقه ووثوبه إلى مكتشفات أحدث وأرقى، حتى توصل الإنسان إلى تقنين القواعد وضبط جدول تنظيم المجتمعات البشرية لاستغلال جهدها والاستفادة منه خير استفادة. وإذا كان كل واحد منا يحمل معه جهدا وطاقة يريد استنفاذها طواعية أو كراهية، فإن هذه الجهود والطاقات لو استغلت خير استغلال لأصبحنا عالما آخر، وهذه ليست افتراضات ولا تخمينات أملتها لحظة فراغ، وإنما هي حقيقة ملموسة وحياة معاشة في قرننا العشرين، وإذا كانت سعادة كل واحد منا وهي مشتركة تتجلى في التخلص

من الفقر والمرض والاستغلال والمذلة وغيره من ضروب الآلام الإنسانية، فإن ذلك لا يتأتى بمحض الصدفة وبأيسر الطرق وأسهلها وإنما يمكن ذلك عن طريق التخطيط العلمي والعمل المنظم الذي أساسه العلم.

ومن هنا نرى أن كل واحد منا يتساءل مع نفسه: ما هو المجتمع الذي نعيش فيه؟ وكيف نستطيع أن نحقق هذا المجتمع الذي اخترناه؟ ما هي المراحل التي نمر بها لتحقيق ذلك؟ ما هي وسائله ومعداته؟ وكم من الوقت يلزم لبلوغ تلك الدرجة الاجتماعية التي تُؤْمَنُ بعدها الانتكاسة وتصبح الحياة صاعدة والإنسان فعالا؟ فإذا ما اختمرت كل هذه العينات في أذهاننا وحاولنا نفهمها فنحن قد تخلصنا من الأمية، وإن كان العكس فنحن لا زلنا نتخبط في مشاكل الأمية الفكرية.

وقد نقول إن هذا التخطيط الاجتماعي قد تجاوزناه في مجتمعنا الجزائري وأصبح كل شيء واضحا ونوعية المجتمع الذي اخترناه وتبنيناه واضحا، بقي لنا العمل المنظم الذي أساسه العلم، فإننا لا نستطيع أن نتلاءم مع هذا الأخير إلا إذا كنا كلنا جنودا لمحو آثار الأمية والتخلص منها نهائيا وللأبد.

وذلك لأن التخطيط الاجتماعي أساسه العلم وليس العلم كلمة مقدسة كما تبدو للبعض يذكرها الإنسان فيقف إجلالا واحتراما، ولا هي بالكلمة السحرية التي تذكر ذكرا بدون أن يُعرف لها سببٌ وبدون أن تختمر في أذهاننا فتعطي نتيجة ملموسة وحياة معاشة.

العلم هو الدقة في العمل واختصار الوقت، فإذا كان إنسان العصور المنصرمة تُقاسُ حياتُه بسنوات معدودات، فإن إنسان العصر الحديث، وأقصد به طبعا الذي تمكن من استغلال وقته وتوصل إلى ضبط عمله، تقاس حياته بمئات السنين، ولا داعي لشرح الفكرة لوضوحها. من ذلك يظهر أن الشخص الأمي من ناحية القراءة والكتابة، الأمي من ناحية الأفكار، فهو ميت يتحرك فوق الأرض وإن اعتقد بأنه رزق الحياة فوق ظهرها.

فحياة القرن العشرين تعقدت طرق معيشتها وتشعبت حيث غدت حياة المعرفة وحياة التقنيات وحياة الآلة، فالإنسان في خضم ذلك إذا لم يزود بأرقى المعلومات لا يستطيع معايشتها فضلا عن تزويده بأبسطها وأقلها، لذلك نجد المجتمعات ارتبط فردها ارتباطا عضويا بالتنمية الاقتصادية المبنية على التخطيط القائم على المناهج العلمية المنظمة الحديثة.

الأمية والتنمية الاقتصادية:

إذا كانت التنمية الاقتصادية تستند على عدة عناصر متشابكة: نمو القوة العاملة – تراكم رأس المال المادي – والإضافات في مخزون المعلومات والمهارات المتوفرة للمجتمع، وإذا كانت بعض الدول من العالم ازداد نمو اقتصادها سريعا بزيادة عدد سكانها، نرى على العكس من ذلك بعض الدول كلما ازداد عدد سكانها تضاءل نمو اقتصادها، لذلك فإن التضخم السكاني لا يكون سببا لازما وحتميا للنمو الاقتصادي، فالأمر يعود أساسا إلى الأساليب والأفكار الجديدة للإنتاج.

فتضخم المجتمعات من الناحية العددية إما يكون قوة هائلة تزيد في نمو اقتصادها الوطني وتجعله اقتصادا ينمو ويتطور بسرعة هائلة (قد تبدو للبعض غير حقيقية)، وضخامة قد تفوق تصورات البعض نظرا لما يتسم به ذلك المجتمع من مرونة في العمل وقدرة على التغير والتجدد مع الحياة العصرية التي يكتشفها ويتوصل إليها فيصبح مجتمعا يعايش الحياة ويتذوق جمالها وينعم بنعيمها.

بينما نرى المجتمعات الأخرى قد انقلبت إلى قوة هائلة في الاستهلاك واستنزاف اقتصادها ومخزون ثرواتها المعدنية التي استفادت منها حينا من الزمن، ثم وجدت نفسها بعد حين بدون ثروة باطنية تدر عليها بالخير والنعيم. فالقضية تعود أساسا إلى التعليم ومحو الأمية، فالمصانع قد تصبح هياكل قائمة في العراء إذا كان عمالها لا يتمتعون

بنسبة عالية من المهارة الفنية الصناعية التي تعطى للمصنع دفعا جديدا نحو التقنيات الحديثة المتماشية مع تطور فكر الإنسان وذوقه ونظرته الجديدة للحياة.

والمزرعة التي تتمتع بأرضية ومياه عذبة جارية قد تصبح صحراء قاحلة إذا لم يكن زراعها وعاملوها يتمتعون بتقنية فلاحية عصرية، ويدركون أهمية عملهم ومدى جدوى جهدهم المبذول وأن هذا الجهد سيصبح بعد حين لقمة سائغة في فم المواطن مهما كان نوعه ودرجة ثقافته ومستوى سنه.

من ذلك نرى أن النشاط الفردي المبني على الفكر المنظم له دخل كبير في الحياة المعاصرة، حيث ينمو نشاطه ويزداد ضخامة حتى يصبح قوة اقتصادية يعتمد عليها في كل مجالات الحياة وأنشطتها المختلفة، وقد نقول إن بعض المهارات والقدرات الفنية يمكن الحصول عليها بعد القيام بتجارب متعددة من قبل العمال فتتحول هذه التجارب في ما بعد إلى قاعدة أساسية لانطلاق المجتمع نحو الرقي الصناعي والزراعي، فهذا صحيح من الناحية الشكلية لكن كم من الوقت يستغرق مجتمع ما لتحقيق ذلك؟ ومن أين له بالأموال الكثيرة ليتفادى الإتلاف والتضييع نتيجة عدم المعرفة في بادئ الأمر؟ فالعملية من هذه الوجهة قد تعطي نتائج مشجعة في بعض الميادين وليس في كل الميادين ويكون ذلك على حساب الوقت والمادة.

كما أن المعلومات المتزاحمة والتي توصل إليها عقل الإنسان الخلاق تتركنا نفرض على أنفسنا إعادة النظر في شكل حياتنا وبنائها أساسا على التعلم حتى نستطيع حوصلة هذه المعلومات واتخاذها الدليل الحقيقي والمرشد الفعلي لكل أوجه حياتنا الصناعية، الثقافية، الزراعية. ومن هنا تتجلى مدى خطورة الأمية وأثرها على الاقتصاد الوطني الصناعي والزراعي وحتى الثقافي، فمن الناحية الصناعية والزراعية قد اتضح ذلك بعض الشيء وبقيت الناحية الثقافية.

فالأمية تقتل الثقافة ولا تشجعها، وتجعل المجتمع يميل ويركن إلى الأساليب المتعارف عليها قديما في أنشطة الحياة، فتصبح الطبقة المثقفة معزولة عن المحيط الاجتماعي أو منغمسة فيه، معزولة بثقافتها، منغمسة بترك تلك الثقافة واكتساب ثقافة شعبية تعود بجذورها إلى العصور البالية حتى تستطيع أن تعيش ذلك المجتمع وهي مجبرة على ذلك طواعية أو كراهية.

من أجل ذلك أدركت الثورة مدى خطورة الأمية فعملت كل ما في وسعها للقضاء على هذا الوباء الخطير، فأثناء الحرب التحريرية كانت هناك دروس تعطى بكيفية منظمة في المناطق المحررة وفي السجون وعلى الحدود وفي المحتشدات وفي الثكنات، ولم يمض عام على الاستقلال حتى شنت الدولة حملة واسعة للقضاء على الأمية، وتكونت لجنة وطنية مهمتها إعداد مخطط عام وشامل والإشراف على ذلك المخطط لتنفيذه.

كما تألفت لجنة أخرى مهمتها إعداد الكتب اللازمة، ثم صدر مرسوم سنة 1964 يقضي بإيجاد مركز خاص لمكافحة الأمية وهذا المركز هو المركز الوطني لمكافحة الأمية، وقد بذل هذا المركز كل ما في وسعه بتنسيق مع الجهات المعنية بالأمر فحاول أن يدفع أكبر عدد من الأميين للالتحاق بالمراكز التي أعدت لهم خصيصا، كما أنه قام بإعداد الإطارات وتكوينها تكوينا يتماشى وعقلية الكبار وذلك عن طريق عقد الندوات والملتقيات الجهوية والوطنية.

وجاء المخطط الرباعي فأعطى أهمية بالغة لهذه المشكلة حيث أوصى برفع الأمية عن مليون مواطن ومئة ألف عامل، وكان العدد المقرر بالنسبة لباتنة 55000 ألف من بين 422000 ألف حيث تمثل النسبة العالية للأمية في الولاية 73% حيث النسبة المقدرة للقضاء على الأمية من السكان في المخطط 13.03% فهذه النسبة ضئيلة نوعا ما.

وبقي أخيرا المركز القومي لمحو الأمية بمفرده في الميدان بالتعاون مع ممثليه في كل ولاية بالإضافة إلى اللجان المتكونة في كل مصنع ومزرعة للقيام بمحو الأمية الوظيفي.

وذلك أن محو الأمية فيه نوعان: محو الأمية الوظيفي، ومحو الأمية الجماهيري. فمع تطور العصر أصبح المواطن الذي يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ في الحساب غير كافية لفهم الحياة وجعْل المواطن يشارك بنشاطه في رفع مستوى معيشته وزيادة دخل وطنه، كما سبق أن أوضحت آنفا؛ فقد أقر المؤتمر العام الثالث عشر المنعقد بطهران سنة 1965 والذي شارك فيه وزراء التربية للدول الأعضاء في هيئة اليونسكو، حيث توصل المؤتمرون إلى وضع خطة جديدة لتعليم العمال حيث تُعطى دروسٌ للعمال لا في القراءة والكتابة وحدها وإنما تتعدى هذه الدروس لتشمل نواحي وظيفتهم من تدريبهم على مختلف الأنشطة التي ينتمون إليها.

كما يتم تكوينهم تكوينا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، والجزائر قد أخذت بذلك فأصبح تعليم محو الأمية عندنا على نوعين: محو الأمية الوظيفي، ومحو الأمية الجماهيري.

فقد ورد في التقرير السنوي للمركز الوطني لمحو الأمية حول عملية محو الأمية الوظيفي في عناوين رئيسية:

- محو الأمية في القطاع الصناعي.
- محو الأمية في القطاع الفلاحي.
- محو الأمية في القطاع الجماهيري.
- إعداد الوسائل التعليمية.
- التكوين وذلك عن طريق الملتقيات الوطنية.

فكان عدد المسجلين في القطاع الصناعي 18811 ألف يقوم بتعليمهم 416 منشطا يزاولون تعليمهم في 615 قسما.

وكان عدد المسجلين في القطاع الفلاحي 33934 يقوم بتعليمهم 1131 منشطا ويزاولون تعليمهم في 1328 قسما.

أما عن الوسائل التعليمية فإن المركز قد بذل كل ما في وسعه لتوفير الكتب المناسبة لذلك حتى يعطي للعملية حيويتها ونشاطها. وحتى يكون العمال في مستوى التطلعات، فقد قام بطبع مجموعة من الكتب حسب المستويات والتخصصات لكل شركة، كما أنه أعطى أهمية بالغة للمزارعين في التعاونيات الفلاحية وتعاونيات المرحلة الثالثة من الثورة الزراعية، فقد ألف كتابا في الحساب للمستوى الأول الخاص بمناطق الهضاب العليا، أما الكتب بالنسبة للمستويات الأخرى في القطاع الفلاحي والصناعي على الخصوص فهي متوفرة بأعداد كافية.

غير أن هناك عقبة تعترض المركز، والخاصة بمحو الأمية الجماهيري، والسبب في ذلك يعود إلى أن المواطنين لا يجمعهم معمل أو مزرعة حتى يمكن للمركز أن ينشط العملية.

كما أن المواطنين لا يعيرون أي اهتمام لعملية التعليم، وهذا راجع إلى عدم الوعي وعدم الاكتراث بالعملية في حد ذاتها، ولعل السبب في ذلك يتحمله بالدرجة الأولى المشرف على عملية التعليم والمقصود به (المعلم)، أو المنشط التابع لمراكز محو الأمية؛ ذلك أن هذا الأخير غالبا ما يلجأ إلى أساليب خاصة من شأنها تنفير المواطنين وهو لا يقصدها متعمدا وإنما جعل من نفسه وكأنه أمام تلامذته في القسم فيعاملهم في بعض الأحيان نفس المعاملة (وهذا طبعا لا أقصد به كل المعلمين)، فدور المعلم دور قيادي من ناحية تعليمهم وتوجيههم وتغيير المفاهيم الخاطئة العالقة بأذهانهم على مدى السنين الطويلة.

فلابد أن ينتهج أسلوبا خاصا في التعليم والتوجيه ولكي يكون في مستوى ذلك يجب أن يكون مثلا أعلى بالنسبة للمتعلمين حيث يكون مؤمنا بعمله متفانيا فيه وعلاقته تكون بالمتعلمين طيبة فيشجعهم على الخبرات الجديدة التي يعطيها إياهم ثم يوجههم إلى ربط هذه الخبرات الموجودة عندهم بما تعلموه سابقا، حتى ينمي فيهم الثقة بالنفس والاعتماد عليها في تحمل المسؤوليات. ولكن أن يعلم أن الكبار لهم خبرة وتجربة في الحياة؛

فما يمكن أن يكون جائزا مقبولا في المدارس ومع التلاميذ لا يجوز بأي حال من الأحوال مع الكبار.

فإذا كانت عملية محو الأمية تعطي ثمارها المرجوة فإن ذنب ذلك يتحمله المثقفون الذين مالوا إلى الراحة وأبوا أن يهيئوا لأنفسهم مجالا لتنمية معلوماتهم وإخراجها إلى حيز الوجود حتى تظهر تلك المعلومات واضحة على مجتمع أخذ بأسباب الرقي؛ حيث الكتب تنشر بالمئات إن لم أقل بالآلاف في السنة، والجرائد والمجلات توزع بالملايين في اليوم والأسبوع، والمسارح تعالج مشاكل المجتمع فتجد رواجا وازدحاما على أبوابها من قبل المواطنين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية.

وقد يقول القائل: إن المواطن في حد ذاته طرف في المشكلة، فهذا صحيح غير أن عذره كعذر أخيه المثقف.

ولا بأس لو اتخذت بعض الإجراءات الوقائية لضمان استمرارية عملية محو الأمية الجماهيري خاصة (وهذه ليست كعقوبات)، فيطلب مثلا من كل شخص يريد أن يتقدم لاجتياز امتحان شهادة السياقة أن يشتمل ملفه على شهادة تثبت أنه يزاول التعليم في مراكز محو الأمية. وكذلك بالنسبة للذين يريدون الانخراط في المنظمات الجماهيرية والحزب والاستفادة من السكن والانخراط في التعاونيات الفلاحية، وكذلك الشخص الذي يريد الاتجاه إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج، فكيف يسمح هذا لنفسه - مع ما هو عليه من الأمية في القراءة والكتابة - بالاتجاه إلى البلد الآمن المطمئن البلد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾ [العلق: 1-5]؟

وأخيرا، إخواني.. لا يسعني بعد هذا العرض، إلا أن أتعرض إلى ما ورد في الميثاق الوطني حول محو الأمية.

"إن القاعدة الأساسية للتغير الثقافي تتمثل في محو الأمية وتعميم التعليم، وإن محو الأمية التي هي من مخلفات الاستعمار يجب أن يتعزز

في السنوات القادمة ليشمل كل المواطنين بمن فيهم الرجال والنساء، وستوضع جميع مرافق الاستقبال في خدمة هذه العملية الكبرى بحيث يتمكن الشعب في مختلف الأحياء والمدارس وفي قرى الريف الصغيرة من ممارسة حقه في اكتساب المعرفة، ويجب أن لا تتم عملية محو الأمية ونشر التعليم القاعدي للكبار بطريقة فوضوية ارتجالية بل ينبغي أن تعتمد على كل الطاقات المتوفرة بعد تكوين العناصر اللازمة تكوينا سليما لتساهم بفعالية في تعليم الجماهير ووفقا لمناهج تربوية مدروسة بمضمون ملائم وبرامج مناسبة وهذه مهمة جديرة بالشباب".

فلنكن جميعا جنودا مخلصين ومؤمنين صادقين في عملنا للقضاء على هذا الوباء الخطير الذي يهددنا جميعا حتى نكون خير أمة أخرجت للناس، وحتى نكون في مستوى تطلعات ديننا وقرآننا، حيث يقول رب العزة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 105].

تكوين المتربص ثقافيا ومهنيا[1]

أيها السادة والسيدات..

سأتحدث عن موضوع تكوين المتربص ثقافيا ومهنيا، وإنني إذ أجد نفسي عاجزا إلى حد ما عن الإحاطة بكل جوانب الموضوع نظرا لتشعبه واتساعه، كما إنني أعالج فكرة نحن جميعا أصحابها، وأنتم بلا شك أكثر مني علما ودراية مما أقوله لكم، لذلك لا أتطرق إلى معالجة الموضوع من كل جوانبه، وإن فعلت ذلك فسأجد نفسي شارحا للطرق المختلفة التي تتبع من قبلنا داخل المعاهد والمستوحاة من التوجيهات العامة لمديرية التفتيش المختصة بذلك.

لذلك - أيها السادة - سأغض الطرف عن هذا الجانب وأكون هامشيا نوعا ما فمعذرة عن الهامشية التي فرضت نفسها فرضا، ووجدت نفسي وأنا أفكر في الموضوع أن الهامشية هي المنقذ.

أيها السادة..

في كل سنة تستقبل المعاهد التكنولوجية أفواجا جديدة من الطلبة ونوعيتهم معروفة، وهم أولئك الذين تخلصت منهم التكميليات والثانويات حيث أطلقت عليهم صفة الرسوب.

والمعهد التكنولوجي للتعليم الابتدائي يستقبل متربصين رسبوا في شهادة التعليم المتوسط، ولأول مرة في تاريخ إنشائه يستقبل هذه السنة متربصين في شهادة البكالوريا، فهو في هذه السنة من المحظوظين رغم أنه لا يزال أخا وصديقا لمصدر الرسوب.

فالرسوب هو الذي يتولى التعليم، أي التعامل مع خمسة عشر مليار خلية عصبية مع الإنسان الجديد الذي يستقبل الحياة جديدة في نظره، يستقبلها بقيادة فاشلة في نظر المجتمع، فلا شك أن التخطيط سيكون فاشلا

(1) محاضرة في افتتاح السنة الدراسية 1976-1977، بالمعهد التكنولوجي لتكوين الأساتذة والمعلمين العربي التبسي بباتنة..

والنتيجة مضمحلة، وأما أولئك الذين نجحوا في نظر المجتمع فسيتعاملون مع الأبقار والأغنام كمهندسين فلاحين، ومع النجارة والحديد والإسمنت كمهندسين معماريين، ومع المجرمين كقضاة ومحامين، والقائمة طويلة وعريضة، والسؤال الذي يفرض نفسه: متى يوضع حدٌّ لهاته المأساة بعد ستة عشر سنة من الاستقلال؟

وحتى الراسبين في التعليم يُقبَلون في المعاهد وهم في حالة نفسية وعصبية منهارة، بدعوى أنهم لم يتحصلوا على مبتغاهم، وكأن التعليم في نظرهم دون المستوى، وعقولهم خلقت لغير ذلك فإذا بالقدر يشاء لهم ذلك.

والتعليم أيها السادة هو القاعدة الأساسية لكل حركة تحدث داخل المجتمع مهما كان نوع هذه الحركة، فكل مجتمع أراد تنمية اقتصاده تنمية سريعة يعتمد بالدرجة الأولى على تنمية مهارات الأيدي العاملة وعلى سرعة تطبيق الأساليب والطرائق الجديدة في الصناعة والزراعة.

وإذا كانت التنمية الاقتصادية تعتمد على عدة عناصر متشابكة هي: نمو القوة العاملة، تراكم رأس المال المادي، الإفاضات في مخزون المعلومات والمهارات المتوفرة للمجتمع.

فالأفكار الجديدة والأساليب الحديثة للإنتاج في رأس المال الفعلي هي التي تقرر النسبة التي يتقدم بها الاقتصاد بجملته، ومن أين نحصل على هذه المهارات والأفكار إن لم يكن المعلم في المستوى المطلوب من ناحية الكفاءة والمهارة؟ قد نقول إن هذا خاص بالجامعات والمعاهد العالية ونحن في مستوى المدرسة الابتدائية حيث التلميذ لا يزال ابن السابعة ماله وهذا كله، والحقيقة لكي يكون الطالب الجامعي مقبولا يجب أن يكون في الثانوية قريبا من الجيد، وحتى يكون الثانوي قريبا من الجيد يجب أن يكون في المدرسة الابتدائية جيدا لأن المعارف الحديثة أخذت في الاتساع عموديا وأفقيا.

فالعلم الحديث في كل لحظة يطالعنا بجديد، ونحن بين الجديد والقديم راكضون، فلا نحن من أهل القديم ولا نحن من أهل الجديد، والسبب بطبيعة الحال هذا المعلم الذي يتولى إدارة عملية التعليم ويشرف عليها.

إن مهمة المعلم في الآونة الراهنة قد تغيرت تغيرا جذريا، حيث أصبح المعلم لا يقتصر دوره على جمع المعلومات من هنا وهناك وتقديمها إلى تلامذته، بل أصبح هو نفسه يشارك وبصورة فعلية في اكتشاف هذه المعلومات.

ففي الماضي كان المهم أن يتقن التلميذ قواعد اللغة فقط فاتضح أن معرفة قواعد هذه اللغة غير كاف، فلا بد للمعلم أن يعرف كيف تبدو هذه اللغة لطفل في السابعة يأتي من بيئة غير بيئة المعلم، وهذا كله تسهيل لعملية اكتساب المعرفة في ظرف زمني قصير وبطريقة سهلة وصحيحة معتمدة على النظريات التربوية الحديثة التي شَرَّحَت الطفل من كل جوانبه وعرفت كل ما يهواه وكل ما يمقته، حتى قيل عن عملية تعليم القراءة أنها لا تختلف لدى معظم الأطفال عن العملية التي يقوم بها عالم كبير لاكتشاف حلقات سلسلة الحياة، فالطفل معلم يرشده وللعالم مناقشاته مع زملائه وقوة آرائه وهو يقوم بتجارب وتحليل نتائجها، وكلاهما مستقل ذاتيا وكلاهما يقفز إلى المجهول.

أيها السادة والسيدات..

إن عملية التكوين الثقافي والمهني تعتمد أساسا وبالدرجة الأولى على اللغة، وإذا كان من المتعارف عليه أن علم أي لغة يحقق أهدافا أربعة:

1- فهم لغة الكلام.
2- فهم لغة الكتاب.
3- الاستخدام الحي للغة الكلام.
4- الاستخدام الحي للغة الكتاب.

فلغة المتربص ننظر إليها على أنها الرصيد الأوحد الذي نهتم به ونحاول قدر الاستطاعة تهذيبها ونتركها لغة ديناميكية حية تخدم الواقع المعاش وتتماشى معه في كل مجالاته المختلفة، لأن الوسيلة الرئيسية المستعملة في المدرسة هي اللغة المرنة من قبل المعلم.

والحقيقة أن المتربصين الوافدين على المعاهد معظمهم عاطلين من الجانب اللغوي كثيرا، حيث يمتلكون التعبيرات اللغوية المحفوظة التي تجعلهم يبحثون في كثير من الأحيان عن هذه التعبيرات أكثر من بحثهم عن الحقيقة الفكرية المعبر عنها بلغة مرنة سهلة لا علاقة لها بواقع التلميذ وبيئته داخل أسرته، فالتركيز يكون على هذا الجانب لا من قبل أستاذ اللغة فحسب بل يجب أن ينظر إليه من قبل كل الأساتذة، ونُشعر جميعا المتربص بأن الكلمات قبل كل شيء ليست بأشياء بل هي ذات دلالة على الأشياء فكثيرا ما نتعلم فكرة معينة من قبل أحد فلا نتذكر الكلمات التي قيلت بها هذه الفكرة بينما الفكرة لا ننساها.

إن اللغة امتداد لحواسنا أو هي حاسية من الحواس التي نحيى ونعيش بها، وإن اللغة ذات ندركها كما ندرك ذاتنا ونتصورها عضوا من أعضاء جسدنا، غير أننا في كثير من الأحيان لا نخرج عن هذه الذات اللغوية ونتجاوزها إلى ما سواها فلا نجد أنفسنا إلا وهي معنا بإزائنا قربا أو بعدا.

فبلغة الكلام لحظة خاصة من لحظات العمل، من هذا المنطلق يجب أن نشعر غيرنا بأن الخطأ في الكلام معناه الخطأ في العمل، ومهما بدت هذه الفكرة للبعض غير سليمة فهي تفرض نفسها كلما أوغلنا في التفكير حولها.

فاللغة هي الشخصية الحقيقية المهيمنة على صاحبها؛ فكلما امتلك لغة مرنة سهلة تقوده دوما إلى اكتشاف المجاهيل ويحط بها دوما في حدائق الورود يتنفس من غيض ويترفع عن حزن، كلما ازداد دنوا نحو

العُلا وتشبثا بالقيم لأنه يعيش عالما تم شعوره لا بشيء وإنما بالذات اللغوية.

اللغة هي الكلام، والكلام لم يكن في يوم من الأيام نسيما يجري لطيفا على سطح الأشياء فيمسها مسًّا خفيفا كما يقال دون أن ينالها تغييره.

إننا في أقسامنا مع المتربصين نريد في بعض الأحيان أن نعلمهم لغة النسيم أو ما يعبر عنه بلغة الشعر، وأحيانا (نعلمهم بلغة مهلهة أقرب منها إلى السوق من سواه)، فهذا اتجاه خاطئ في نظري من أساسه لأن المتربص سيواجه مجهولا لا يتمثل الطفل الصغير الذي يستقبله بعد أشهر قلائل، ولا يمكن اكتشاف مجهول بلغة الشعر أو لغة السوق، فهو في حاجة إلى اللغة المطواعة المرنة التي تتركه يثب كلما أراد.

إن اللغة التي نزود بها المتربص يجب أن تكون كلمات كالمسدسات عامرة بقذائفها، فإذا تكلم فإنه يصوب قذائفه في أمكنة الصمت شريطة أن يكون عارفا للهدف لا أن ينطق نطق الطفل الصغير بدون غرض أو هدف وإنما الغرض والهدف الاستمتاع بالأصوات.

وقد جرت العادة أن نتصل بالمتربصين بتلك الطرق التقليدية المتعارف عليها التي ينال فيها الأستاذ حصة الأسد من الكلام، كأن يكون الأستاذ محطة إرسال والمتربصون محطة استقبال، فهذا شيء جميل إلى حد ما لو كانت المدة الزمنية طويلة والمتربص في حاجة إلى معلومات جديدة بالنسبة إليه، غير أن هذا قد يخرج عن مجال عملنا ويتركنا نعاكس الطريقة التي من أجلها وجدت هذه المعاهد.

فالاتصال يكون عن طريق التفويج حيث ينظر إلى القسم في بداية الأمر كوحدة كلية متكاملة يُلقى عليها سؤال حول موضوع الدرس حتى يستطيع الموجه (وليس الأستاذ) أن يطلع على المعلومات الموجودة لدى المتربصين حول الموضوع.

وعلى ضوء ذلك يقوم بتقسيم الموضوع إلى عناصر محددة وثابتة حسب تصور المتربصين لذلك، ثم يقوم بتجميعها وهنا يكون قد توصل

إلى معرفة الخطوط العريضة للموضوع، ثم يقوم مرة أخرى بتوزيع الأفكار المراد دراستها على زمر من المتربصين بعد أن قام بإعدادها مسبقا مكتوبة في أوراق مدعمة ببعض المراجع الضرورية لها. يعطى فرصة من الوقت للمتربص للبحث والتأمل ثم بعد ذلك تقوم كل مجموعة بقراءة ما توصلت إليه عن طريق مقرر خاص لها، تجمع هذه المعلومات للمرة الأخيرة ثم تحلل وتناقش من قبل الجميع وأخيرا إعداد ملخص عام من قبل المقرر ثم يُطبع هذا الملخص ويوزع على كل المتربصين كوثيقة يرجع إليها أثناء المراجعة.

غير أن هذه الطريقة تستلزم من الأستاذ أن يقوم بتحضير الدرس مسبقا ومعرفة كل المراجع الخاصة به وإحضارها أو تلخيص الأفكار الخاصة بالدرس.

والأستاذ في هذه الحالة يكون موجها بالدرجة الأولى ولا يفرض أفكاره فرضا، بل يهيئ جوا ملائما للنقاش والحوار ولا ينصب نفسه كالآمر والناهي، مع التقليل قدر الاستطاعة من أساليب الأمر والنهي، ويهتم بكل ما يصدر من قبل المتربص ويضعه في المكانة التي يشعر بأن كلامه على جانب كبير من الأهمية، ولا تقتصر هذه الطريقة على الدروس الثقافية بل تشمل حتى الدروس المهنية والتي تمس المتربص عن قرب أو بعد.

أيها السادة والسيدات..

هذا قليل من كثير حول عملية التكوين داخل القسم، وهناك التكوين المستمر الذي يعد هو الهدف المرتقب من قبلنا جميعا.

فإذا ما استطعنا أن نترك المتربص يبتعد عن صفة الخمول حيث نتركه يفكر تفكيرا حراً، حيث ظهرت في الآونة الراهنة بعض الوسائل والأدوات تبدو وكأنها حتمية بالنسبة للتفكير كالكتاب، والوسائل المصنوعة كالتلفزيون والمذياع والأسطوانة، والمخابر اللغوية والصناعية، فإذا كنا لا نستطيع أن نوفر هذه الوسائل في المعاهد فهل نبقى

دائما نلقي اللوم على نقص الوسائل ونترك الجهد الموكول إلينا فنعطي لأنفسنا الراحة ونطلق لها العنان لتتفنن في التكاسل حتى نصبح كتلة جامدة وجهدا متحجرا في كل حين لا يعطي أية نتيجة مرجوة منه مطلقا، وهذا الضرر بطبيعة الحال لا يتوقف عند صاحبه بل يتعداه إلى غيره من الأجيال الآتية والتي عليها المعول في حل كل المشاكل التي تعوق نمونا الاقتصادي والاجتماعي، وتترك الفرد لا يتصور المشكل فضلا عن معايشته ومحاولته حله.

إن التفكير الحر هو أساس كل ثقافة مهما كان نوعها، وهو الأداة الخلاقة التي تدفع بصاحبها إلى التغيير، حيث تتبلور المشاكل في بداية الأمر بالنسبة لصاحبها، وتبدو وكأنها مرض عضال استفحل ولا يرجى له الشفاء، غير أنه سرعان ما ينطلق صاحبه ينسج الخيوط ويبني اللبنات الأساسية فتبدو في نهاية المطاف المشاكل وكأنها مصادر للتلذذ ومحطات في غاية الروعة والجمال للاستجمام.

إن التفكير الحر هو الذي يدفع بصاحبه ويجعله يجد أعظم لذة في استعمال كعكة استعمالا جادا، واللذة تأتي من الثقافة، ولا أقصد بالثقافة تلك التي اهتم بها الأنثروبولوجي، وإنما أقصد بها عقلية أو نفسية في الإنسان حيث الأفكار الفلسفية والتاريخية والعلمية والفنية وأفكار المجتمع نفسه هي الحياة تستقبل بحماسة وسرور من قبل المتربص، حيث العيون والآذان مرهفة مستجيبة بوعي يعرف الإنسان أنه يتفاعل معها، لما تستحقه ولن يتصور يوما بأنه يتفاعل معها تفاعل الفنان والشاعر والعالم بل يتفاعل معها لأنه أهل لذلك فتحصل له حالة من اللذة والاستقرار النفسي.

نفس الشيء بالنسبة للمتربص إذا ما استطعنا أن نقوده إلى ذلك أمكننا أن نجعل منه إنسانا مغتبطا متفاعلا مع تلاميذه الذين يقرؤون قراءة جيدة ويحسبون حسابا صحيحا ويرسمون رسومات رائعة، يشعر وكأن إرادته قد ساقته إلى النجاح، فيجد المتعة واللذة في ذلك ولن يجدها في

غيرها، فيبتعد كلية بفكره عن سلطان المادة وإرادة الحياة اللتين سيطرتا على عالمنا المعاصر سيطرة كلية، كما أنه أمكننا أن نصنع منه إنسانا يجد المتعة والراحة في نقاش مثمر مع تلامذته وزملائه، ذلك النقاش الذي يخلف وراءه ظلا ثابتا وبصمات حية ورسومات يستشف منها منهجه الحياتي المتجدد نحو الأحسن واستطعنا أن نخلق منه إنسانا يشعر بجزء من الفراغ قد امتلأ بما يسمى بالثقافة.

ونجد المتربص في المعاهد يشكو من كثرة المواد المتراكمة والتي لا يُجدي بعضها حسب تفكيره.

كما أننا نجد بعض الأساتذة يبذلون كل ما في وسعهم للبرهنة لطلابهم على أن مادته أحسن مادة في عصرنا الراهن، فهي تستوجب منهم العناية وأن يعطى لها أكبر الوقت ويُبذل لأجلها أعظم مجهود (كمادة الرياضيات مثلا).

وكأن الأستاذ يريد أن يخلق منهم أناسا متخصصين وعلماء أجلاء مكتشفين، غير أن جواب الطلبة سرعان ما يخيب آمال الأستاذ.

إننا في مدارسنا لا نقوم بتعليم الرياضيات الحديثة مثلا وعلم العروض فماذا نصنع بمواد لا صلة لها بمهنتنا ووظيفتنا التي نحن بصدد القيام بها.

ونسينا بأن الثقافة وحدة متكاملة، ويمكن الوصول إلى هذه الوحدة من طرق عدة، فالأدب والتاريخ والعلوم والرياضيات والقصص والرحلات كلها طرق موصلة إلى الثقافة التي تجعل صاحبها يستعمل فكره استعمالا حرا ويتفاعل كلية مع تلامذته في قسمه، فيذوب في وسطهم ويجني في حالة الذوبان المتعة والسرور.

وقد نخطئ كثيرا إذا ما أوعزنا إلى المتربصين بأنهم موظفون مختصون في التعليم، فكلمة الاختصاص قد لا تعطى في كثير من الأحيان للكثير منا فضلا عن طلابنا، إن المختص هو الذي يعرف أكثر فأكثر عن مسائل أقل فأقل، فهل باستطاعتنا أن نتحصل على معلم مختص في فن

التعليم في ظرف شهور بوسائل مادية وبشرية كثيرا ما توصف من قبلنا بأنها ناقصة ومتدنية؟

وإذا ما أردنا أن نصنع الجميل بدافع حب الجمال أو بدافع الضمير أو خوفا من الله، حسب اعتقاد كل واحد منا، فعلينا أن نفتح الباب على مصراعيه للمتربص ليتثقف باستمرار أو ليفكر تفكيرا حرا ليتذوق جمال الأشياء وتصبح لذة الحياة تتجلى في الثقافة أو التفكير وليس في المال والجاه.

فعلينا أن نشعرهم في البداية أن الحياة لا تكافئ على الثقافة العامة بل المكافأة يحصل عليها من نفسه أو من خالقه فحسب المعتقد (كمن يلقح نفسه بنفسه)، وهذا ليس بغريب لأن الطبيعة معلمنا الأول كما قيل وهي لا تكافؤ من قبل مخلوق بل تكافئ نفسها بنفسها، فالثقافة العامة تعطي لصاحبها الراحة والاستقرار وهذه أعظم مكافئة ينالها الإنسان.

ولنتخذ من عنصر الاستعداد مفتاح الثقافة المستمرة والتكوين المستمر، ويجب أن لا نفهم كلمة الاستعداد فهما سطحيا، فالاستعداد معناه الرغبة القوية الجادة التي تنبثق من النفس فجأة نحو بعض التجارب الفكرية وتدفع بالإنسان إلى إهمال كل ما عداه والرغبة حينئذ تكون رغبة التعليم والتعلم.

حيث يكون الإنسان متشائما وفجأة يجد نفسه قد عرف شيئا مجهولا قبل أستاذه الذي يشرح الدرس، ففي هذه الحالة يجد المتربص نفسه في حالة النشوة والفرحة التي لا توصف، فهذه التطلعات المفاجئة ليست سوى منبهات تخبر صاحبها بأنه إذا غدا معرضا لتحصيل العلم فإن جميع القوى تصبح متيقظة فيه.

غير أن السؤال الذي يفرض نفسه: هل بإمكاننا خلق الرغبات أم هي خاصة بكل إنسان ولا أحد يستطيع أن يخلقها في غيره؟ وإن حدث ذلك فهو من باب التطفل في علم الأخلاق أو الدكتاتورية في علم السياسة.

والتثقيف الذاتي أو التكوين المستمر غالبا ما يستقبل من قبل المتربصين بالسخرية والازدراء، بدعوى أن قطار التعليم قد فاتهم وأشعة المعرفة قد احتجبت عنهم ولم يبق لهم إلا اجترار ما توصلوا إليه واقتنصوه في أزهى سن تعلمهم، أما ما يقال اليوم عن التكوين المستمر فقد يبدو أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة في نظرهم، متأثرين بالمقولة الشعبية المشهورة (التعليم في الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم في الكبر كالنقش على البحر)، فكلما تقدم الإنسان في السن كلما جفت شرايين ثقافته وتوقفت محطات بعثه وتجديده.

وإذا كان علماء النفس قد اقتنعوا بأن قدرتنا على اكتساب العلم تبلغ مداها في السابعة عشرة أو قبل ذلك وأن معظمها يتم قبل الثالثة عشرة، يفهم من هذا أن الإنسان يكون في السابعة عشرة قد نضج نضجا تاما وهذا أمر بإمكاننا أن ندركه بدون مساعدة، أحد، فكل عمل عقلي يستطيع أن يقوم به الإنسان في الأربعين بإمكانه أن يحققه في السابعة عشرة، أي أن هذا السن المحدد لإدراك المعلومات يعد كمحطات ومصادر للمعلومات، ويبقى ما تبقى لتمديد هذه المعلومات وتجميعها وإخراجها إلى حيز الوجود كأشياء حقيقية يراها صاحبها أو طرق عملية يعيش بها في بقية حياته.

وإذا كان المتربص الذي تستقبله المعاهد التكنولوجية بين سن السابعة عشرة والأربعين قد تبلورت لديه معلومات كثيرا ما توصف من قبلنا أو يقال عنها بأنها ضحلة، فهذا اعتقادنا الخاص غير أن الحقيقة هي أن هؤلاء المتربصين قد تحصلوا على معلومات قد اختزنت في عالم اللاشعور أو الذاكرة البعيدة، فما علينا إلا أن نساعدهم على استرجاع هذا الزاد المختزن ونشعرهم بأن لديهم إمكانيات وطاقة هائلة مخزونة، والذي ينقصهم هو استعمال هذا الزاد.

إن كل ما تعلمه الإنسان في السابق عبارة عن طاقة كامنة تزداد بزيادة القراءة المستمرة أو التثقيف المستمر، فنرى ذلك يزداد إذا تركناه يعمل في حرية وجو ملائم، فالحرية التي تمنح للمتربص خير زاد وأفضل

غذاء له، تزيد في نموه الثقافي وطاقته العلمية الكامنة أحسن من أن نشحنه بآلاف المجلدات من المعلومات في ظروف قد تبدو بالنسبة إليه قاسية وعويصة.

فهم في مرحلة يشعرون جسديا بنمو جسمهم نحو القوة والتزايد في ذلك، فضلا عن الرصيد العلمي الذي تحصلوا عليه، قد يتراءى كل ذلك بالنسبة إليهم على أنهم أهل للسيادة البدنية والعقلية.

فما يقال عن الغذاء إن توفر في ظروف حسنة للأبدان نمت وترعرعت وأتت بنتائجها على أحسن ما يرام، كذلك بالنسبة للمدارك العقلية فهي في هذه المرحلة بالذات قد انفتحت واتسعت وهي تنتظر من يشحنها بطريقة ذكية يراعي فيها كل الاعتبارات السابقة، ومهما صنعنا تجاههم فلن نستطيع أن نلبي مطالب مداركهم العقلية والعاطفية، وخير طريق نتوخاها تجاههم هي أن نفسح المجال للتكوين المستمر وللتثقيف اللامتناهي إذا توفرت شروط قد تكون هي المقصودة بالذات، وقد يُزاد عليها، ولا أظن أنها تستحق النقصان والحذف.

1- العمل في جو كله حرية مطلقة، وإشعارهم بأنهم جزء من تلك الدائرة ومن تلك الحقيقة التي يطلق عليها دائرة وحلقة التكوين، سواء داخل المعاهد وهم طلبة أو خارجها وهم معلمون.

2- أن ندفع بهم إلى أن يعتمدوا على أنفسهم بالدرجة الأولى، ولن يتأتى ذلك إلا إذا كانت إرادتهم وعزيمتهم أقوى مما نتصور ويتصورون.

3- أن نشعرهم بأهمية الأزمنة الثلاثة (الماضي – الحاضر – المستقبل)، مع ربط هذه الأزمنة الثلاثة بالواقع الثقافي أو بعملية التكوين المستمر، حيث يعرفون أن ما عرف في الماضي عبارة عن أحلام يراها صاحبها في عالم واقع النهار لا عالم الليل، وأن تلك المعلومات المتراكمة التي تنسب إلى الماضي من ناحية معرفتها ما هي إلا أحلام تتحقق تحت معرفتنا، وأن الحاضر ما هو إلا تلك اللحظة التي تفصل بين الماضي والمستقبل؛ تفصل بين الماضي من ناحية الإدراك والمعرفة، وإن لم يكن

هناك لا إدراك ولا معرفة فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل بالنسبة للمتربص، حيث يصبح إنسانا مفرغا من الزمن أي مفرغا من الحياة، والصراع الحياتي قد تخلى عنه بتركه يعيش تحت حكم النسيان لحين استيقاظه، وأن الحاضر تتجلى فيه الحالات الثلاثة: حالة التذكر، وحالة المعرفة، وحالة الوثوب أو التخطيط، وأن هذا الحاضر سرعان ما ينقلب إلى ماض، فلنعطه كل ما يستحق من عناية ولا نرجئ مشاكلنا وأزماتنا وحتى أحلى لحظات سرورنا وفرحنا إلى الغد.

وهكذا تدريجيا حتى تصبح الأزمنة الثلاثة تاريخا حالما، وليس التاريخ حقائق لوقائع الوجود، وإنما هو معرفتنا نحن لتلك الحقائق ومعايشتنا لها.

4- علينا أن نوقفهم عند كل خطأ يقعون فيه مهما كان بسيطا في نظرهم، ونشعرهم بأن من يخطئ مثلا وينصب الفاعل بعد أن درس عنه سنوات عدة إنما أخطأ في كل سنوات حياته، وأن هذه السنوات قد ذهبت أدراج الرياح بدون فائدة، وأنه قادر أن يخطئ في مستقبل حياته، وينجر عن ذلك ضياع للأجيال التي لا تظهر نتائجها في الحين وإنما تتراءى لنا في الأفق بعيدة غير أنها ستأتي لا محالة.

مداخلة حول الالتزام في الأدب الجزائري(1)

في البداية؛ أنا من المتفائلين خيرا بالحركة الأدبية في بلادنا، وذلك من خلال تواجد الأدوات النشيطة والمؤسسات التي تحتضن ذلك؛ فالمعاهد الوطنية للغة العربية أصبحت خير تربة مهيئة لتنبت نشأ غنيا بالحيوية والنشاط، وتعطي ثمارا صحية الغذاء، حلوة المذاق، مغناطيسية الجذب، لتستقطب خيرة الباحثين وصفوة الدارسين.

ولا شك أن هذه البراعم ستزهر يوما، وتعطي الاتجاه السليم للحركة الأدبية في بلادنا، وستتخلص من بعض الشوائب المتسللة في وسط أدبنا المعاصر.

فالالتزام بالنسبة للأديب هو خير عمل جاد يقدمه لأمته وطنه، خاصة في عصر كل مخترعاته البشرية تسير بحساب دقيق ومنهجية واضحة للوصول إلى نتائج مفيدة.

وإذا كان الأدب في عصوره الزاهرة اليانعة هو الحياة، فذلك لم يكن من باب الهبة، وإنما كان من قبيل العمل الجاد المتواصل للمدارس الأدبية الملتزمة التي أخذت على عاتقها تبني قضايا الجمور العربي وعرضها على محكِّ التجربة الشعرية لتعطي في نهاية الأمر تصورات قد تكون سليمة على وجهة نظر الأديب يقبلها المجتمع ويجد فيها اللذة والاستئناس، لأنها عبرت عن آماله وتطلعاته، وصوَّرت همومه ومشكلاته تصويرا صادقا، وفتحت له منافذ عدة يجد فيها الوسيلة للانبعاث والحركية الهادئة التي تفضي في نهاية المطاف إلى تكوين شعور موحد تجاه قيم الحياة التي تحكم المجتمع وتقنن أخلاقياته.

فالالتزام هو تبنِّي قضية والدفاع عنها، وما أكثر القضايا في عالمنا المعاصر، فيها من الأصالة، وفيها ما فيها من بُعد تاريخي وحضاري.

(1) في ملتقى حول الثورة والأدب، عقد في قاعة محافظة الحزب بمدينة باتنة، سنة 1987.

وهناك الثورة التحريرية الكبرى التي هي من صنع الفرد الجزائري، وما فيها من عمق استراتيجي وتجربة تنظيمية في إعادة هيكلة المجتمع الجزائري وإعطائه السلاح المادي والمعنوي ليتسنم ذروة التصدي لمُغتصِب الأرض، والمُعَطِّل للفكر، والمُهَمِّش للغة، والقاتل للمبادرات.

والثورة لم تكن رحلة على متن باخرة شقت عُباب البحر محاذية لساحل مُؤَمَّن. وإنما كانت أشلاء ممزقة، وجروحا مثخنة، ويتامى عبست وجوههم من يتم الأبوة والأرض، وابتسمت ثغورهم أملا في الاستقلال، وأرامل امتلأت ساحتهن بهموم النهار المظلم بجرائم الاستعمار وفرحة الليل المشبَع بالحركية النشيطة للثورة.

والثورة أعمال فدائية مباغتة، ومعارك حربية طاحنة، وكمائن مزروعة نشرت الذعر والموت في صفوف الغاصبين.

والثورة - بعد ذلك - انتصار على المستعمر وإعادة بناء المجتمع بطريقة مخالفة لما كان عليه في فترة الاحتلال؛ فهي ثورة البناء والتشييد في كل مجالات الحياة وبخاصة في جانبي الفكر والتعليم.

ألا تكونُ كل هذه المجالات والأعمال المنجزة في ربع قرن، من قبل مجتمع بنى نفسه بنفسه، موضوع استثارة لأقلام الأدباء لتخليد الملاحم والبطولات وتقييم المنجزات، على قناة الكلمة الموحِيَة، المُعَبِّرَة، الأمينة، المشحونة بالقضية الصادقة، التي تترك في النفس صدى جهود السابقين وتكشف عن أعمال المتواجدين، ليتم التلاقح والتناغم بين ثورية الماضي المتسمة بتواجد مستعمر مدحور وثورية الحاضر الموصولة بتواجد فكر مجاهد عقد العزم على تخطي الحواجز المضروبة والعقبات الحائلة دون الوصول إلى تحقيق المطامح.

وحتى لا أبخس الناس حقهم أقول: إن أدبنا كان موجودا في الميدان أثناء الثورة وبعدها، لكن بكيفية لم تؤهله أن يكون في مستوى عظمتها وقدسيتها، فلم يكن تصويرا عاما وشاملا لأسبابها وأحداثها، ولم يكن

مواكبا لها في كل مراحلها، كما أنه لم يكن موضوعيا معها، فحينا يلجأ إلى استعارة صوره وأدواته من خارج حدود أرضه، وأحيانا يستعير من تجربة أدباء بني جلدته، وقليلا ما كان ابنَ بيئته في الصورة والموضوع.

أملي أن تنطلق أقلام الشعراء والقصاصين والروائيين من جديد، بوطنية أكثر صدقا، وعزم ثابت، وبوثبة فنية عملاقة، لتقدم إلى جمهور الوطن العربي تجربتنا في ميدان المقاومة للمستعمر، وتجربتنا في مجال البناء والتعمير.

نظام القضاء في الثورة التحريرية وتطبيق الشريعة الإسلامية[1]

توطئة:

ثورة أول نوفمبر 1954 ثورة غيرت مجريات الأحداث وبدلت الأوضاع بالنسبة للفرد الجزائري الذي طالما كان تواقا لمثل هذه الثورات التي من شأنها أن تعيد له عزته وكرامته ومجده وتجعل منه إنسانا يواكب الحضارات المتعاقبة على المنطقة في كل وقت وفي كل حين.

فالثورة التحريرية الكبرى لم تكن ثورة عسكرية وسياسية فحسب، بل كانت ثورة إنسانية أخذت طابع الشمولية والاتساع حتى غدت سياجا حضاريا يغذي الفرد الجزائري العربي بمكونات جديدة ويعطيه من الأبعاد ذات الصلة القوية بالتكوين الأخلاقي والعلمي ما يجعله يستطيع أن يعود مرة أخرى إلى حلبة الصراع الفكري القوي، ويتخلص من الهامشية المفروضة عليه من قبل الاستعمار الفكري الحقود الذي رسم الأهداف ووضع تجاربه في الميدان تجاه الفرد الجزائري يريد إذلاله في مكوناته الشخصية حتى يجعله - إما عاجلا أو آجلا، على حد تصوره - يتخلص بصفة تدريجية من أفكاره الإنسانية ومعتقده الإسلامي الذي تشبع بروحه عبر أجيال توارثته وترعرعت في أحضانه حتى غدت بناء شامخا وصرحا عملاقا في ذهنية وعقلية الفرد الجزائري الذي لا يقبل الهيمنة والسيطرة.

لقد كانت مقومات الثورة أساسها الفرد الجزائري وماله من حصانة ومناعة فكرية وروحية وخصال إنسانية نبيلة عالية ورصيد تاريخي زاخر بالأمجاد ومواقف مشرفة في حقل الثقافة وإمداد الفكر الإنساني بمكونات جديدة أضيفت إلى التراث الإنساني، تجلى ذلك على وجه الخصوص في

(1) في ملتقى حول الثورة، عقد في قاعة محافظة الحزب بمدينة باتنة، حوالي سنة 1990.

اعتزاز الفرد بشخصيته وكرامته ودينه ووطنه ومساعدته لكل المظلومين والمضطهدين. فهذا شعور إنساني أصيل لا نجده عند كل الشعوب، إنما يتأصل ويقوى في الذوات التي تربت في أحضان الأخلاق الأصيلة والقيم النبيلة الرفيعة، وهي خصال علينا أن ننميها وننشئها في الأجيال الصاعدة حتى نضمن لهذا الوطن مزيدا من المواقف المشرفة التي تجعل من مكوناته الحضارية لزيادة عمق التغلغل لاكتشاف أصالات جديدة تكون في نهاية الأمر مجتمعا تواقا إلى النمو التربوي والأخلاقي والعلمي، كما هو مجتمع متعطش إلى النمو المادي الذي هو مرض العصر.

والثورة التحريرية كعمل إنساني لم تكن إلا وليدة تجربة ميدانية شاقة عصرتها رياح المعاناة وكونتها المجابهات اليومية الدائمة مع مجموعة غازية تحمل فكرا ماديا قد يكون متطورا بالنسبة للفرد الفرنسي، لكنه ذا أبعاد قهرية وتسلطية وهمجية تمارس على الفرد الجزائري، ففي هذا المضمار نجد أن المواطن الجزائري لا يقرأ عن الظلم في الكتب والمجلات ولا يشاهده على الشاشة وإنما يعيشه هو بذاته. فكل ما توصلت إليه التكنولوجيا الغربية استُعملت لقهر الفرد في الجزائر، فهو يعيش الظلم والتقتيل والحرمان في مكونات ذاته، ويعيش الاضطهاد الفكري. فكل هذه التحديات التي فرضها المستعمر كونت مجتمعا يمقت الظلم ويحاربه، ويبحث عن العدالة ويحبها. وقد قال الإمام ابن باديس رحمه الله رائد النهضة الجزائرية: "إن الشعوب تثور عندما يكثر في وسطها الظلم أو العلم، ونحن قد بلغ الظلم منتهاه". فإذا كان الظلم الاجتماعي قد فرض على مجتمعنا بقوة الحديد والنار، فإن الفرد الجزائري لم يستسلم ولم يفقد الأمل، بل هو في الميدان يجابه الأحداث ويصارع المحن بخطة عملية مدروسة أساسها استثمار الطاقة الروحية والعنصر التاريخي في كل الثورات والانتفاضات، وكأن هذه الأخيرة بداية لا بد منها للوصول إلى نهايتها، وكانت النهاية هي ثورة نوفمبر 1954 الخالدة، فهي ثورة لم تنطلق من العدم ولم تتكون في خيال، وإنما كانت ثمرة معاناة جهادية

دامت ما يزيد عن قرن وربع قرن، وقد صاحب ذلك أوجاع وآلام وتضحيات جسام لازالت دقائقها وجزئياتها الصغرى شاهدة على نفسها، فضلا عن مجالاتها الكبرى التي لا تخضع لعامل الزوال بتقادم العهد وتشعب الطرق وظهور أحداث جديدة تأخذ طابع الصدارة وتغطي ما كان موجودا.

الثورة التحريرية مدرسة متكاملة:

إن الثورة التحريرية ثورة عسكرية وسياسية وفكرية واجتماعية واقتصادية وتاريخية، فهي تكون بمفردها مدرسة متكاملة من جميع الجوانب أخذت طابع التنظيم المحكم وحددت أهدافها بدقة وعناية، لأن الحماس والاندفاع مهما كانا ضروريين لإعلان ثورة فإنهما لا يكفيان وحدهما. ولقد شهد المجتمع الجزائري خلال الثورة التحريرية وخاصة بعد مؤتمر الصومام سنة 1956 تنظيما محكما في شتى الجوانب؛ السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية.

وإذا كانت الفترة السابقة من الاستقلال حتى الآن قد انصب العمل والحديث فيها عن الجانب العسكري والسياسي للثورة دون غيرهما من الجوانب الأخرى، وهذا شيء منطقي، دون أن يكون هناك اهتمام شديد وقوي بالجوانب الأخرى المتمثلة في الصحة والتعليم والقضاء.

وإذا كانت الصحة تمثل جانبا اجتماعيا وإنسانيا، فإن جانب التعليم والقضاء يمثلان الجانب الفكري والروحي للثورة التحريرية، كان الفرد الجزائري متعطشا وتواقا إلى هذه العناصر الثلاثة: الصحة والتعليم والقضاء، لأنه عن طريقها تتم عملية الانسجام بين الماديات والروحانيات. فالثورة قد أخذت في حسبانها جوانب تكوين شخصية الفرد وإعادة الاعتبار له، ولا يتم ذلك إلا بالعودة إلى المكونات التي صهرت وصبغت الفرد وحللته تحليلا فكريا واجتماعيا، لأنها في خط المواجهة، فهي ـ أي الثورة ـ لا تجابه العدو عسكريا بكل الشعب، إنما تعتمد بالدرجة الأولى

على النوعية المدربة والمنظمة فكريا وثوريا، وهي مع ذلك لا تستغني عن كلٍّ، فهي توظف كل الطاقات الشعبية المتواجدة في الميدان، وبذلك تجد لنفسها رقعة شاسعة أمام طاقات متعددة ونوعيات مختلفة، فإذا كانت اهتمامات الناس متباينة فإن الثورة قد عرفت ذلك وراحت بطرق منهجية عملية تدرس كل ذلك بدقة علمية ونفسية حتى تستقطب كل العينات الاجتماعية التي تكون الكتلة القوية للخلية الحية في وسط المحيط الاجتماعي الذي له شعور موحد ونظرة منهجية مدروسة ميدانيا ويمتلك رصيدا نضاليا أساسه المقاومة العنيفة والتضحيات المريرة والمجابهات الدائمة مع نقيضه المستعمر. إلى جانب كل هذه المعطيات؛ شمولية الثورة وإنسانيتها، اعتمادها على الفرد الواعي المنظم والمدرب للمواجهة العملية، استقطابها لكل أفراد المجتمع الجزائري، طرحها لعملية الفرز بين من هو مع الثورة ومن هو ضدها، استثمار كل التجارب السابقة في الميدان، دراسة العدو دراسة نفسية واجتماعية وفكرية؛ فالعدو لا يريد أن يرى الفرد الجزائري في صورة بطل مقاوم يحمل السلاح ويدافع عن قضيته الإنسانية؛ حقوق الإنسان بالنسبة لهذا العدو تمرد ووحشية.

وإذا كانت الثورة قد أحدثت تنظيمات استخلصتها من الميدان الممارس من قبلها: التنظيم العسكري، التنظيم السياسي، القضاء، الصحة والهلال الأحمر، فإن هذه التنظيمات تكمل بعضها بعضا وتصب في قناة واحدة هي مجابهة العدو والتغلب عليه.

وإذا كان أساس نجاح الثورة يعتمد بالدرجة الأولى على قوة التنظيم المحكم والمنهجية العملية المدروسة، وتعتبر ذلك كلَّه عملية جادة بالنسبة لها، فإن القضاء قد أدى دوره بصورة فعالة في الميدان العملي وقدم خدمات جليلة للميدان العميق ذي البعد الإنساني الشامخ للثورة في عملية شحن عزيمة المواطنين وامتلاك عواطفهم لأنه يعيد للمظلوم حقه ويردع الظالم ويجعله يعترف بخطيئته. وإذا كان العدل في البشر أمرا إلهيا أوجبه على كل عباده خاصة المؤمنين منهم، فإن هذا الأمر الإلهي يطبقه ويجسده

في الميدان القاضي العادل النزيه الموضوعي الذي لا تأخذه في الله لومة لائم، خاصة قاضي الثورة التحريرية المباركة. وهنا أفتح قوسا فأقول: إن ثورتنا بتنظيمها هذا قد وظفت الشريعة الإسلامية توظيفا عمليا في ميدان الكفاح المسلح، فهي تطبق الأحكام الشرعية وترعى حدود الله تبارك وتعالى دون أن يشغلها ذلك الظرف الزمني الدقيق الحرج، بحيث تهتم بالميدان العسكري وتترك بقية الميادين إلى وقت استرجاع السيادة الوطنية.

إن عمق الثورة والاستراتيجية التي بنيت عليها توضح بجلاء مدى بعدها الفكري ونظرتها الحضارية المتطورة، وهذا يدل على أصالتها وقوة فعاليتها في المحيط الاجتماعي والثقافي والفكري في الأوساط الشعبية التي تنظر إلى العدالة بعين اللهفة ونفس وثابة وقلب مطمئن.

استيلاء الفرنسيين على القضاء بعد الاحتلال:

وهنا لا بد من العودة إلى إلقاء بعض الأضواء على طريقة معاملة الاستعمار الفرنسي للمواطنين الجزائريين المسلمين في ميدان القضاء؛ فمنذ أن وطئت أقدام المستعمر ربوع هذه الديار عمل على التدخل في القضايا والشؤون الخاصة والعامة للفرد الجزائري، حيث لم يقصر استعماره على الجوانب العسكرية والسياسية والإدارية وانتزاع وافتكاك الأراضي، بل عمل على الهيمنة والسيطرة على التعليم والاستحواذ على القضاء وإخضاعه لقوانينه ولغته. ففي 2 مارس 1892 صدر مرسوم يقضي بإعطاء الأهمية للقضاء الممارس من طرف القضاة المعينين من قبل الإدارة الفرنسية، ومن ذلك التاريخ أصبح القضاء تحت هيمنة الاستعمار يرعاه بقوانينه الوضعية ويعمل كل ما في وسعه ليجعل الجزائري بطريقة أو أخرى يفقد طريقه في كل مشاكله عن طريق القوانين المستنبطة من الكتاب والسنة للوصول بذلك إلى فرض القابلية للاستعمار. وفي هذا الإطار تعددت مؤسسات القضاء وتنوعت وتعدد

المشرفون عليها ووقع الخلط في الأحكام عملا بالقاعدة: (إذا أردت أن تفسد قاعدة متبعة وطريقة محكمة فأسندها إلى غير ذوي الاختصاص)، فهناك القاضي المسلم، وهناك الجوج الفرنسي، وكل من هو اختصاص للنظر في شؤون الجزائريين، وإن وقع مشكل بين الجزائريين فيما بينهم هناك أحكام خاصة تطبق عليهم، وإن وقع مشكل بين جزائري وفرنسي فهناك أحكام أخرى تطبق وهي دائما في صالح الفرنسي، وإذا تعلق الأمر بقضايا لا وجود لها في القانون الوضعي وهي تخدم المصلحة الفرنسية تم اللجوء إلى الشريعة الإسلامية، وقد يُلجأ إلى ذلك في حالة عدم وجود نص قانوني فرنسي يخدم مصلحتهم.

والقضاة المسلمون المعينون من قبل الفرنسيين أغلبهم من القُيَّاد، غير أن هؤلاء القضاة في غالب الأحيان لا يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية، فكانوا يلجؤون إلى الصلح في كل وقت وفي كل حين، واللجوء إلى الصلح معناه عدم الاحتكام إلى كتاب الله تبارك وتعالى، وهم يتحدثون باسم الكتاب ولا يعرفون من الكتاب أي شيء، وهم يتحدثون بالسنة وهم بعيدون كل البعد عن سنة الرسول ﷺ.

من هذا المثال نرى أن عدد القضايا المطروحة على القاضي المسلم كانت في تناقص مستمر؛ ففي سنة 1922 بلغ عدد القضايا 76200 قضية، وفي سنة 1934 نزل العدد إلى 9800 قضية، رغم أنه عند احتلال الاستعمار الفرنسي للجزائر القائد العام للقوات الفرنسية في الجزائر كان يتحدث إلى الجزائريين في جويلية 1830 المشؤوم باسم فرنسا أنها ستحترم الدين والحريات والملكية والعادات والتقاليد خاصة في ميدان القضاء، كانت هذه هي الوعود فماذا كان الواقع؟

قانون 28 جوان 1881 جاء لتقنين وتثبيت الصبغة العنصرية للمستعمر، وذلك من خلال نظام الأهالي، فأسند مهمة قمع المخالفات التي يقوم بها الأهالي إلى حكام البلديات المختلفة، وبذلك تحول الحاكم إلى شرطي وقاضي للتحقيق وممثل للنيابة، قاضيا ومنفذا للأحكام والعقوبات

في نفس الوقت. أنشأ الحاكم العام تحت تأثير المعمرين والمندوبيات المالية ودون اتباع الشريعة الإسلامية، محاكم خاصة تقمع الجنايات والجنح التي يقوم بها المجرمون، وقد حذفت العقوبات الاستثنائية سنة 1944 تمهيدا لمحاولات الإدماج، وعادت سنة 1955 بإعلان حالة الطوارئ في الجزائر: حذف التحقيق المضاد بالنسبة للجزائريين، منع الدفاع عند الاستجواب والاستنطاق وتمديد فترة السجن الاحتياطي إلى غاية نصف شهر، إسناد كل القضايا الجزائرية وغيرها التي تهم الجزائريين إلى المحاكم العسكرية وذلك دون تحديد الاختصاص الإقليمي، إذ يمكن للمدعي الفرنسي توقيف أي جزائري وفي أي مكان في فرنسا أو على أرض الوطن حتى كل من حام حوله الشك كالذي لا يدخن أصلا يقبض عليه بسبب أنه يطبق أوامر جبهة التحرير الوطني بعدم التدخين، عدم احترامه للضمانات التي أعطتها معاهدة جنيف لمساجين الحرب.

وفي سنة 1949 وقعت أمور كبيرة جدا، مما جعل الفرد الجزائري يغادر المحاكم ولا يهتم بها أبدا، حيث تقول الإحصائيات: إن عدد القضايا المطروحة بالنسبة للجزائريين والذين يزيد عددهم يومذاك على عشرة ملايين هو 400 قضية عرضت على المحاكم الفرنسية في مختلف الجهات في شرق البلاد وفي غربها وفي وسطها و في جنوبها.

هذه لمحة مختصرة عن القضاء الذي كان ممارسا من قبل الاستعمار الفرنسي، هذا القضاء قد كون شحنة من الحقد وشحنة من المظالم بالنسبة للفرد الجزائري، مما جعل هذا الفرد ينظر إلى الثورة بمنظار الرحمة وبمنظار الشفقة، عساها أن تعيد له التوازن العملي الموجود في ذاته، وعساها ـ أي الثورة ـ أن تعيد لهذا الفرد مكانته في دائرة الشريعة الإسلامية.

كيف كان القضاء في بداية الثورة التحريرية؟

قبل اندلاع الثورة التحريرية، عمل القادة المكلفون بتفجيرها كل ما في وسعهم للصلح بين الناس وفض الخصومات والنزاعات القائمة بينهم حتى تأتلف القلوب وتتحد للوصول إلى تكوين مجموعة منسجمة متآخية تقدم الصالح العام على الصالح الخاص وتبذل قصارى جهدها لتفويت الفرصة على المستعمرين الذين عملوا كل ما في وسعهم لتشتيت الأمة عن طريق الأحكام القضائية الجائرة التي لا تستند إلى أصول منطقية وهي غريبة عن جسم الأمة وتصوراتها؛ كالنفي المؤبد، وعدم تنفيذ بعض الأحكام في القضايا الإجرامية التي أقر مرتكبوها بتورطهم فيها.

فلما اندلعت الثورة التحريرية الكبرى اهتم المجاهدون بعملية فض الخصومات التي تحدث بين المواطنين فيما بينهم، وتم فتح سجلات لمتابعة سلوكات وتصرفات بعض المجرمين الذين يميلون إلى استعمال العنف والقوة في وسط الجزائريين.

ففي بداية الثورة قلت حوادث الإجرام بين المواطنين وأصبحت المحاكم الفرنسية في شبه عزلة دائمة لسببين:

1- قلة حوادث الإجرام والخصومات.

2- ما يحدث من نزاعات أو خصومات أصبحت تعرض من قبل المواطنين على المسؤولين في الثورة، فيتولى السياسي عملية البحث والتحري حتى يُكوِّنَ ملفا حول الموضوع، ويقدم هذا الملف الذي تكون إلى أهل الاختصاص في الشريعة الإسلامية وهم العلماء المتحصلون من الزيتونة والمتخرجون من المدارس الإصلاحية، ومعظمهم مدنيون لم يلتحقوا بعد بالثورة التحريرية فقلوبهم مع الثورة وأجسادهم في بيوتهم، وكل ناحية معينة لها شيخ هو الذي تعرض عليه ملفات المتخاصمين، وفي كثير من الأحيان يستمع إلى أصحاب القضية من باب التحري فيحرر محضرا مختصرا ويتولى عملية النصح والإرشاد ويكشف مواقع الخطأ أو الأخطاء التي وقع فيها الظالم، وكلا المتخاصمين يقدمان عرضا حول

المشكلة وكيف وقعت أمام الشيخ المعين من قبل الثورة، فيستمع إليهما ويقوم بعملية تحرير مقالاتهما ودعواهما، مع الإشارة بالتركيز والاهتمام فى خطأ كل منهما.

أمام هذا العمل تتكون لدى الشيخ معطيات كثيرة: تحريات رجال الثورة، دعوى كلا المتخاصمين، أحكام الشرع وموقفه الصريح من القضية. وبعد تجمع كل هذه المعلومات يتولى الشيخ عملية النصح والإرشاد والإشارة صراحة إلى موقف الشريعة من القضية المطروحة، وهذا يدخل في باب التهيئة النفسية لقبول الحكم الصادر من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون بمثابة تلقين المواطن الأصول العامة للشريعة من باب الإعلام العام، لتكوين مجتمع مطلع على عموميات الشريعة، حتى يجنب نفسه الوقوع في أخطاء مستقبلية، وذلك لأن كثيرا من المخالفات التي تقع سببها جهل الناس بكليات الدين خاصة الجانب الشرعي من ذلك.

بعد كل هذه الإجراءات التمهيدية يتولى الشيخ عملية تحرير الحكم في وثيقة يسلمها إلى أحد المتخاصمين ليقدمها إلى المسؤول السياسي في الثورة، فيتولى هذا الأخير عملية استدعاء المتخاصمين ويعرض عليهما الحكم للتنفيذ الفوري، وعند القبول يتولى الاثنان التوقيع على الإجراء العملي بعد ذلك، ويعتبر ذلك بمثابة تعهد من قبل المتخاصمين، وكل دعوى بعد ذلك تعتبر باطلة.

أما في حالة عدم قبول أحد الطرفين فإن مسؤول الثورة يرسل صاحب الدعوى المتكررة إلى الشيخ مرة أخرى ويقول له: عليك أن تعرض كل حججك وأدلتك وبراهينك على الشيخ، فإن أصدر حكما مغايرا للأول فنحن نتولى عملية التطبيق. وقد يحدث ذلك ويتراجع الشيخ عن حكمه الأول فيكون التطبيق وفق الوثيقة الأخيرة، وقد لا يحدث، وهنا لا يبقى للمدعي سوى الإذعان والخضوع، وإلا يطبق عليه الحكم بأن يزج به في سجن الثورة، وسجنها يومذاك هو دهليز، أو ما يسمى عندنا بالكازمة.

وقد يكون الحكم الصادر عن الشيخ وفق الشريعة الإسلامية لا يرضي المتخاصمين، فيزج بكل منهما في سجن الثورة ولا يكونان منعزلين عن بعضهما وإنما يكونان معا، وفي ذلك سر وهو أن تتم عملية المراجعة فيما بينهما، ولاشك أن شريط الأحداث الذي وقع سيكون واضحا وبينا عند المتخاصمين، لأن شغلهما الشاغل هو المشكل المتنازع فيه، فتكون المراجعة الدقيقة والتحري الذاتي النفسي عميقا، وفي النهاية يتم الرضا والقبول بالحكم وتتم عملية المصالحة بين الاثنين، وقبل أن يتدخل طرف ثالث ليوحد بينهما يكون لعامل المكان وهو الكازمة او الدهليز أثره القوي في إزالة الخلافات وتقريب أواصر المحبة والإخاء والصلح بينهما. وهنا يتجلى أن الشريعة لا تطبق إلا إذا كانت معها قوة تحميها. وقبل إطلاق سراحهما يتولى سياسي الثورة تقديم التوجيه السياسي الذي يقوي أواصر المحبة في نفوس المواطنين، فينصرف المتخاصمان إلى عملهما وهما أكثر إخاء ومحبة لبعضهما البعض.

لجوء الثورة إلى الصلح وأسباب ذلك:

في كثير من الأحيان يلجأ قادة الثورة إلى الصلح بين المتخاصمين، وذلك للأسباب التالية:

1- إرضاء الطرفين المتنازعين.

2- تواجد طرف آخر في الميدان يريد أن يبث التفرقة والبلبلة في نفوس المواطنين عن طريق الأحكام الجائرة، فقد يصبح الظالم هو المظلوم، والظالم في الغالب الأعم له مال يحميه وعشيرة تدعمه.

3- جهل الناس بالشريعة الإسلامية، وهي معضلة أوجدها الاستعمار الفرنسي، فالناس لا يدرسون أصول دينهم وأحكامه، وأحكامه لا تطبق في الميدان حتى تنتشر الثقافة الشرعية لدى كل المواطنين، فهم يعرفون القانون الوضعي الفرنسي خاصة ما تعلق بعقوبات حراس

الغابات والضريبة الجائرة، والنفي المؤبد، وما يطبق على الجزائري إن اعتدى على الفرنسي.

فلجوء الثورة إلى الصلح كان أمرا حتميا لأن جهل الناس بالدين يجعل الظالم لا يرضى بالحكم، فيلجأ إلى المستعمر ويعرض عليه القضية بالصورة التي يراها هو وبذلك يحدث الآتي: فبعض المتنازعين يشعر بأن الحكم قد ظلمه فلا يقبل به في قرارة نفسه، وقد يصرح أمام مسؤول الثورة بأنه قد قبل وسيطبق ذلك في الحين، ولكنه يتراجع بعد مدة، تحت تأثير النزوات وحب الذاتية وحب السيطرة وحديث الغير، ولا يجد معينا له في الاستجابة لنزواته هذه، فيلجأ إلى الاستعمار الفرنسي. وبذلك تحدث الهوة بين المتخاصمين؛ أحدهما الذي صدر الحكم له من الثورة، والثاني الذي أصدرت الثورة الحكم ضده فلجأ إلى الاستعمار، وهذا ما وضعه قادة الثورة في الحسبان وعملوا كل ما بوسعهم للجوء إلى الصلح لأنه يرضي الطرفين ويعيد الطمأنينة والثقة لنفوس المتنازعين ويجعلهم يعيدون النظر في طرح بعض القضايا الهامشية التي تعكر صفو العائلات والأفراد، والثورة في غنى عنها، والظرف الراهن يتطلب من الجميع توحيد الصف لتكوين قوة معنوية وروحية لمجابهة العدو. وفي هذا الإطار نجد أن كل المشاكل التي كانت تعرض على أعضاء الثورة يتوصل إلى حلها وتطبق الأحكام في الحين دون بيروقراطية ولا مماطلة.

تطور نظام القضاء خلال الثورة:

هذا عن القضاء في بداية الثورة بالنسبة للمنطقة الأولى في الولاية الأولى. أما بعد ذلك، من بداية 1958، فقد تدعم نظام القضاء وأصبح عاملا أساسيا في عملية ديناميكية الثورة، فأصبح القاضي عضوا في مجلس القسمة ومجلس المنطقة ومجلس الولاية، وهو حامل للسلاح يشارك في المعارك وقد أسندت إليه عدة مهام:

مهمة القضاء وهي أساسية، ومهمة التعليم.

أما مهمة القاضي فتنحصر في العمل لفائدة الوطن ومصلحة المجتمع، تحددها العناصر الآتية:

1- التعليم؛ فعلى القاضي أن يعمل كل ما في وسعه لنشر التعليم والتربية للعامة، للكبار والصغار، ومقاومة الأمية ورفع الجهل، فعليه ان ينشئ بيوت التعليم ويعد للنشء معلمين ومربين.

2- القيام بشعائر الدين؛ فعلى المكلف بالقضاء أن يدعو إلى الاعتناء بأمهات الدين وأهم أركانه؛ قراءة القرآن ومعرفة آيات الجهاد، تأدية شعائر الدين من صلاة وصيام وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر والمحافظة عليهما، وليكن في ذلك - أي القاضي - خير مثال يحتذى به. وعليه أن يرشد الأمة ويوجهها إلى صالح وطنها وحياتها الاجتماعية وذلك بتكوين رجال صالحين يدركون حقيقة هذه المسؤولية ويؤدونها على أحسن وجه وأكمله وكيفما كانت الظروف.

3- على مسؤول القضاء أن يراقب الأمة مباشرة بواسطة أعوانه الذين يعينهم وسط المكان، وينبغي أن يكون هؤلاء مختارين من عيون النظام وأنصاره ويعتمد عليهم في المهام التي تسند إليهم، بل على مسؤول القضاء أن يستغل المناسبات ليجتمع بالأمة ويخطب عليها ويوجهها ويرشدها إلى مصالحها ويدعوها إلى ما يجعل أفرادها مثالا في التآخي والوئام ويحثها على التعاون في جميع أعمالها من أجل مصلحتها العامة.

4- على القاضي أن ينظر في جميع قضايا المجتمع الرئيسية وذات البال، الفردية منها والاجتماعية، الصغيرة والكبيرة على السواء، ويدرسها ويعالج ما تجب معالجته دون تعطيل أو مماطلة، حتى لا تتراكم هذه القضايا ويصبح حلها مستعصيا، وليس للقاضي أن يدرس القضايا القديمة التي نشأت قبل الثورة ولم تحل زمن قيامها، وكذلك القضايا العسكرية والسياسية ليس له أن ينظر فيها، لأن لها مسؤولوها المختصون بها.

5- لا حق للقاضي في أن ينظر مجددا في قضية سبق أن حُكم فيها، ولا يتعقب حكم غيره، ما لم يكن في الحكم ظلم صريح وجور بيِّن، وذلك سدا لباب التلاعب بالأحكام.

6- على القاضي أن يتتبع عادات المجتمع وأخلاقه وسيره ومعاملاته بين أفراده ويدرس طرائق تآلفه.

7- عليه أن ينظر في كيفية معاملات المجتمع بين أفراد مجموعاته وطوائفه من بيع وشراء وقرض وكراء ورهون ورهان ووصايا، ويتخذ من ذلك أحكاما وقوانين مبنية على أصول الشريعة يجري العمل على ضوئها.

8- عليه أن ينظر في الأحباس والصدقات والأوقاف على المصالح العامة والمشاريع الخيرية، ويعين لها من يقوم بها، فيضبطها ويحاسب المكلف بها. وعلى القاضي أن يُفهم السكان ويقنع من كان تحت يده شيء منها حتى يلبي طائعا ويتنازل عنه وهو راضٍ. ولا بأس ان يرغب المواطنين في التصدق والوقف في سبيل المشاريع الخيرية الجزائرية.

9- عليه أن ينظر في شؤون اليتامى ومطالبهم ومصالح ممتلكاتهم وممتلكات الغائبين، وإن كانت فعليه أن يعين من يقوم بكفالة اليتامى وحفظ أموالهم وأموال الغائبين إلى أن يرشد الصغير ويتبين مصير الغائب.

10- على القاضي أن ينظر في التركات جميعا، صغيرها وكبيرها، حقيرها وعظيمها، سواء كانت تركة جندي أو مدني. ويجب عند تقسيم التركات مراعاة الشرع فيها، وترك العادات والتقاليد القديمة الموروثة، هذه العادات التي تحرم على الأنثى مشاركة الذكر، فيجب أن يدخل في قسمة التركة كل ما فيها من أصول وفروع وأموال قائمة في الذمة، ويدخل في جميعها كل من له حق فيها شرعا، سواء كان رجلا أو امرأة، ويتقي الله القوامون بالنساء ومن يرجع إليهم أمرهن. والتركة لا تقسم على مستحقيها من الورثة الشرعيين حتى يطرح ويخرج منها ما هو حق للميت وإخراج وصية الميت كذلك.

11- ومن حق القاضي بل من واجبه أن يجتمع بأعوانه ويحاسبهم على أعمالهم التي يؤدونها، ويدرس وإياهم القضايا التي قاموا بها، ويصادق على ما طابق الواقع منها وفق الشريعة ويفسخ ما خالف ذلك.

أنواع الجرائم وعقوباتها في قضاء الثورة:

ولقد حددت جبهة التحرير الوطني وضبطت قائمة الجرائم والعقوبات وفقا لدرجات الخطورة، بحيث قسمت الأخطاء إلى درجات ثلاثة:

1- أخطاء صغيرة؛ وتشمل عدم دفع الاشتراكات، عدم الاستجابة لدعوات جبهة التحرير الوطني، قطع أشجار الغابات بدون إذن، ترك الكلاب في طرق جيش التحرير الوطني، عدم التصريح للمصلحة الإدارية لجبهة التحرير الوطني بالزواج والمواريث والوفيات، الضرب والجرح البسيط، الاستماع إلى إذاعة صوت البلاد، التدخين، عدم احترام النظافة الشخصية والعامة.

2- الأخطاء الجسيمة؛ محاولة القتل، الغش والتزوير، الكذب والشهادة الخاطئة، النميمة، عدم مد يد المساعدة للثورة، التنقل دون إذن مسبق من جبهة وجيش التحرير الوطني، التغيب عن الاجتماعات، السرقة، القمار، الاغتصاب، الشذوذ الجنسي، الزنا، السكر، الإهانة، إشعال النيران.

3- الأخطاء الخطيرة والكبيرة؛ الخيانة والانشقاق والتمرد عن الثورة، عدم الانضباط سواء بعدم الخضوع او الإهمال أو التأخير في تنفيذ الأوامر، أو عدم احترام القواعد النظامية أو عدم احترام السلم الرئيسي، الجريمة، الجهوية والمحسوبية والعروشية، تثبيط العزائم، الفرار يوم الزحف، الجبن أمام العدو، التخلي عن المنصب، عدم تأدية المهمة، تضييع أو عدم إيصال الخبر، تبذير أو اختلاس ممتلكات الثورة، الوشاية الكاذبة، القتل العمدي.

والقاضي ملزم بتقارير يقدمها وسجلات يدون فيها كل أعماله، بدءا بالقسمة فالناحية فالمنطقة فالولاية.

هذا بصفة مختصرة بعض ما يتعلق بالقضاء أثناء الثورة التحريرية، فهي ثورة متكاملة في كل جوانبها وأنواعها، ولم تكن ثورة فرد أو ثورة شخص، وإنما كانت ثورة أمْلت نفسها لأن المجتمع هو الذي أرادها.

نماذج من مسرحياته

الحَيْرة

يظهر على الخشبة رجل في أثوابه البالية وهيئته المحتقرة، لا يُلتفت إليه مطلقا، حاملا بيده مكنسته التي هي أعز ما لديه، ينظر إليها بإعجاب ويمجدها لدرجة التقديس ويقول:

هي ألطف من النسيم، وأعذب من فاكهة الشام، وأحلى من غادة فارس، بهية الطلعة، رشيقة الهيئة، عليها الوقار والحشمة والمهابة، تراها لأول وهلة فتخالها جراثيم لا تخلو من عدوى تصيبك كلما اقتربت إليها، لكنها في الحقيقة هي طيبة القرن العشرين.

- صدقني والله، لأنك لم تجربها، ولو جربتها لذقت حلاوة عشرتها.

يشرع في مسح القاعة من أسفلها ويقول:

- جراثيم غزت هذا الحيز من الفراغ والذي يسمى في عالمنا المعاصر الكوكب الأرضي، غزته من أسفله وأعلاه، وكم أخطأ العظماء من الماسحين قبلي بأن الجراثيم تلتصق بالسطح وتتحاشى الأفق، فراحوا يبذلون الجهد ويبخرون طاقة العرق بغير نتيجة، يمسحون ما تحت الأقدام ويتركون ما على الرؤوس من بني الإنسان، ولو كانوا أذكياء حقيقة لتوصلوا في الحين إلى نتيجة حتمية؛ وهي أن ما مسح من نقطة البداية إلى غاية نقطة الاستمرار من تلك القذارات لو جمعت لأعطت وزن الكرة الأرضية، وإذا كانت العملية عملية مسح وكفى فلماذا لا يجمعون طاقاتهم الكلية ويمسحون الكرة الأرضية في لحظة واحدة وتكون نهاية تلك البلية؟

- والفضل يا سادة يعود إليَّ حيث اكتشفت هذه المفارقة الأبية بأن توجهت بناظري إلى السماء العلوية ورحت أقرنها مسحا بما تحت قدمي.

يدخل شخص آخر ويقول: ما أعظمك يا هذا، كيف تفجرت هذه العبقرية الكونية وأعطت إنسانا نموذجيا في مجال الأفكار يحلق في الفضاء ويسبح في الأعماق ويتخطى المرتفعات بدون حائل ولا حاجز؟

- فلو تعلم - سيدي - حيث أصبحت بتهوفن وموزار عهدي، غير أن الجو - سادتي - أعياني ولم أمتلك كتلا عضلية أستطيع مواصلة مسيرتي الأبدية لأخلص البشرية من جرثومتها الفتاكة القوية.

- لمن تكون هذه القاعة اليوم؟ فكم قال فيها القائلون ونعق فيها الناعقون وصاح فيها الصائحون وخاض فيها الخائضون، وأنا بمكنستي ماسح كل ما يقولون ويصيحون ويخوضون، وهي في كل عام تزداد متانة وقوة رغم ما تعرضت له من عوامل تعرية، عمرها البشري قد انتهى.

وهي في كل عام أحلى من البنت البهية.

وكأن الحريرات التي تتناولها تزداد كل عام فغدت بهذا الشكل.

آه... آه... آه... عليك يا مكنستي، سأفارق الحياة وأنت من بعدي تقومين بمسحي ولا ترفقين بي، فرفقا بالعظماء من أمثالي.

عشرون سنة وأنا في هذه القاعة، أيْ صحيح لمن تكون هذه المرة ومن الممسوح يا ترى؟

- يدخل شخص كمثله صورة ولباسا وحركة ويصيح بأعلى صوته.

- فيوقظه من غفوته في اضطراب ويقول له:

- لا سامحك الزمن ولا بكت عليك البواكي يوم الزحف الأكبر إلى عالم الحفر.

- أهكذا تخرجني من عالم خيالي وشعوري وهيامي وتتركني أرتمي على صخرة الأرض فوق صوتك المزعج؟

- من أنت وكيف جاد بك الزمن في هذه اللحظات؟

- يقول الطيف، وقولُهُ مزعجُه مرة أخرى.

- فيجن جنون الماسح ويقول:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى   وصوَّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

- فيقول له ليس البيت هكذا وإنما هو:

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذ عوى   وصوَتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

- فيقول: له لو قلت: فنهق الحمار فكدت أطير

- فيقول له لو قلت: فنهق إنسان فكان الطيران
- فرد عليه: حطمتَ وهشمتَ ودمرتَ قواعدَ الخليل وأصبح البيتُ تفعيلاتٌ نووية في مجال أخطاء بنشيد غريب.

حريتي حريتي - أنا لها وهي لي - تسربلتها من أعلى قمة في رأسي إلى أخمص قدمي.

ويغني ذلك على أنغام وموسيقى فهد بلان.

خبير ذبذبة الجذور: تجمعت عينات الحياة في قبضة اليد، وكل واحدة تبحث عن المجال لمد الجذور لتنعش الشعيرات وتعطي أفنانا نضرة محملة بفاكهة هرمونات الحياة، لكنها لم تجده ولن تجده، فلم تعثر في نهاية البحث إلا على مجال واحد، فاختلطت فيما بينها فأعطت نباتا واحدا غريب الشكل غريب اللون غريب الطعم والمذاق، أكلته خلائق الوجود فتبلد فكرها وانقشع ضباب خيالها وتسممت حريرات حياتها وارتعدت فرائصها حتى قال قائلها: نعيم مستحدث وحياة مصطنعة، فكل مواكب للمسيرة سيجني الثمار بعد أجيال، وكل معاكس للبشرية سيلفظ أنفاسه بعد هنيهات.

- ما حدث مجهول وما سيحدث معلوم.
- عجبا لهذا الدماغ المفكر في عالم المعاصرة كما تقول التسمية المستحدثة.
- إنه يجهل ما يراه ويعلم ما لا يراه.
- وأطلق على ذلك تسميات متعددة ما أنزل الله بها من سلطان: مواظبة - مواطنة - مساواة - عدالة - حرية - ديمقراطية.

تسميات بلا مسمى ورسائل بلا عناوين، لمن تكون هذه الرسائل يا ترى؟

- شبيهة بمخاخلات الصوت المثقوبة.
- تحرير للبطن، واستعباد لنمو المخ، وتضخم للإثنى عشر، وتقلص لحركات الأعصاب، والنتيجة لدى مؤشرات التموجات البشرية مضمحلة.

خبير عالم الأحلام: عجبا لهؤلاء، ويشير إلى الجمهور، حركات اليد بلا انقطاع وتهليل بلا حساب، والملاحظ يشير بتموجات حمراء وصافرات الإنذار في كل زاوية يسمع نذيرها، أفواه الشيوخ في كل محطة للجلوس مفتوحة للقذى والغبار يملأها بدون حساب وهي تستقبل ذلك وكأن بطونها تحولت إلى ناقلات الغاز أو حاملات الطائرات، ووجوههم زال عنها الوقار وعلتها سحابة سوداء تقرأ عليها إنذارا بمخاطر زلزال مدمر سيحدث بعد لحظات.

الخبير البيولوجي: وهرمونات الإخصاب أصبحت الساعة طرفا في النزاع وهي مسيرة على تحمل راية المسيرة لتصبح بعد سنوات جالسة على أريكة الحكم في يدها صولجان الملك.

- لمن تكون الحياة؟ وأين تودع الأجنة؟ وأين توضع ورود الحياة وأزهار الأمل؟

- أنبحث لها عن إنسان مستحدث حسب معطيات الإشعاعات الحديثة؟ ممكن، ممكن، ممكن..

الماسح: سيدي إن أصواتك الغريبة وكلماتك الموحية المعبرة لتجعلني أغير نظرتي في اتجاهك وأكاد أدرجك في قائمة العظماء مثلي.

- وقد تأكدت أنك لست الناعق والصائح والخائض هذه المرة، بعد أن خلتك في أول وهلة أنك أنت.

- ومن ذلك فلا تكون من الممسوحين، فطوبى لك في عالم الخلود، طوبى لك مع نسائم الصبح وعطر الورود المحملة على أمواج القذى يوم تتحرك مكينة المكنسة وتراني أنا أعظم حوذي في العالم يديرها بطريقة مهمة تتحرك حركة عجيبة.

ماذا تقول أنت يا مراقب ذبذبات الفكر؟

- عجبا لأقوام الدنيا (وفي يده ترموميتر).

- تعجبا من أهل الأزمنة الثلاثة، حسبوها أبدية فكانوا هم للفناء.

- وخالوها استمرارية فكانوا ممرا للأجيال الصاعدة.

- وظنوها ألاعيب بهلوانية فصاروا – وأسفاه - حفريات غدت لذة عالم الآثار صبحا وعشية.

في يده (بوصلة)، الهواء تغير مساره والمكروبات رفعت راية الوحدة وكونت ائتلافا فتاكا فيما بينها للقضاء على نبضات القلوب وحركات الشفاه، فأخرجت الكل ولم يبق فوق الوجود قلب يتحرك وفكر يعي.

لطفك يا عليم، رحماك يا قدير.

أستاذ الحيرة: صراخ - صراخ في كل حيز من الوجود، وعواصف عاطفية في كل نفس تتحرك فوق ثرى الإنبات وشعيرات الحياة.

- ماذا حدث؟... مجهول... وما سيحدث يبدو للبعض معلوما.

- الحقائق: أصبحت هباء تحت عدسات المختبرات، والمشرف حائر، مرة بلغة الكلمة وأخرى بلغة الملامح، لا يدري أيهما أبلغ حيرة وأقوى قلقا.

- لمن يحتكم يا ترى؟ إلى نقاد البشرية أم إلى نقاد تجمعات الحيوانات المفترسة؟

- الحيرة هي بيت القصيد والإنسان هو طعمة الصيد المصيد.

- الحيرة أنت عروسة الخلود ونجوى العشاق وهيام المحبين، في عصر التحجر وذبذبات الغبار ورنين الدراهم واصطكاك الحجارة الكريمة، وبريق الأنانية المبهور في عالم الورود المدمية والمحبة المنغصة والابتسامة القاتلة.

رحماك يا إله البشر، رحماك.

- والمستقبل يكشف عن مجاهل تفوق عالم الخيال وتتجاوز طبقات الأوهام.

- الساعة الكل ناضج راشد ولا أمل للصبية والصغار في عالمنا اللحظي.

- لمن نشتري الحلوى، وتدق الطبول وتفجر مفرقعات العيد؟

- للكبار والمسنين حيث وقعت النكسة وحدثت الطفرة بالمقلوب.

- الصغير حاكمٌ والشيخ متصابٍ يزهو ويلعب في ساحات الحفر، والبيادق المتحركة هي الحجارة الصغيرة.

- وحلبة المصارعة شبر من الأرض، والفارس المغوار والجندي الشجاع هو الذي حافظ على الحصاة الأخيرة في الميدان.

- والمعارك متواصلة بدون انقطاع لأنها بلا هدف وغاية، والخسارة لا يُقرؤ لها حساب.

خبير ديوان الكركوز: وبنت العشرين في الشوارع متسكعة، وعلى كراسي الحكم متبرجة، رفعت راية الحرية ضد المألوف وغدت تذرف دموع الفرح على ما آلت إليه.

- تقيم الولائم والأفراح وتدق طبول الابتسامات لأنها قد انتصرت على الفضيلة، صرعتها وتركتها مضرجة بالدماء فوق الثرى تلفظ حشاشة الحياة.

- وابن العشرين في ساحة الدار نائم، وفي زوايا الطرقات تابع، يصارع الفراغ ويرنو إلى الهباء ليصبح قائده في المستقبل اللامتناهي.

- منتفشا في أثوابه لا يأبى الضيم جاعلا من نفسه عنترة القرن العشرين مرددا نشيده الخالد:

ولقد أبيت على الطوى وأظله   حتى أنال به مذلة المأكل

مراقبة التموجات الشعبية: والأم الحنون في عالم المادة استولت عليها حيرة لا تقوى عليها الجبال العاتية، تصارع التناقض المصطنع وتحاول عبثا أن تترك الكل يوقع بالأحرف الأولى على سياسة الوفاق، فهي في اضطراب فكري بين الشارع والدار بينها وبين الزوج وبين الأبناء (الذكور والإناث) فهي رباعية التفكير.

- فالشارع بهرها وتركها تشد إليه الرحال في كل لحظة، لترى المستحدث، ولتقوم باستعراض منظم لتسمع وقع أقدامها، ولتُسمع صدى حبال صوتها لغيرها، وتتعرف على كل المعروضات من الأزياء في عالم

الواجهات وما أشحها في مدننا، وتذهب المسكينة ضحية سياسة الاعتماد على النفس في عالم الشوارع.

- والبيت يجتذبها بواجباته حيث الأولاد سيعودون من المدرسة في الحين وإعداد الطعام وتركة ثقيلة واستعمار حديث يجب التخلص منه في الحين، وتعويضه بمنتوج سوقي لدى طباخ الحي وإلا فالديناميت خير حل للتخلص من مطبخ الدار.

- وهي في حيرة بين الابن والبنت، حيث الابن يمثل عالم الجنوب بفقره، فهو في حاجة إلى مساعدات دولية والاستنجاد بين الحين والآخر بصناديق هيئة الأمم المتحدة لرفع الفاقة، وإلا فالنتيجة ستكون وخيمة على ابن القرن العشرين.

- أما البنت فهي تمثل عالم الشمال بتخمته وأرصدته المادية حيث الحلي الذهبية بلغت قيمتها المادية رأس مال الشركات البترولية الغربية، فهي بحاجة إلى سياسة وطنية للقضاء على الفوارق الفردية وتطبيق سياسة العدالة الاجتماعية والسيادة الوطنية.

- والأب ركب المدارات الذرية، وأصبح غير قادر على حسم الصراعات المحلية، وراح غير ملتفت إلى التناقضات التي تعيشها الحليلة والذرية، وهام على وجهه متعشقا للمشاكل العالمية يفكر فيها صبحا وعشيا غير مبال حتى رسوب الباكورة الأولى من الأبناء في الامتحانات السنوية.

الابن البار: كم أنت متسام بفكرك يا أب القرن العشرين، وكم شغلتك هموم الأسواق وطوابير الانتظار، وفي كل ذلك درس مستحدث وفكر مستجد لعقلك الجموح وفكرك الوقاد.

- أبتاه رفقا بنا وعودة إلينا من جديد، فلك مقاليد السلطة وأنت قائد سفينة الأسرة، لأنك أعرف بالمنعرجات وأدرى بالنتوءات، ولأنك الحوذي الذي سار على درب ثلاث مليارات سنوية فما أخطأت الطريق ولا زاغ بصرك ولو مرة عن الحقيقة، فوصلت ببني الإنسان إلى هذه المشارف،

وإنني لأراك الآن تتخلص من الأعباء تدريجيا، بل أراك الآن انسحبت نهائيا وإلى الأبد.

- أعهد سيادة الثدييات قد عاد من جديد ليكون سيد الوجود؟

- ماذا حدث؟ أريد منك ولو كلمة واحدة، أناشدك الذمة، أناشدك باسم الإنسانية، أوَفي كل حين لا أسمع منك إلا: لا؟ أبينك وبين نَعَم عداوة أبدية أم أرجأتها إلى أن يعود الحجاب وتختفي من الممرات كل مظاهر التبرج والاختلاط؟

ابن الحضارة الحديثة: أنا لا أوافق بالعودة، بل أطلق العنان لكل مستحدث يتحرك في شوارعنا بدون رقيب.

- أنا لا أوَلِّي بشطري نحو الماضي، بل أمقته، أنا بين الحاضر والمستقبل، أما الماضي فهو طفيلي ووباء فتاك يقتل الأمل ويقضي على الطموحات.

- أنا ابن الحضارة الحديثة، تخرجت من التفاعلات النووية، وتسللت تحت النظريات العلمانية. كسوت نفسي بكل هذه القوانين الوضعية، رضعت حليبها أكياسا معلبة، وأكلت منتوجاتها ثمارا شهية، وسأعلنها حربا على كل جاحد لهذه التيارات الوضعية.

خبير الأمراض العالمية: ماذا حدث يا سادة؟ اضطراب يغشاني ويزعزع كل خلايا بناء ذاتيتي، ويُحيلني إنسانا هلاميا لا يقوى على المصارعة، أريد الجلوس في مكان واحد، بل أريد الاتكاء على الأريكة، إنها تضرني وتقلق راحتي، أريد الجلوس على الثرى وأديم الأرض، أريد منكم لحظة واحدة من التفكير حول عالم المستقبل والمصير، لحظة واحدة من التفكير لكل واحد منا تعطي عشر سنوات من الزمن في كيفية المصير، وتعطي مئة سنة سيرا في معارج الخلود الحياتي.

- ماذا حدث يا سادة؟ أهي شيخوخة فكرية أصابت الأجنة في البطون أم هي الطامة والصاخة استولت على مغناطيس الأفكار فحطمتها؟ كل هذا أعيشه اللحظة وأشعر بنتائجه الضارة، ولا أقوى على إيقاف مده

إلى مناطق أخرى، القصد شيء والعمل أشياء أخرى وكلاهما رابطة تربطهما.

أرى وجوه الناس على مستوى واحد.

أرى أعينهم جفت من الدموع.

أرى المآقي تستنجد وتستغيث لأنها أصيبت بكارثة الجفاف.

أرى حركات للشهيق قد استفحل أمرها وكادت أن تقضي على ذرات الأكسجين من سماء الغلاف الغازي لكوكبنا المسكين.

أرى الشفاه لا تنطق إلا بكلمات: ظن – زعم – وكذب – منافق – محتال – ودجال – وخائن.

أرى النفوس أصيبت بمرض فتاك لا يقوى على فهمه أطباء الدنيا قاطبة لو اجتمعوا قصد استئصاله.

ماذا حدث؟ أأطلق العنان لقاموس التشاؤم والشر ليعيش ساعته ووقته ويتنسم نسيم حياته وأكون أنا الآدمي وقود نعيمه؟

لست أدري ماذا حل بي وما ينتظرني اليوم أو غدا.

صاحب النعمة: استيقظت صباحا على أنغام النسائم وذبذبات العصافير التي داعبت شعوري وخيالي وجعلت مني سيد النجوم وزعيم الثريا، يا لها من استيقاظة، يا لها من فرحة أصابت خلايا جسدي، لست أدري ماذا سينبئ المستقبل حول هذه الذاتية التي حملتها الكرة الأرضية في دورتها العادية، أتدرون يا سادة ما سبب دوران الأرض؟.. هو أنا.

ولولاي لما دارت وما استرحتم ليلا ولا تنعمتم نهارا بالإشعاع الضوئي، دوران الأرض هو أنا.. قهقهة عالية من قبل المغرور بنفسه ويقول:

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر.

فيرد عليه خادمه:

يالك من إنسان حملتك الأرض وغطتك السماء.

فيقول: وفي النهار المُجلل بالسحائب يُتحدث عني.

لست أدري كيف تنظرون إلي؟ لا شك أن حركة أفكاركم توقفت بالنسبة لي ووجدت نفسها حائرة عاجزة مضطربة قلقة حول ذاتيتي، سأمنح لكم جزءا من التواضع وأتنازل عن هذه الذاتية لتصبح تحت تصرفكم للتشريح.

غير أني - والحقيقة ملء مستقبلي - ستقفون حيارى تجاهها.

وعند ذلك تتأكدون بأن تكويني يختلف عن تكوين سائر خلق الله.

وعندها تجدون أنفسكم عاجزين عن السير، وتستحثون الفكر للبحث عن علوم أخرى غير التي تدَّعون علمها ومعرفتها.

تغير عالم العلوم المعروفة من عهد أرسطو حتى جيمس واط.

قد امتلأ الجو بالمكروبات التي تقدح بها ألسنة أولئك المتفرقين الذين يملؤون أفواههم بالمياه الآسنة، وينفقون الساعات الطوال في توزيع الكلمات المتحجرة على العقول.

إنهم شبيهون بسعاة البريد الذين يحملون رسائل بدون عناوين.

الموجه: أين تسوقون هؤلاء؟ رحمة بهم وشفقة عليهم.

- رحماك يا رب الخلائق، رحماك يا رب السماوات والأرض.

- يسوقون العباد بالعصي الغليظة صفوفا على دروب الزيغ، ويزجون بهم في متارس الجحيم، يشربون الندامة ويستنشقون السرطان ويأكلون ذوبان الحديد وينفخون في رماد ناره.

- رحماك يا رب العباد.

أستيقظ في الصباح فلا أرى إلا خفافيش مغمضة العيون تسير زرافات إلى المهالك والابتسامة لا تغادر الشفاه ولسان حالها:

نعيم أبدي ينتظرنا في المستقبل اللامتناهي.

ولو عرفوا حقيقة حالهم لتمنوا حياة الهوام.

أحد الأعوان: جمع غفير يريد استشارة سيادتك حول الحالة المقلقة التي هم عليها.

- إنهم شتاتا جاؤوا من كل صوب وحدب.

- ويكفي للاطلاع أنهم فريقان أحدهما من القطب الشمالي والثاني من القطب الجنوبي، وكلاهما على درب الوفاق سائرون وتحت راية الانفتاح مستظلون، يريدونك يا حكيم الفكر لتصبح المرشد الأمين والموجه النزيه.

- إنك قائد الأفكار بعد أن كنت معلم الصبيان، والطباشير قد أكل أصابع يديك.

سريعا سيدي نحو العلا، سريعا سيدي نحو معارج السؤدد.

أحد المحتشمين: يا من تحفظ تاريخ ذبذبات القلوب وتتذكر حتى مسار حركات الأنامل وتلتقط بعدساتك تآكل الأصابع من جراء التأثر المستمر من قبل الطبشور، دعهم يدخلون.

القوم حيارى، يبدو ذلك على وجوههم، وحركات أجسادهم توحي بأن العقول في واد والأجساد في واد.

المصلح: من أنتم؟

أحدهم: رجل جاءك من القطب الشمالي يسعى.

ثانيهم: إنسان أتاك من القطب الجنوبي يلهث.

ثالثهم: مخلوق أقبل عليك من مركز الدنيا يحتضر.

المصلح: ما خطبكم يا قوم؟

الكل: فوضى – اضطراب – هذيان – قلق – حركات عجيبة في مركز الدماغ لا ندري لها مصدرا، أصبنا بمرض البطن جميعا.

- عجبا لهؤلاء، إنهم من مراكز مختلفة ومناطق متباينة ومع ذلك وحّدت بينهم هذه التسميات التي تدل على أن هناك مرض واحد هو الذي أصاب العباد جميعا وأقلق راحتهم وتركهم بهذا الشكل الخطر.

- لقد عرفتُ الداء ووضعت يدي عليه.

أما مواصفاته وأعراضه فهو أنتم، والحمد لله، حيث أصبحتم جثثا تَّقَدَّم لما يسمى - عندكم - بالمختبرات العلمية تعبث بخلاياكم وتغير مسار اتجاهات ذبذبات الأفكار.

- إن الفكر واحد في نشاطه وحركته ونتائجه، والذي فرقه وحمله بهذه الكيفية هو إنسان كمثلكم شكلا ومحتوى غير أنه يفوقكم في شيء وهو حب السيطرة والتملك.

- إن الفكر الإنساني واحد؛ منبعه السماء، ومصبه محطات عقولكم.

- **جميعا**: خرف الشيخ ولم يبق له إلا أن يطأ القبر بنفسه لأن وجه الأرض لا يتحمله.

- مصيبة الزمن أنكم تفكرون وتدَّعون ذلك، ولكن أجسادكم أصبحت الساعة من أكبر الناقلات العالمية للأمراض الفتاكة، فغدت أسركم جحيما لا يطاق وذريتكم نارا مشتعلة تلهب ظهوركم، وتفتت حتى نشاط حواسكم. عجبا لكم سفراء الكرة الأرضية المنحرفون عن جادة الصواب، هذا عذاب دنيوي، ولا شك أنه أليم، والزمن المحسوب سينبئ عن مخاطر أشد هولا وأعظم خطرا.

الجميع: صدقت سيدي، صدقت سيدي.

والحل؟

الحل العودة إلى الأصالة، أصالة المنبع السماوي، أصالة الحاكمية المطلقة لله رب العالمين، أصالة الاستسلام إلى خالق السماوات والأرض....

الجميع: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

مع أبي المسك في قصر الزهراء

أبو المسك يتأمل صورته ويرى نفسه أجمل مخلوقات الله أرضا وسماء:

- يا له من منظر جميل وصورة حسنة وضيئة قد علت المحيا، وحيوية قد دبت وكلها ربيع مزهر بجمال منظره... قهقهة عالية من قبل الناظر للمرآة.

- ثم يطرق مليا ويتابع حديثه:

- أنا خير من حَمَلَتْه الكرة الأرضية وأحسنُ من سار في مناكبها واستوفاها حقها.

- أنا أضفت إليها جمالا لم تكن لتحصل عليه أو لتدركه، بل أفسدت عليها نظامها الطبيعي، فغدت حائرة مذبذبة لا تدري ماذا تقول.

- صورة جميلة تتحرك فوقها فأسقطت كل المناظر التي كانت تخال نفسها رقة ورونقا وجمالا.

- أنا الذي غنت له العصافير وتفتحت لأجله الورود وانتشر له الفراش في تظاهرة جمالية يزين الوجود ويمتع الناظرين.

- أنا الذي من أجله جادت الرياحين بأحلى الروائح وهبت النسائم بأعذب نسيم.

- أنا يا أنا، آه عليك يا أنا.

قهقهة عالية من قبل أبي المسك:

أنا جميل، جميل، جميل، بل كلمة جميل لا تحمل صورتي ولا تعطيها مدلولها الحقيقي.

- أنا بهي.. بهيه.

- أنا حلوى.. حلويه.

- أنا نسمة الصبح.

- أنا عاصفة الرمل.

- أنا ابن عناصر الوجود وأشعة الكون.
- أنا أبو أجمل البهائم حتى دان لي سلطانها وتحكمت في أقواها.
- صوتي عندما أسمعه أكاد أفقد لذة ذوق الطعام.
- صفيري عندما يخرج أحسب نفسي بقر الوحش.
- لست أدري كيف كانت ليلة ولادتي.
- لقد حدثتني جدتي بأن تلك الليلة كانت ساكنة، هائجة، هادئة، مرعدة مبرقة، مطر في الليل، صحو في النهار، كل هوام الأرض غادرت بيوتها وراحت تسير زرافات زرافات كأنها جيش منظم عاد من معركة كسير الجناح.
- ولقد حدثني أبي أن سنتي كانت سنة مجاعة وفقر مدقع وشمس محرقة.
- سنة عجيبة وليلة غريبة يا قوم، لذلك كنت غريبا وعجيبا.
- يدخل عليه جدعون خادمه ويقول: يا خير من يرى ويا أسعد من تبتسم إليه، هلا سمحت لي بأن أقول لك: عم صباحا؟.
- **أبو المسك**: أغرب عني قبح الله منظرك وكأنك غراب أجرب، بل بوم ناعق، بل حمار وحشي، بل رجل أمريكي، كيف سمحت لنفسك وفتحت الباب عليّ وتطاولت بدون حياء ولا ورع أن تراني؟
- وهل يمكن لمثلك أن يتسلق مرتفعات المريخ بل يريد أن يكون في كبد الشمس؟
- يا جدعون، أريد استئناف رحلة النوم، وحذار، ثم حذار، ومليون حذار، أن تترك أحدا يقترب مني ويزعجني، وأنت تعلم أنني رجل حساس رقيق الشعور مرهف الحس، حتى الذباب لا أريده أن يحوم حولي.
- **جدعون**: نعم سيدي سأبذل كل ما في وسعي لراحتك ونعيمك.
- ينام أبو المسك فيسمع جدعون أصواتا هنا وهناك فيجري مسرعا لإسكاتها، ولكن جمهورا غفيرا يريد مقابلة أبي المسك ليحدثه في أمره، فيقتحم أبواب القصر، فهذا يرفع صوته عاليا، وذاك يضرب بعصاه

الأرض، وآخر يقلد أصوات الحيوانات، فيحاول جدعون إيقاظه، فيقول له:

ما هذا الذباب الذي يحوم حولي؟ هلا اتخذت معه كل الإجراءات اللازمة.

- **جدعون**: سيدي، أعيتني الحيل حول ذلك وأنت رجل حساس مرهف الحس كما قلت، ما عليك إلا أن تتسربل بسربال من المبيدات الحشرية حتى لا يحوم الذباب حولك، ولا بأس لو وضعت شيئا من هذا المبيد في فمك حتى لا يسقط على جمال ثغرك فيعكر رائحته المعطرة، يا من يموت لأجله الذباب فضلا عن القطط والكلاب.

- يفيق أبو المسك ويقول لجدعون: ما هذه الجلبة والصياح؟

- **جدعون**: جحافل الشعب بباب القصر تشكو المجاعة.

- **أبو المسك**: المجاعة، المجاعة، المجاعة، أما تقوله حق يا جدعون؟

- **جدعون**: ورأس أبي المسك إنه لحق يا سيدي.

- **أبو المسك**: المجاعة، وهذه سحائب الدنيا قد اجتمعت في سماء مملكتي ينزل مطرها مدرارا، وتعطي أرض المملكة عشبا وفواكه وخبزا.

- المجاعة والحياة قال، ويقولون خزائن المملكة فاضت بالأموال، المجاعة والقصر امتلأ بما تشتهيه النفس وتلذه العين.

- يدخل رئيس القوم فيقول: سيدي رئيس القوم جاءك يستدر عطفك ويطلب منك حل مشكلة الجفاف.

- **أبو المسك**: الجفاف، الجفاف، عليكم بصلاة الاستسقاء، وأنا أزودكم بمعلومات القبلة وفاتحة الكتاب وخاتمة العذاب.

- **البدوي**: سيدي، ليس جفاف السماء، بل جفاف العقول.

- **أبو المسك**: جفاف العقول، جفاف العقول، عليكم بشراب الأعشاب وغذاء الأعراب، وإن لم تنفع فرياح الفجاج، وإن لم تجد فزوابع الرمال تلفح وجوهكم وتفتح عيونكم وتتركم أهل علم وأصحاب فكر.

- **البدوي**: ذاك غداؤنا وشرابنا، وتلك طبيعتنا، فتلك بضاعتنا ردت إلينا.

يدخل الشاعر فيقول له أبو المسك:

من أنت؟

- **الشاعر**: رب القوافي.

- **أبو المسك**: رب القوافي، ومن يكون رب القوافي هذا؟ يقول ذلك لمستشاره.

- علمي علمك سيدي، وهل أستطيع أن أعرف علما أنت جاهله؟ وإن حدث فذاك اعتداء على شرف فكرك.

- يكرر قائلا: من يكون رب القوافي هذا؟

- أنا لا أكون وإنما أقول.

- قل، قل، قل، قل يا رب القوافي.

- أقول الحُر أم المنظوم؟

- قل الحُر والمنظوم معا.

- أما الحُر فأقول:

تلك الحياة عبث.

رفعت أفرادا وأذلت أقواما.

في عصر قيل فيه.

العلم صاحبه.

والفكر رائده.

والاختراعات ثمراته.

والمساواة هدفه.

والحرية نسماته.

والحق ميزانه.

وحرية الكلمة قمته.

وسفينة قادها ربان ماهر.

وركابها كلهم نائم.
فقال قائلهم: يا قوم، ركبنا البحر.
فقالوا: هذه أرضنا.
ما أصابها بلل أو وحل.
وهذه ثيابنا، الحرارة من ثناياها مشعل.
فلو كان حقا ما تقول لارتوت بطوننا.
حتى من ماء البحر.
ما قلت الصدق يا رُبان.
ما قلت الصدق يا رُبان.

- **أبو المسك**: ألغاز لا عهد لي بها، فهل رب القوافي معناه حديث البهائم؟ لأنت والله متحف أثري وحمار وحشي، لا يليق بك إلا أن تكون حادي إبل تسوقها بالأرجاز فتوصلها إلى البراري.

ولقد عرفت منصبك فسارع إليه قبل فوات الأوان.

- يسمع صيحات وأنينا خارج القصر، فيدخل الحارس ويخبر أبا المسك بأن الشعب على الأبواب يريد العلاج، فيقول للحارس: اتركهم يدخلون.

وينادي الطبيب لمعالجتهم ويقول له: عالجهم بالمقلوب يا حكيم الزمن.

- الطبيب للممرض: أين المرضى، أين المرضى، أين المرضى؟

- الممرض: هم أمامك حضرة الدكتور الفاضل الماهر المخلص النجيب المحترم الشجاع الهمام.

- يتقدم أحد المرضى ويقول للطبيب:

سيدي الطبيب سعال حاد يصيبني بين الحين والآخر خاصة وأنا في حالة الهيام، خاصة وأنا في حالة الشعور، خاصة وأنا في حالة الانسراح مع العقل، خاصة وأنا في حالة الركض وراء الأفكار- حيث هذه الأخيرة التصقت بالحلق.

مصدرها المعدة.
وأعماق أعماقها الأحشاء.

- **الطبيب**: لقد جُنَّ وفقد وعيه سيدي أبا المسك، دواؤه الركل واللطم من قبل جلاديه، وإن لم يعد بذلك دشنه بلكمة من لكماتك المعروفة منذ تعاقب الأزمنة التاريخية المشهورة.

- **الطبيب لبقية المرضى**: انبطحوا جميعا وافتحوا أفواهكم وأغمضوا أعينكم يا غربان النحس وبوم الشؤم.

- **أحد المرضى**: سيدي الدكتور أشعر بألم حاد في منتصف رأسي، وكأن هناك شخصا حمل منشارا وراح يمزق خلايا المخ بدون رحمة ولا شفقة.

- **الطبيب**: من علمك هذا الكلام يا أغبى المخلوقات؟

الألم سببه الأوساخ العالقة برجلك، اذهب واستحم في الوادي ولا بأس لو زرت الحمام للاستحمام، وإن لم تتماثل إلى الشفاء فانتهز فرصة الصيف القادم وشد الرحال إلى الصحراء واجعل من بدنك جثة مدفونة في أعماق الرمال ستشفى حيا أو ميتا.

- **المريض**: الصيف القادم إن بقي الألم يا سيدي - دكتور القصور- سأكون من نصيب العربة التي هي من نوع إنا لله وإنا إليه راجعون.

- **الطبيب**: لتذهب إلى الجحيم، لتذهب إلى الجحيم يا بوم القصور وشؤم الولائم، أغرب عني يا أقبح المخلوقات، يا من نبذته حتى جراثيم الطاعون والكوليرا.

- **المريض**: كنت أخال الرحمة عندك فوجدتك كالحجارة أو أشد قسوة، وكنت أحسب الشفقة لديك فوجدتك خنزيرا لا يعرف للشفقة معنى، وكنت أظنك أعلم الناس فها أنت أجهل المخلوقات أرضا وسماء يا صاحب البذلة البيضاء، والله لأنت قابض أرواح الشياطين إذا كان الشياطين يموتون.

- **أحد المرضى**: سيدي الدكتور، بين الحين والآخر أرى سحابة تغشاني ولا تستقر على لون معين بل هي خليط من كل ألوان الطيف، وبين الحين والآخر أقرأ على صفحات أديمها عبارات لا عهد لي بها: الحمار صاحب الكلمة في هذه المزرعة - والفيل معلم القوم - والفأر أمين خزينة الحبوب والبقر صاحب مزرعة الورود – والثعلب إمام القبيل، فاختلط علي الأمر وفقدت الثوابت وأصبحت الحقائق ظلا زائلا ورمادا في مهب ريح عاصف، أريد من قبلك دواء ناجعا يا خير من ترنو إليه العيون وتتعلق به القلوب.

- **الطبيب لأبي المسك**: جُن جنونه ودواؤه ضربة سيف تصيب عنقه وتقدم جثته هدية لوحوش الفلوات في يوم عيدها.

- **أحد المرضى**: سيدي - الدكتور- ألم في مفصلي كالشر يصيب خلايا تفكيري ويعطل خيالي وشعوري ويوقف حتى لاشعوري فأفقد في عالم الواقع والأحلام فأصبحت كتلة لم أتحرك فوق الأرض بدون لسان.

- **الطبيب لأبي المسك**: سيدي ما خطب هؤلاء المرضى؟ هلا لاحظت أن حديثهم كله عن مرض الأفكار والشعور والخيال؟ وكأن هناك أوبئة قد اجتاحت منطقتنا فخلفت أمراضا كثيرة أطلق عليها تسميات شعبية متعددة:

مرض الفكر – مرض العقل – مرض الشعور – مرض اللاشعور – مرض الخيال – مرض الإحساس، وأنت كما تعلم سيدي لا علم لي بهذه مطلقا ولا وجود لهذه الأمراض في قاموس الطب الحديث مطلقا.

أنصحك بالاستعانة بأهل الفكر والشعور والخيال والإحساس إن عثرت عليهم في هذا البلد.

- **أبو المسك للطبيب**: اغرب عني، سحبت منك الثقة، وستجد نفسك بعد حين طبيب البهائم والدواجن ولا أظنها ترضى بك.

يا حارس القصر نادِ منجِّم العرش.

- يدخل المنجم وكله ثقة بنفسه وكأنه عظمة الدنيا وعلوم الزمن.

- **أبو المسك للمنجم**: ما رأيك في القوم وكلهم أصيبوا بمرض مجهول كما يدعي أجهل المخلوقات طبيب القصر؟

- **المنجم** يقرأ ملامح الوجه ويتتبع مسار خطوط الكف لأهل القصر والقوم ويحملق في الفضاء ويضرب برجليه الأرض، فيقول له أبو المسك: أوَأصابك مرض الفكر يا منجم العرش؟

- المنجم: لا، لا، لا.. مصحوبة بقهقهة عالية.

وإنما ليسقط الودع فأجد فيه النبأ.. يكرر ذلك مرات ومرات.. فيسقط الودع ويتلوه على الملأ.

وإن أخبار النجوم قد اضطرب أمرها وتشعبت أنحاؤها وتشبث بها غبار غريب، مصدرها هذه التي تحت أقدامنا فأفسد عليها أمرها وأفقدها جوهرها فأصبحت لا تقوى على فهم أخبار نفسها فضلا عن غيرها، ولم يبق على حاله وصحة أبنائه إلا نجم العقاب وكوكب الغراب وسديم البوم.

- وأنت تعلم العقاب أخباره البطش والهلاك.

- والغراب أخباره النحس والاندثار.

- والبوم أخباره الشؤم والدمار.

- أعوذ بالمريخ والزهراء، أعوذ بالمريخ والزهراء.

- وسيعم أفقنا بعد أيام مطر غزير تصير أوديته حمراء كلون الجحيم.

- تغشاه أصوات الحيوانات عذبة كأصوات العندليب.

- تعقبه شمس محرقٌ لهيبها حتى وسط الليل.

- عندما تهب ريح تعزل أصواتنا وتحجب رؤيتنا وتتركنا كالخفافيش، يا أبا المسك الذليل.

- أنباء ترتعد لها فرائص الحيوانات فتشفق عليها النباتات.

- وتتركنا يا قوم نموت ونحن أحياء.

- وتجعلنا ننسى حتى أنفسنا وذوي أرحامنا.

- يفر الصاحب من صاحبه فرار السهم من كنانته.

فافتراقنا خير، ولقاؤنا سم.
وعذابنا لذة، وراحتنا نحس.
الفراق، الفراق، الفراق يا قوم.

- **أبو المسك**: عجز التنجيم عن معرفة السر، وخرف خبر الودع فصار كالعجوز الأرذل، فاغرب عني يا ملامح الشؤم.

- **أبو المسك**: جدعون القصر هو نجم الزمن.

- **جدعون**: نعم سيدي، هل أصبحتُ حقيقة نجم الزمن؟ وأنت من تكون؟

أنا الزمان.
نادِ طباخ القصر وطاهي الثوم والبصل.
يدخل الطباخ وفي يده بصل وقدر.

- يقول له أبو المسك: عجز الجميع عن معرفة السر ولم يبق إلا أنت، إلا أنت يا طباخ القصر، فعسانا أن نجد الحل في القدر ولا نجده في أسطول البحر.

قل فيهم ما عندك.

- **الطباخ**: سيدي، عليك ببخور الثوم والبصل وعطر ماء اللحم يستفز فيهم حمية القرم ويندفعون إليك كالغنم، وإن لم يتحركوا أغرقهم بالفواكه والخضر يسعون إليك كالبقر.

- أبو المسك: لا كان لك رأي يا صاحب البصل، فأنت لا تنفع إلا في التهام اللقم، ومنذ الساعة فأنت طباخ البهم.

- **أبو المسك**: يا جدعون، نادِ مطرب القصر.
- يدخل مطرب القصر رفقة فرقته.
- فيقول له **أبو المسك**: أطربهم، عساهم يثوبون إلى رشدهم.
- فيقول **المطرب**: فرقة الجوق العالمية تبدأ.
- **المغني**: ليل – يا ليل – يا ليل.
عين – يا عين – يا عين.

واغمضي يا عين – واخرصي يا جوارح.

تعطل فكر – وموت خيال – وحزن نفس – وكآبة فؤاد – وهيام حب – ونباح كلاب – بقصر عامر – وأبو المسك – وأبو المسك – وأبو المسك حائر، واغمضي يا عين، واغمضي يا عين.

يُجَن جنون أبي المسك ويقول مخاطبا جبال المملكة وسهولها وأوديتها ونباتها وسماءها: من أستشير؟ فيسمع صوتا من بعيد: روح الأزمان – روح الأزمان.

- **أبو المسك**: روح الأزمان، روح الأزمان الذي افتقدناه منذ أعوام.
- يا جدعون، بل القصر ونجم الزمان.
- ابحث عن روح الأزمان وأحضره يا نجم الزمان.
- يخرج جدعون الزمن ويقول: إنه غاب وأظنه سيعود بعد حين.
- فيبقى أبو المسك في حديث مع نفسه وقومه.
- تبدل الحال وأصبح أحوالا، شيب دبّ في جهاز الفكر، تجاعيد غزت ملامح الوجه، وشعب أصيب بوباء الفكر، فكيف النجاة يا ملك الجمال؟.. ويشير إلى نفسه.
- يدخل روح الأزمان بزيه غير المألوف، فتشرئب إليه أعناق الجميع ويتوسمون فيه الخير لأول وهلة، ويحدق في الوجوه ويتفحص الجميع.

أما أبو المسك فبمجرد أن يراه تغشاه سحابة سوداء فيسقط مغشيا عليه، فيتقدم جدعون القصر ونجم الزمان يقول:

- سقطت مملكة الجمال، فبشرى لمملكة القبح يا قوم.

خمسون سنة لا أعرف من الكلمات إلا سيدي أبو المسك.

- فيتحرك أبو المسك وينطق بأصوات.
- فيخاف جدعون ويقول: سيدي أصبت بوباء الفكر.

روح الأزمان: فكري ثقيل الظل على أصحاب المال والجهل والسلطان، فترفعت عن المجامع واتخذت من المقابر خير مكان.

قبور آبائي وأجدادي، أرى رائحة الإيمان تهب من أعماق رفاتكم، أرى ظلال قرآنكم، ودولة رسولكم الملجأ الأخير.

عظمة التاريخ، جلال العزة، كرم الضيافة، سيادة الخلق النبيل، منبعها وروحها القرآن الكريم.

طهروا يا قوم قلوبكم من هذه الأدران العالقة بها، وأزيلوا هذه القنوات التي أقمتموها بين شريانكم وأوديتكم ينتج دم واحد يغطي جسدكم ويظلل محيط سمائكم.

أيها القوم الجاثمون ببطحاء بدون مصير، طوبى لكم إن استنشقتم عبق المصير.

عودوا يا قوم، عودوا يا قوم إلى نقطة البدء لتقرير المصير، وإلا ستشحنون بضائع في سفن الغرب العنيد.

- **الكل**: عائدون بحول الله، عائدون بحول الله، عائدون بحول الله.

دمدوم الحياة

دنيا – دنيا – دنيا.. يقولها صاحبها بصوت ممتد كأنه ضاعت منه وهو يريد أن يعيدها بطريقة اعتباطية....

تعشقتها وهِمت في حبها، من أجل ذلك أنفقت 8760 ساعة.

لأجلها بخرت جهدي عرقا، وفجرت سويعات حياتي طاقة، وبذرتها ورودا على دروب ومسالك القرى وأنهج وطرقات المدينة نهارا.

وتسورا للجدران وهياما لحظيا في حانات عواصم العالم ليلا.

المنبه: دنيا، أنت صندوق الأسرار ومرتفع المسرات وهيام المحبين.

دنيا، ما أحلاك وأحلى حروفك ووقع رنين اسمك في ذبذبات الفكر ورنات الفوائد.

دنيا، أنت وأنا الحياة الأبدية السرمدية التي لا تفنى ولا تزول.

أتدرون ما الموت وسره؟

هو عدم تفاعل الأموات مع الحياة..

ولو حدث هذا التفاعل لما حدث الموت.

الشاحذ: التفاعل كيف يحدث؟ سر يكتشفه كل إنسان بنفسه، وما أقل المكتشفين، وأنا أعظم المكتشفين.

1- عثرت على الآثار فسرت، وتحسست النسمات فتحركت، واستنجبت المسار الوهمي فتدحرجت.

2- تدحرجت كلية، رميت بثقلي في الميدان وعرفت طريق الهدى والصواب تحت الأضواء الكاشفة، المادية، الفكرية، الوهم، الخيال.

المتفاعل:

- جعلت من مئات البشر الذين أصيبوا بالغباء الدنيوي والعطاء الليلي تلذذي.

- جعلت منهم طعمة شهية وشربة مذاقتها حلوة لا يعرف سر حلاوتها إلا أنا.

- ضغطتهم جميعا ورميت بهم في أتون ملذاتي وهيامي.

3- لا أزيد تصريحا، لا أزيد تصريحا.... عن بعض الأسرار الحياتية المتلذذة.

دمدوم: رفاقي في بعض مسراتي أين أنتم؟ رفاقي في بعض مسراتي أين أنتم؟

الجرس: أين نحن؟ أتعاميت عن الحقيقة وتجاهلت الواقع؟

دمدوم: ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

الجرس: ماذا حدث؟ لم يعد ضمير (نحن) يجدى بصفة الجمع، فلم يبق إلا المفرد يا دمدوم، الدنيا وزخرفها ونعيمها كما عرفتك منذ 9 آلاف ساعة.

الموت وباء حل بالحانات ونزل بالبنوك والمحلات وقضى على جرذانها.

وأصبح التلذذ مفردا بعد أن كان جماعة، وتقلص في السنوات الأخيرة فصار مثنى مفردا ومثنى جمعا.

دمدوم: ماذا تعني بهذه الطلاسم؟

الجرس: أعني بها الأحادية والثنائية والثلاثية، وقد طرحت الاثنان واحتفظت بواحدة.

دمدوم: وما الواحدة التي احتفظت بها؟

الجرس: احتفظت بالأحادية، ولا أقول لك عن السبب، ولا أكشف عن مجاهيل السر، فأنت تحت أضواء الخلاعة الكاشفة.

دمدوم: أنا تحت أضواء الخلاعة الكاشفة؟ أنا تحت أضواء الخلاعة الكاشفة؟

ماذا تعني بهذا يا هذا؟

أين عرفت كل هذا التشدق الكلامي، عهدي بك إنسان يتجاذب مع المغناطيس.

أنا (ويشير إلى نفسه).

واني أراك الساعة تمردت عن المغناطيس، أأزيلت الجاذبية من نفسي، أم أصبحت أنت بدون مركز الثقل، (أم أصبت بمس من الجنون)؟

الجرس: الجملة الأخيرة معناها هو الصحيح مع تحريف جزئي في مفرداتها.

دمدوم: وما التحريف والتعديل؟

الجرس: عوض أصبت بمس من الجنون، قل: أصبت بمس من الإيمان.

دمدوم: مس من الإيمان، مس من الإيمان، مس من الإيمان.

كيسك خاو على عروشه، وبطنك أفرغ من فؤاد أم موسى.

فملأتهما بالطلاسم والخرافات والتصورات الفارغة وعنونتها بعنوان الإيمان.

الشعاع: لا أصدقك النصح ولا أصارحك الحقيقة لأنك تحت الأضواء الكاشفة.

شمر: سأرمي بك في المتاهة وأقذف بك في عالم الأموات وأجعلك طعمة للذة ساعة وهنيهة إن لم تعد إلى صوابك الفعلي ومنبتك الحقيقي.

قهقهة عالية من قبل أصحاب الأحادية.

شمر يقول لدمدوم: أصيب فعلا بمس من الجنون، أصيب فعلا بمس من الجنون، وأطباؤه حفارو القبور ولا أظنهم قد استيقظوا الساعة وقد دفنهم منذ عشرة آلاف ساعة.

الشعاع: حفارو القبور هم إلى نفسك أقرب وإلى ذاتيتك المسكينة يترقبون، وإن لم ترض فسباع الطير ويوم النحس حملة جثتك.

وأظنك ستكون من نصيب حويصلات يوم النحس وغربان الخريف.

دمدوم: رفاقي في بعض مسراتي أين أنتم؟ رفاقي خلاني في بعض مسراتي أين أنتم؟

النرجس: أنا هاهنا.. صورة.. صورة.. أما المحتوى، فلا.. أما المحتوى فلا..

شمر: أنحن الآن في عهد بابل يوم تبلبلت الألسنة وأصبح كل واحد ينطق حسب انحراف وانزواء لسانه؟

دمدوم: بابل بعيدة عنا حتى ولو انهار برجها الشامخ وتحطمت قواعد أركانه.

أيصل صدى صوته إلى عشاق الدنيا وأحباء النعيم ورفاقي في التلذذ في القطبين الحضاري الشمالي والجنوبي؟

يخرج الأمل فيخاطبه دمدوم قائلا له، وعلامة الأسى والحسرة بادية عليه:

ما بك يا نديم العصر؟ ما بك يا نديم العصر؟

الأمل: نديم العصر أصبح كمثال الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء... أصبحت تمثال الأوقات الخمس.

دمدوم: تَعبد أم تُعبد؟

الأمل: ببناء الفعل للمعلوم هو أنا، أما ببنائه للمجهول فهو أنت.

شمر: ندمائي أصبحوا غرباء اللسان وشذاذ الآفاق لأنهم ضيعوا كلمة السر، وسأعيدها إليهم لتبقى الحياة على صورتها المشرقة.

لكن أخشى إن عشت معهم زمنا قصد تجديد العهد أن أصاب بمس من الإيمان أو بمس من العبادة للأوقات.

دمدوم: رفاقي في الملذات ما حل بكم أما تنطقون به صحيح؟ أما أسمعه من شفاهكم المضطربة حقا؟.. إن كان حقا وحقيقة فأنا البطل الوحيد في الميدان، البطل الذي انتصر على الخرافات وحطم الأوهام وقضى على الخزعبلات وبقي في الميدان... بقي في الميدان لكنه وحيد، والبطل لا يكون كذلك إلا إذا وجد من يصارعه ويكون ندا له، الأنداد

انقرضوا تحت ضربات الكلمات، والميدان صار محجورا أغشاه أنا صباح مساء... سأطلق الصيحة الأخيرة عسى أحدهم يجذبه الحنين ويخرج مسرعا.

رفاقي في المسرات أين أنتم؟

النجم: نحن هنا- نحن هنا- نحن هنا...

دمدوم: وما تصنعون؟

النجم: نجتر الحياة.

دمدوم: تجترون الحياة... تجترون الحياة..... الاجترار لا يكون إلا للأنعام، أبقار أنتم أم غنم؟

النجم: أكثرنا اكتنازا بقر، وقليلنا غنم.

شمر: طال عهد الاجترار هلا عدتم إلى النعيم مرة أخرى يا رفاقي في التلذذ والنعيم؟

النجم: ويحك – ويحك، العودة مستحيلة، وهل شاهدت مرة في حياتك العودة للكائن البشري إلى صباه بعد بلوغه مرحلة الشيخوخة؟

وهل يمكن أن نتسلق السماوات بدون وسائل معدة لذلك يا حضرة النعيم المبهرج؟ وهل سمعت يوما طائرا يسبح في الفضاء بدون جناحين أو سمكة تمخر عباب البحر تخلصت من زعانفها؟

الأمل: العودة مستحيلة، انتهت بانتهاء 9000 ساعة، انتهت بانتهاء طلاقة الوجه وبشاشة المُحَيَّا وابتسامة الثغر وسواد شعر الرأس.

العودة انتهت يوم أن ثقلت الأذن عن السمع، وتباطأت العضلات عن القفز، واستعين للنظر بعد بعدسات لامة

العودة مستحيلة يوم أن أصبح لك أحفاد ونسلك تجاوز الثلاثين.

الزمهرير: لا سامحك الزمن ولا تذكرتك الراقصات الشهيرات، أترميني بالعجز والاضمحلال، وأنا ابن الستين أنشطر حيوية ونشاطا وأتدفق مسرعا نحو استكمال بناء دولتي الشخصية؟

سأبقى هكذا رغم تشاؤم المتشائمين، ورغم حسد الحاسدين.

سأفجر الدنيا حبورا وبِشرا، وسأنظم حفلا عالميا تشهده خلائق الدنيا يوم أن أثبت للعالم بأنه لا وجود لهذه التسميات المزعومة من مراحل نمو الإنسان.

وإن الإنسان كائن ينمو إذا ما وصل مرحلة الشباب تحجر وبقي على هذه الصورة.... وما يظهر من تغيرات على ذاتية بعض الناس يسببه الغباء والجهل ومرض القناعة.

الويل: إن العلمانية الحديثة ونظريات التغريب المعاصرة أعطت نتائج جد حسنة ستبقى ذكرى لبني الإنسان المعاصر... ومخابرها أنتجت هرمونا حياتيا يحافظ على النبتة ويتركها كما هي، غير أن هذا الهرمون لا يتفاعل إلا مع شخصيات كمثلي... بدأت تكتشف عن بعض الأسرار الحياتية وستوقع نفسك في عالم الزوال والاضمحلال... هلا سكت هلا سكت؟

الويل: لو كان السكوت يجدي يوما لكنت أكثر خلائق الدنيا إمساكا عن الكلام.

إن الحياة مهرجان أبدي لا ينتهي، والسكوت يساوي الخروج من دائرة المهرجان...

إن الحياة حفلة عطشي لا تنتهي يقبل عليها الجميع، فمن عرف أصول وتقنيات الحفلة أصبح منها ومن أخطأ ذلك صار أثافيها ورمادها.

دمدوم: أنا الحفل، أنا المهرجان، أنا السرور والحبور والمتعة والملذات.

أحبائي المجترين، أحبائي المتنعمين، أحبائي المعتوهين، أين أنتم جميعا؟

شمر: خرجنا من دائرة المهرجان، وتجاوزنا حدود الحفل، ونحن الآن على مشارف الهاوية نرتع الندامة ونستنشق الحسرة وننام على أشواك الاضطراب، وذواتنا تحولت إلى ملايير المكروبات وكل خلايا الجسد التي بنيناها في ظرف عشرة آلاف ساعة تحولت إلى معركة داخلية

وقع فيها انشطار نووي، وأصبحت كل ذرة كونت لنفسها مملكة خاصة بها تسمى سعي السباع والأسود المفترسة أصبحت أنا عرينها.

يا ويحنا، ويا ويحنا، يا عزاءنا....

الحصب: ما عرفناه وتعارفنا عليه وبنيناه تلاشى في لمح البصر، وزال في ثوان معدودات....

إن ما يقال عن السنة والسنين خطأ بشري، بل هو لحظة ولحظات.

لست أدري كيف يكون اليوم التعبير ومؤشر الحياة أخطأ التعبير... والساعات المحمولة على ملايير السواعد من البشر سحقا لها تبا لها... أعطت لنا معلومات خاطئة وغرست في قلوبنا لا متناهيا، وهي الآن أبت أن تعيد الكرة إلى نقطة البدء، كل شيء يعود من حيث ابتدأ إلا نحن، أوَ في ذلك سر؟

نعم، هناك سر.. هناك سر... هناك سر.

دمدوم: أنت تعرف هذا ولم تخبرنا؟

الحصب: كيف أخبركم وكنا جميعا في وسط المهرجان نصيح ونرتع ونمرح ونتكالب وننهش، قد جذبني التيار معكم في كل حين أريد أن أصارحكم.

- المهرجان يخوض شفتي ويسكت اضطرابي حول ما نحن فيه.

- استيقظنا والزمن تجاوزنا والحياة تخلت عنا، حتى أصبحنا ثوبا لبس حينا ثم استبدلنا بثوب آخر....

دمدوم الحياة: أتقول تجاوزنا الزمن وتخلت عنا الحياة.. ونحن فيها الساعة عقاربها تدور حملتها المعاصم.

أتقول تجاوزتنا الحياة ونحن في وسط ميدانها نرتع ونجتر؟

والأدهى والأمر مما تقول أننا أصبحنا أثوابا بالية نهشتها أخاديد الحياة ومزقتها متاهاتها وقضت عليها حيلها الشيطانية.

الجرس: ونحن الأجساد، الزرق العيون، الحمر الخدود، طولنا قمم الجبال وبصرنا توقفه حركة النجوم، بطوننا أكياس ذهبية تملأ بكل ما لذ وطاب.

أكلنا كل الفواكه، واستحوذنا على كل ملذات الندى، والتهمنا مليارات القلوب الحيوانية، وأكلنا ملايين الأطنان ما وزنه لحوم الحيوانات السابحة في البحار والمدرجة في أعماق الصحاري والمتسلقة لرؤوس الجبال.

- الكل يجتمع في زاوية معينة، والقلق قد استولى عليهم، والحيرة بلغت بهم الذروة، وتضيق عليهم الأرض بما رحبت، فالخواطر تحدثهم واحدا واحدا بما ارتكب وما اقترن من تخريط في حق الموازنة بين المادة والروح وإن المادة أصبحت هي القانون المسيطر والشعار المسموع صباح مساء.

والكل يبحث عن الحقيقة ويترجى الخلاص... يدخل سعد ويخاطب الجميع بصوت يستشم منه رائحة القلق على المصير...

يقول: علينا أن نعترف بالموت حقيقة تحيى معنا، نحملها بين ثنايانا، ونستقبلها بين الحين والآخر كلما هبت نسائم الأسحار وغردت بلابل الحدائق الغناء، أين الملجأ؟ أين الفرار؟.. أين الملجأ؟ أين الفرار؟

الملجأ: يدخل الملجأ وهو شاب في عنفوان الشباب بلباسه التقليدي القديم (حسب تصور أهل العصر المستحدث) يهتم بنفسه ولا يبالي بغيره يحاول أن يعيش مع نفسه فيخاطبها عساها أن تثوب إلى رشدها.

ويقول: أنا قطعة قدسية تهاوت مع الأذكار، تسلقت ذرى الحسنات وتشبعت بمحلول الإيمان، طويت ملايين الكيلومترات بحثا عن الحقيقة الربانية، فوقعت نفسي على النفوس البشرية تجس نبضها لتعرف مدى دقات الإيمان في قلوبها، فوجدت دقات الشيطان هي الأقوى وحركات النفاق والصدود عن جادة الصواب هي القانون المطبق والمنفذ عند الحكام والصدى المسموع لدى المحكومين...

الإيمان: ذرى الإيمان تراءى بؤرها من جبال مكة وبطاح المدينة ومآذنها منذ أربعة عشر قرنا، ولا يزال الإشعاع مستمرا، ولم يستقر في الصخور ولا في المغاور والكهوف، إنه يسكن المنهج والنفوس يحيي القلوب الميتة، فرحماك أيتها الشمس المشرقة من مكمن الإيمان، ففي كل رحلة تقطعينها تحملين معك شحنات من الهدى واليقين تتسلل تحت أثواب الحضارة الزائفة وخلاعة القرن العشرين لتستقر في ذوات العباد المتراكمة التي اكتنزت لحما وطبقت شحما.

خالد: كل البشرية تتعثر صباح مساء في عوالم الخلود للعقيدة الربانية فتزيغها بطونها وتصبح مع دروب النفاق والإلحاد – والربا – والسفسطائية والخديعة – الهائمة ولسان حالها ينطق قائلا: رحماك يا رب العباد، رحماك يا رب العباد.... رحماك يا رب الخلائق، الأقدام والأيدي والقلوب قذائف للمعاصي والمناكير، والألسنة دواليب وأجراس يسمع لها صدى في المساجد بدون أثر ملموس وعمل مثمر.

كوكبة من الممثلين: كلهم: كلام عجيب - كلام عجيب - كلام عجيب.

وكأننا لأول مرة نسمع كلاما نابعا من القلب.

ولا شك أنه سيكون ذا مفعول أثري – سيكون ذا مفعول أثري.

سعيد: معشر الخلائق المحتارين، ماذا نصنع بهذا الكتاب الذي جادت رحمات الله به علينا، أأبذر حياته فوق أديم أرضنا التي تتحرك أقدامنا عليها؟

أرى العباد ناكرين ساخطين ومتأففين.

إنني ضقت بها ذرعا، أثقلت كاهلي وأخرست لساني وقيدت يداي.

رباه يضيق صدري ولا ينطلق لساني – رباه العباد كلهم بالمرصاد لما أحمل.

رباه إن سكت، إشاراتهم سهام موجهة إلى نقطة واحدة.

إلهي بذرتها في ذرى المرتفعات منذ عشرين سنة خلت فكان منها ما كان فأينعت وتدلت ثمارها فجُنيت من قبل غيرنا.

رباه سأبذرها في الأثير وأتركها تبحث عن مكامنها.... رباه صداها في قمم وعابدين، رددتها اهتزازات أمواج الأثير، وصوت أقدامها فوق الأرض في إسلام أباد وشيراز... أضحك ثغري وأثلج صدري وأدمع عيني سرورا لما أسمع.

سعد: أيها الإخوة في العقيدة لا في البطون، أيها الأحبة في الله لا في الذهب والفضة وملء الصحون... هلا وضعنا علامة استفهام واحدة عوض العلامات مرة بالجمع وأخرى بالمجموع هل نكون أو لا نكون؟

نكون بخالق الكون ولا نكون بالأرباب الذين نصبوا أنفسهم عمالقة البطون.

أيها الإخوة إن منادي الختام... سيعطي إشارات البدء وخلاصة الحوار.

خلاصة الحوار تعييه القلوب وتجتذبه الأرواح...

الخاتمة:

يا أهل مدينتنا، عصرت مخي فذرفت العصير دموعا على أعمالنا.

وساحت دمائي في البطاح والوهاد والمرتفعات الشُمِّ الشامخات هروبا مما ترتكبون.

يا أهل مدينتنا، نفسي مضاجعها أشواك توقظها في كل آن وحين.

يا أهل مدينتنا، أراكم كتلا بشرية متراصة تجمعت في شكل كتل فوضوية أحدثت انشطارا نوويا، صدى آلامها يؤذي أموات العهود السحيقة من الأحقاب التاريخية المتعاقبة.

يا أهل مدينتنا، نفسي مرارة تجرعت كؤوس الحنظل في سويعات الولائم والأعراس وملتقيات المتعة وتجمعات كفكفة السحاب المظلم على القلوب المميتة في حويصلات وزنزانات الإلحاد والمادية المفترسة.

يا أهل مدينتنا، أشعة الهدى والإيمان تقترب إلى أديم الأرض لتلمسها فتجدكم أشتاتا وخليطا من الإلحاد... وشيعا وأحزابا من الكفر... قاسمكم المشترك الأعظم هو ملء البطون بحطب جهنم....

يا أهل مدينتنا، عودوا إلى النبع الأصيل، عودوا إلا الظلال المنعشة المترعة، عودوا إلى حدائق الهدى والإيمان لنجني سويا... ثمار الرحمة والإخاء والمحبة... لنبقى جميعا على درب الطريق المستقيم بدايته المسجد ونهايته الجنة.

عندما يتفلسف الرجل العادي

الأفكار واحدة وللوصول إليها طرائق متنوعة ومختلفة، والناس في خضم الطرائق بين مصيب ومخطئ، وبين مكتشف لها في ظرف زمني وجيز وبين مكتشف لها في ظروف زمنية طويلة قد تتجاوز تصوراتهم للأشياء وبساطتها بالنسبة لهم قبل الإدلاء بدلائهم في المجال الفكري، فإذا ما جربوا، والقليل من يجرب فيجد نفسه قد تراجع خطوات عن حاضره، وبدون أن يشعر وجد نفسه في صباه وطفولته من ناحية فكره، وتلك طريق دفع إليها دفعا بدون أن يشعر وبدون أن يفكر فيها في مدى عمره الزمني البتة.

ولكن ماذا يصنع والبدن أصيب بانتكاسة الكبر وتصادم بالقوة المضادة المتمثلة في التيار المعاكس للنمو، فماذا هو صانع؟ وماذا هو فاعل؟ سيترك الجسد والإعجاب به وينصرف كلية إلى النواحي المعنوية فيه والمتمثلة في الفكر والإرادة والشعور، يستحث هذه جميعا ليعوض النقص ويتفادى العثرات والانتكاسات التي أصيب بها من جراء توقف حركة النمو والتي ظهرت على شكل تجعدات شوهت محياه، وعلت هامة رأسه سحابة بيضاء نغصت عليه الحياة ودفعته إلى أن يغادر المرآة وللأبد، حتى لا يرى شبح الموت وقد اقترب إليه أو كاد، وحتى لا يتصور الحياة على أنها حفرة مظلمة فراشها تراب وجدرانها هي بعينها فراشها أما سقفها فإنها والحال ينطق واصفا بأنها أتربة.

فتذوي شرارة الحياة وتذبل زهرتها وتغادر الحيوية غصنها فيصبح هشيما تذروه الرياح، ولكن رياحه فكره وهشيمه مادته ووروده فلذات أكباده وأغصانه تصوره لهذه الحياة. فإذا ما رجعنا إلى أغصانه وحاولنا أن ننظر إليها نظرة باحث الآثار حتى نستنشف تلك التصورات وحتى نقف على تلك الغايات التي سبق له أن اعتقد بأنه وصل إليها حقيقة لا مراء فيها ولا جدال، ولتكن نظرتنا هذه إليه بدءا من عهد نضارة غصنه

الأثري، حتى نعرف كل ما كان دفينا في عالمه الغيبي والذي أمسكه عنا وتركنا نجهل عالما كاملا يحمله كل واحد منا، وكل منا نظرته تختلف اختلافا قد يكون في بعض الأحيان جوهريا في فكرة هي في الحقيقة واحدة لا تقبل التجزئة حتى في عالم الخيال، فإذا بها تصبح عند هذا حياة وعند ذاك موتا.

خالد: تحصلنا على مبتغانا وحققنا كل أهدافنا، وتوصلنا إلى نقطة التشبع من ناحية العلوم؛ أولها وآخرها، نحوها وصرفها، حسابها وهندستها، جغرافيتها وتاريخها.

عمر: وأنا أشاطرك الفكرة وأنصحك، وأنا لك ناصح أمين، أن أقول لك: لم يبق لنا إلا النوم، وليس نوم الليل المعروف عند الجميع، إنه نوم الحديث، نوم الطعام والشراب، نوم العمل، نوم الدراسة.

خالد: عهدي بك صريح وناصح أمين كما قلت لي، ولكني اليوم أراك قد لبست المكر والحيلة، وجئت بي ساخرا، وللصداقة محتقرا، وبالعلم الذي جمعته وحملته مستهزئا، ما هذا النوم الذي تقول عنه نوم العمل والأكل والدراسة والسير والحديث؟

عمر: سأشرح ذلك عن طريق النوم، ولتكن لبيبا في اقتناص الصور وانعكاساتها على عدساتك حتى تستنتج المقصود المبتغى، ولا أريد أن أكرر عليك وأقول لك إنك عالم كما قلت على حد زعمك.

خالد: هيا ابدأ، ولا طائل من الكلام والتشدق بالألفاظ التي لا تسمن الفكر ولا تغنى الإرادة ولا تعطي جمالا للحياة.

عمر: عندما نعطي للحرف معنى ونهتم به ونقول بأن للحرف فائدة جمة وقيمة علمية نصنع منه العجب العجاب، وعندما تقول: إنني في الصباح غيري في المساء، حيث في الصباح مهندس وفي المساء أخطئ في التفرقة بين النقطة والخط.

وعندما تقول: الطعام يُمضغ بالأسنان ويُقضَم بالأنياب ويُتذوق بالشم، وعندما تقول: الانتقال من مكان إلى مكان والسير في الشوارع

والجلوس في المقهى والحديث بين هذا وذاك، عمل نافع يدر على الحضارة الراهنة بالجواهر التي تتركها أقوى وتجعلها تثب إلى الأمام حتى يغدو إنسانها في أحسن حال. فهذا عندي كله هو النوم الزؤام يا حضرة الصديق الهمام.

مسعود: ما دار بينكما من حديث ينم عن عبقرية دفينة سيكون لها شأن عظيم إن تفجرت ينابيعها وتفتحت براعمها وانتشر أريجها العبق بين الأحراش والفجاج والروابي والوهاد. أسترشدكما النصح صاحبيَّ: لم لا تجعلان لهذه العلوم التي تعلمونها قناة تسقي الحقول الاجتماعية وتغذي العقول البشرية وتنفع شبيبة الشعب الأبية؟

الاثنان: أول حديثك بركة لك وآخره مردود عليك، وإنك تستفز القوى العلمية التي أملكها، وإنني الآن في صراع أشد ما يكون حادا بأن لو انفجرت لخلفت كيانك أشلاء ممزقة تنتعش بها الغربان والوحوش في قمم الجبال.

عمر: تهديدات فاقت التفاعلات النووية وسابقت الصواريخ الفضائية، وأخشى أن نصدق الحديث فأجد نفسي سابحا في الأفلاك السماوية.

محمد: اسكت، هلاَّ لاحظتَ؟ ماذا؟

إن نظرته تتضمن لمحة وحشية فلو كان متعلما لكانت إنسانية، وإن عينيه لبارزتان فلو كان متعلما لانعكست إلى الوراء لتلاحظ الأفكار التي اكتنزها في فكره. وإني أرى ملاحظة أخرى أن شفتيه ابتعدتا عن بعضهما البعض، فلو كان مفكرا حقيقة لانضمتا إلى بعضهما أو حتى تقاربتا، لأن الرأس التي تتلقى الأفكار تدفع عضلات الصدغ إلى العمل، فشكل رأسه وتقاسيم محياه تنم عن الغباوة وتوحي بالشراسة وتجعلنا نصدق بما يقول حتى لا نذهب ضحية الجهل ونجد أنفسنا تحت الركل.

- ما تقوله يصلح أن يكون درسا في علم الاجتماع، ألا تلاحظ ثيابه كيف كانت فوق المستوى المطلوب، وحذاءه كيف كان من أرقى الأحذية حيث يعد من آخر طراز؟

حقيقة إنك تنظر إلى الحياة من خلال مظهرها الشكلي، أو من خلال صفاتها الكيفية. أما أنا فأنظر إليها من خلال المقادير الكمية، إنه شبه بدوي يوم العيد، إنه مدني مزيف، كذلك شأن صاحبنا إنه مفكر مزيف.

- الخلاف بيني وبينك قد أصبح جوهريا حول (محمود) وعبقريته، فأنت قد سلمت بفكره واتخذته شمسك المشرقة ودليلك المرشد، وأنا قد اتخذته ليلي الحالك الظلام والحوذي الذي يضع العربة أمام الثيران.

- أناشدك الذمة ألا تُسَلم بأنه عبقري، وصلفك هذا ألم يكن بسبب الغيرة والاستيلاء على الزعامة في وسط المدينة؟

- عبقري، عبقري... الخ، ما العبقري في تصوراتك؟

- ما العبقري؟ إنه محمود الذي أخذ نصيبا محترما من العلم والمعرفة، وأصبح يفهم الأخبار ويشرح موجزها فيعرف السبب والمسبب.

- العبقري - يا صاحبي - هو الذي تتحول لديه الإلهامات إلى هلوسة حقيقية، ويرى الأشياء التي تقدمها له مخيلته حقيقة ملموسة ومحسوسة في عالم الواقع.

- طال بيننا الحديث بدون طائل، فهذا فراق بيني وبينك إلى يوم يبعثون.

- سأسجلك في قائمة العبقرية المحمودية، وأقرأ عليك آية المغضوب عليهم إلى يوم الحشر.

محمود: ابني قد عدت من المدرسة؟

نعم أبتي.

وماذا شاهدت اليوم في المدرسة؟

الابن: ماذا شاهدت في المدرسة؟ (إطراقة للتفكير). شاهدت البواب ونانة التي توزع الطعام وسيارة التغذية وهي محملة بكل ما لذ وطاب من الطعام.

وماذا أعطوا لكم اليوم في المدرسة؟

- أعطوا لنا الخبز وشريحة من اللحم تزن نصف كيلوغرام للواحد، وكيس لبن شربنا حتى انتفخت أوداجنا، وسمعت - ولأول مرة في حياتي - أذناي تحدثان أصواتا كصوت الراقصة التي شاهدناها البارحة على شاشة التلفزيون، وقد أحضرت لك كيسا ولكنه فارغ عساك أن تحتاجه لقضاء بعض مآربك.

- حسنا حسنا ابني، إنك في جنات عدن، إياك والحديث إلى أبناء الحي لكي لا تسلط الأضواء عليك، فتترقبك العيون وتصبح من المحرومين مما تقول في يوم ما. وأتمنى أن يعود الصغر مرة أخرى وأنعم بما ينعم به الصبيان داخل مدارسهم، وعند ذلك سترى كيف أحسن التصرف في الأذنين وأحركهما كما أشاء ولا يقتصر ذلك على سماع أصواتهما.

....

الابن ونسيت بأن المدرسة هدفها ليس ما شنف به ابنك أذنك، وإنما كنت أخاله أن يقول لك قد أعطى لنا المعلم درسا في الحساب، وكنت أعتقد أن يذكر المعلم والمدير ولا ينصرف ذهنه إلى البواب وموزعة الغذاء، فإذا به أثر فيه البواب ولم يؤثر فيه المعلم وتأثر بالطعام ولم يتأثر بالدرس.

وثائق ورسائل وصور

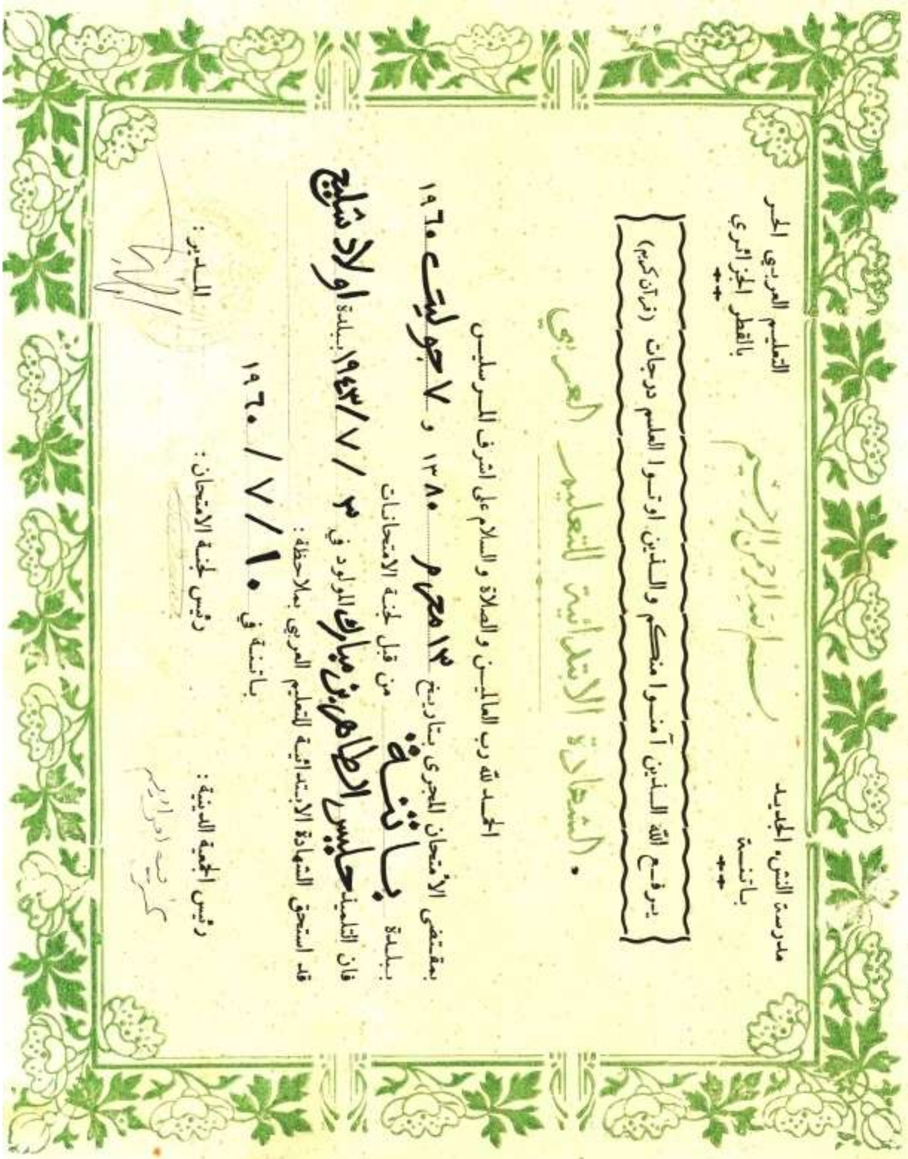
مدرسة النشء الجديد
باتنـة

بسم الله الرحمن الرحيم

التعليم العربي الحر
بالقطر الجزائري

يرفـع الله الـذين آمنـوا منكم والـذين اوتـوا العلم درجات (قرآن كريم)

الشهادة الابتدائية للتعليم العربي

الحمـد لله رب العالميـن والصلاة والسلام على اشرف المـرسليـن

بمقتضى الأمتحان المجرى بتاريخ ١٣ محرم ١٣٨٠ و ٧ جوليت ١٩٦٠

ببلدة باتنة من قبل لجنة الامتحانات

فان التلميذ حليس الطاهر بن مبارك المولود في ٣ / ٧ /١٩٤٣ ببلدة اولاد شليح

قد استحق الشهادة الابتدائية للتعليم العربي بملاحظة :

باتنة في ١٠ / ٧ / ١٩٦٠

رئيس الجمعية الدينية : رئيس لجنة الامتحان : المدير :

الشهادة الابتدائية للتعليم العربي (جويلية 1960)

وزارة التربية والتعليم

شهادة الدراسة الثانوية العامة

القسم العلمي

تشهد وزارة التربية والتعليم أن حليس طاهر بن مبارك بن عمر المولود في أولاد شليح - الجزائر

سنة الميلادية نجح في امتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة القسم العلمي

في سنة ١٩٦٦ ، وكان مجموع درجاته في هذا الامتحان

ومجموع النهايات الكبرى لدرجات مواد الامتحان ثلاثمائة وسبعين درجة

مواد التفوق : —

القاهرة في رمضان سنة من الهجرة و ديسمبر سنة ١٩٦٧ من الميلاد

كل كشط أو تغيير في هذه الشهادة يلغيها

سلمت في ١٦/٦/ سنة

توقيع صاحب الشهادة بخط يده

سجلت برقم

شهادة البكالوريا من الجمهورية العربية المتحدة (1967)

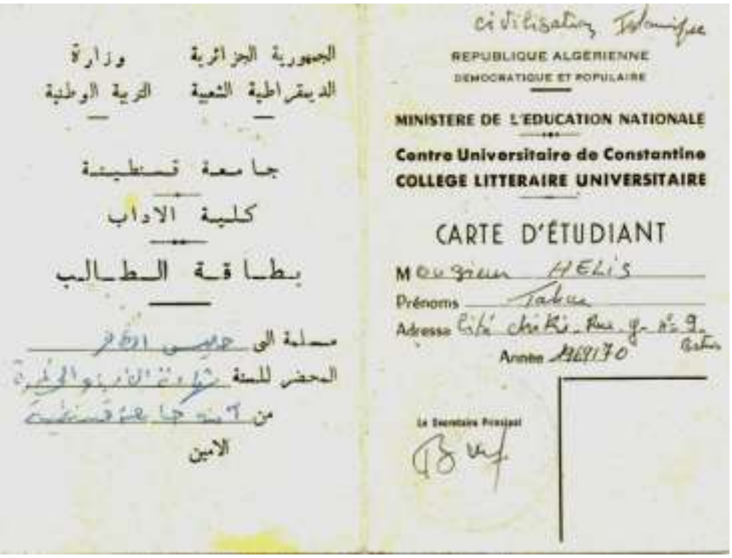
الجمهورية الجزائرية وزارة
الديمقراطية الشعبية التربية الوطنية

جامعة قسنطينة

كلية الاداب

بطاقة الطالب

مسلمة الى حليس الطاهر

الحضر للسنة

من

الامين

civilisation Islamique

REPUBLIQUE ALGERIENNE
DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTERE DE L'EDUCATION NATIONALE

Centre Universitaire de Constantine
COLLEGE LITTERAIRE UNIVERSITAIRE

CARTE D'ÉTUDIANT

M Monsieur HELIS
Prénoms Tahar
Adresse Cité Chikhi
Année 1969/70

Le Secrétaire Principal

بطاقة الطالب مسلمة من جامعة قسنطينة 1969-1970

CERCLE DES ENSEIGNANTS
Avenue de la République
BATNA

نادى المعلمين
شارع الجمهورية
باتنة

N° 012 عضو عامل رقم 012

MEMBRE ACTIF

Mr السيد الطاهر حليس
Adresse العنوان
Cotisation 10 DA الاشتراك 10 دج
Année 1971-72 السنة 19

Le Président

بطاقة الانخراط في نادي المعلمين بباتنة، 1971-1972

MINISTERE DE L'EDUCATION NATIONALE

ECOLE NORMALE D'INSTRUCTEURS BATNA

ACADEMIE DE BATNA

WILAYA DES AURES

PROCES - VERBAL D'INSTALLATION

L'An mil neuf cent soixante dix et le vingt trois du mois de Janvier ,

Nous , Directeur de l'Ecole Normale d'Instructeurs Ailée Ben-Boulaïd , Batna,

Vu l'Avis de Mr. Le Ministre de l'Education Nationale en date du 17 Janvier 1970 n°01054/DES/P5 annulant et remplaçant le précédent n°25095 du 22 Octobre 1969,

Affectant à l'Ecole Normale d'Instructeurs de Batna, en qualité de P.E.M Stagiaire P/P/ de Professeur de lettres arabes

Installons Mr. HELLIS Taher dans ses fonctions à compter du 22 Septembre 1969.

En foi de quoi , Nous avons dressé le présent procès-verbal que le fonctionnaire à signé avec nous.

BATNA, le 2[illegible] Janvier 1970

LE DIRECTEUR

[illegible]

L'INTERESSE,

محضر تنصيب في وظيفة معلم، مؤرخ في: 27 جانفي 1970

LICENCE ÈS LETTRES

Faculté des Lettres de l'Université de Constantine

Le Doyen de la Faculté des Lettres & Sciences Humaines de Constantine soussigné certifie que M onsieur HELIS Tahar

Né à Ouled Chelih

Wilaya des Aurès

Le 3 Juillet 1943 a été jugé digne, le 4 Octobre 1971

par la Faculté des Lettres de l'Université de Constantine, du grade de : Licencié ès-Lettres, avec les certificats d'études supérieures suivants :

Certificat de CELGA Obtenu en Octobre 1961 Mention —

Certificat de Littérature Arabe Obtenu en Juin 1970 Mention Passable

Certificat de Civilisation Islamique Obtenu en Juin 1970 Mention Passable

Certificat de Littérature comparée Obtenu en Juin 1971 Mention Passable

Certificat de Philologie Arabe Obtenu en Septembre 1971 Mention Passable

A Constantine, le 4 Octobre 1971

Le Doyen

FACULTÉ DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES

N.B. - Il n'est délivré qu'une seule attestation du diplôme de Licence, En cas de besoin, il appartient au titulaire d'établir une copie de cette pièce et de la faire certifier conforme par Monsieur le Président de l'A.P.C.

شهادة الليسانس في الآداب (1971)

بطاقة الانخراط في الاتحاد العام للعمال الجزائيين

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم والبحث العلمي
جامعة باتنة
معهد الآداب واللغة العربية

الرقم التسلسلي: 05م٢/ 1982

رقم التسجيل: 005/ 90/ 81

شهادة نجاح

يشهد مدير معهد الآداب واللغة العربية - بعد الاطلاع على محاضر جلسات لجنة المداولات - أن:

الطالب (ة): الطاهر حليس

المولود (ة) بتاريخ: 05/ جويلية 1943 بـ أولاد شليح

ولاية: باتنة

قد نجح (ت) في امتحان السنة: الأولى من دراسات ما بعد التدرج (ماجستير)

السداسي: الأول دورة: 26 جانفي 82 بتقدير: -

السداسي: الثاني دورة: 14 جوان 82 بتقدير: -

وقد سلمت هذه الشهادة لصاحبها، بطلب منه قصد استخدامها فيما له من حقوق.

باتنة في: 28 / 11 / 1982م

نائب المدير للبحث العلمي والعلاقات الخارجية — مدير المعهد

عياش بوحسان — محمد منصوري

ملاحظة: لا تسلم إلا نسخة واحدة

شهادة النجاح في السنة الأولى ماجستير (1982)

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

المعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية باتنة

رقم: 002/86 م

شهادة نجاح مؤقتة في الماجستير

إن السيد مدير المعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية بباتنة

بعد إطلاعه على محضر لجنة المناقشة المؤرخ في: 1986/06/24 بالمعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية

يمنح السيد /ة: الطاهر حليس

المولود بتاريخ: 1943/07/03 في اولاد شليح ولاية باتنة

شهادة نجاح في الماجستير في الادب العربي

شعبة: الأدب القديم بتقدير: مشرف/

باتنة في: 24 جويلية 1986

نائب المدير للبحث العلمي

مدير المعهد

ملاحظة: يسلم نظير واحد من هذه الشهادة ويعاد عند تسلم الشهادة الأصلية

شهادة الماجستير (1986)

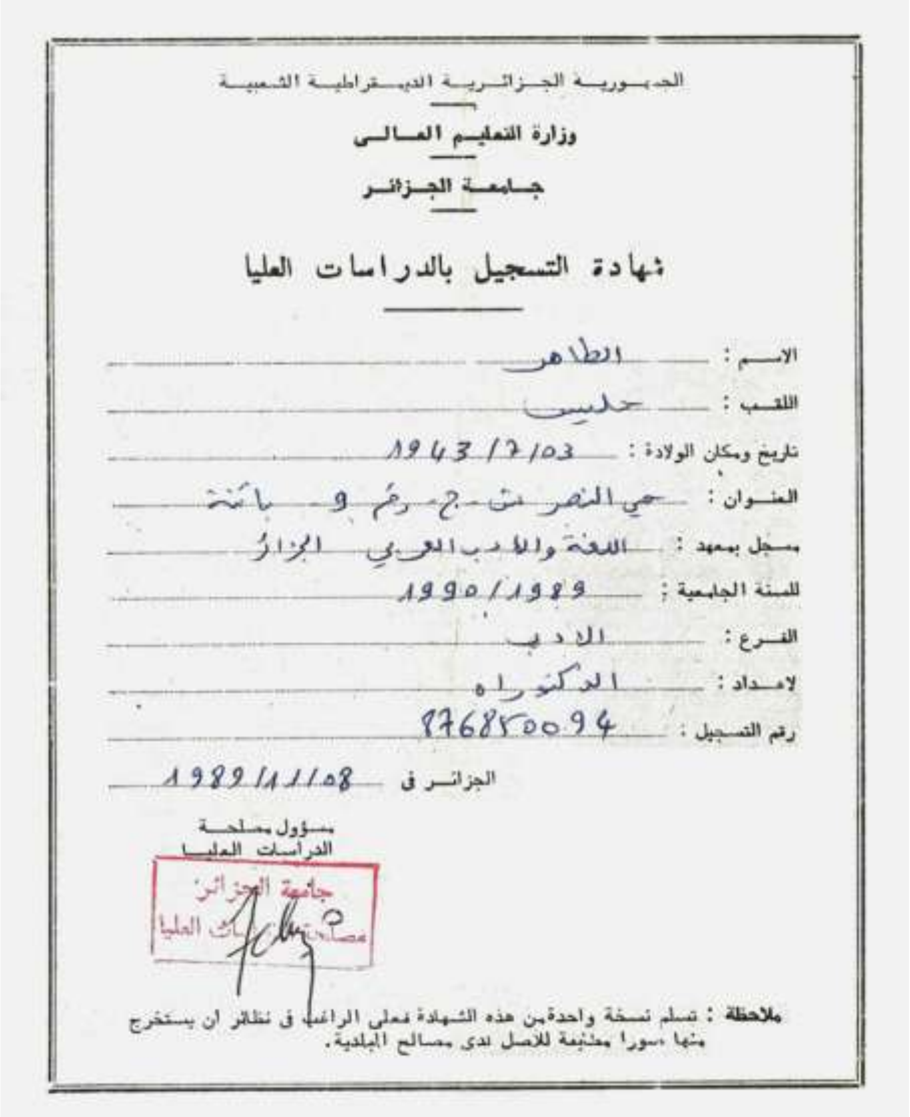

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

جامعة الجزائر

شهادة التسجيل بالدراسات العليا

الاسم : الطاهر

اللقب : حليس

تاريخ ومكان الولادة : 1943/07/03

العنوان : حي النصر ش-ج-رقم 9 - باتنة

مسجل بمعهد : اللغة والأدب العربي الجزائر

للسنة الجامعية : 1990/1989

الفرع : الأدب

لإعداد : الدكتوراه

رقم التسجيل : 876820094

الجزائر في 1989/11/08

مسؤول مصلحة الدراسات العليا

جامعة الجزائر مصلحة الدراسات العليا

ملاحظة : تسلم نسخة واحدة من هذه الشهادة على الراغب في نظائر ان يستخرج منها صورا مطابقة للأصل لدى مصالح البلدية.

شهادة التسجيل في الدكتوراه (1989)

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

المعهد الوطني للتعليم العالي

في اللغة والآداب العربية

بباتنة

الرقم: 50

شهادة عمل

نشهد نحن مدير المعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية بباتنة

أن . السيد : حليس الطاهر ....

المولود (ة) : . 1943.07.03 أولاد شليح . بباتنة ....

يشغل منصب : أستاذ مساعد ....

بالمعهد الوطني للتعليم العالي في اللغة والآداب العربية بباتنة منذ . 1982.10.31

والى هذا اليوم.

استخرجت هذه الشهادة بطلب من المعني لاستخدامها في . أغراض ادارية ....

....

باتنة في 1988.06.07

ملاحظة : تسلم نسختين فقط من هذه الشهادة خلال السداسي .

ا/ المدير

مدير الدراسات والبيداغوجية

علي خذري

شهادة عمل (1988)

République Algérienne
Démocratique et Populaire

MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR

LE MINISTRE

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

الوزير

-0- مقرر -0- رقم 308

ان وزير التعليم العالي.

بمقتضى المرسوم رقم 544.83 المؤرخ في 24 سبتمبر 1983 المتضمن القانون الاساسي النموذجي للجامعة ،

بمقتضى المرسوم رقم 122.84 المؤرخ في 19 ماي 1984 المحدد لصلاحيات وزير التعليم العالي

بمقتضى المرسوم رقم 182.84 المورخ في 04 أوت 1984 المتضمن احداث جامعة العلوم الاسلامية "الامير عبد القادر"

بمقتضى المرسوم رقم 119.86 المؤرخ في 6 ماي 1986 المتضمن احداث المجلس التنسيقي للمعاهد الوطنية للتعليم العالي ،

بمقتضى المرسوم رقم 177.86 المؤرخ في 5 أوت 1986 المكمل للاحكام المتعلقة بتنظيم جامعة العلوم الاسلامية "الامير عبد القادر" و سيرها ،

بمقتضى المرسوم رقم 59.85 المؤرخ في 23 مارس 1985 المتضمن القانون الاساسي النموذجي لعمال المؤسسات و الادارات العمومية ،

بمقتضى القرار الوزراي المشترك المؤرخ في 26 ديسمبر 1986 المتضمن التنظيم الاداري لجامعة العلوم الاسلامية "الامير عبد القادر".

-0- يقرر -0-

المادة الاولى : يعين السيد / حليس الطاهر مديرا بالنيابة لمعهد الشريعة الاسلامية بباتنة ، التابع لجامعة الامير عبد القادر للعلوم الاسلامية بقسنطينة اداريا و تربويا.

المادة الثانية : مدير معهد الشريعة الاسلامية ، عضو في المجلس التنسيق بين المعاهد الوطنية الواقعة بباتنة.

المادة الثالثة : يكلف كل من منسق المعاهد الوطنية للتعليم العالي الواقعة بباتنة ، و رئيس جامعة العلوم الاسلامية "الامير عبد القادر" بتنفيذ هذا المقرر.

المقرر الوزاري رقم: 308، بتعيين الأستاذ الطاهر حليس مديرا بالنيابة لمعهد العلوم الإسلامية بباتنة موقع من قبل وزير التعليم العالي البحث العلمي الأستاذ أبو بكر بلقايد رحمه الله، بتاريخ: 28 ديسمبر 1987

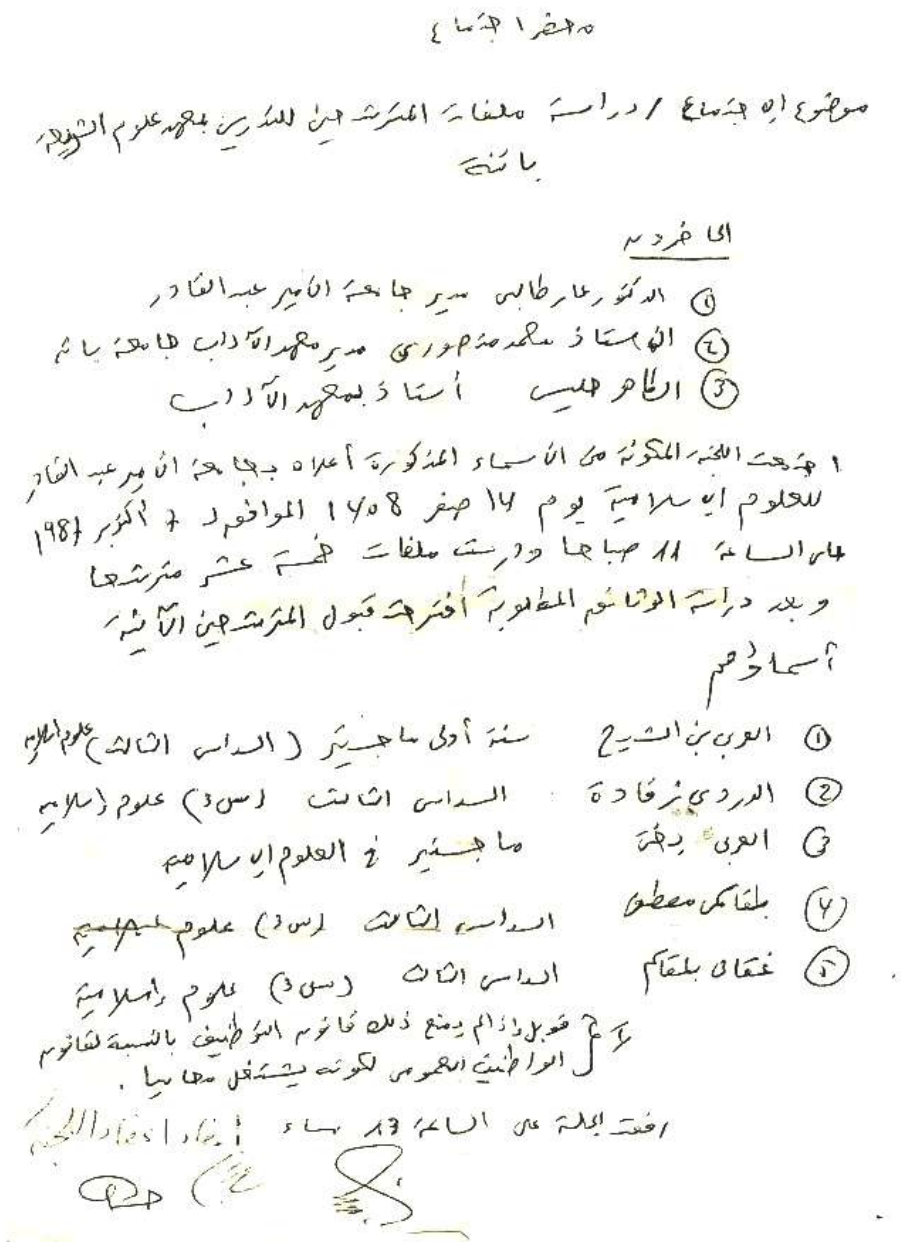
محضر اجتماع

موضوع الاجتماع / دراسة ملفات المترشحين للتدريس بمعهد علوم الشريعة باتنة

الحاضرون

1) الدكتور عمار طالبي مدير جامعة الأمير عبد القادر

2) الأستاذ محمد منصوري مدير معهد الآداب جامعة باتنة

3) الطاهر حليس أستاذ بمعهد الآداب

اجتمعت اللجنة المكونة من الأسماء المذكورة أعلاه بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية يوم 14 صفر 1408 الموافق لـ 7 أكتوبر 1987 على الساعة 11 صباحا ودرست ملفات خمسة عشر مترشحا وبعد دراسة الوثائق المطلوبة أقترحت قبول المترشحين الآتية أسماؤهم

1) العربي بن الشيخ سنة أولى ماجستير (السداسي الثالث) علوم إسلامية

2) الدردي زرقادة السداسي الثالث (س3) علوم إسلامية

3) العربي دهة ماجستير في العلوم الإسلامية

4) بلقاسم مصطفى السداسي الثالث (س3) علوم إسلامية

5) غفقان بلقاسم السداسي الثالث (س3) علوم إسلامية

قبول إذا لم يمنع ذلك قانون التوظيف بالنسبة لقانون الوظيف العمومي لكونه يشتغل مهنيا.

رفعت الجلسة على الساعة 13 مساء إمضاء أعضاء اللجنة

مسودة بخط يده لمحضر اجتماع بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة يوم 7 أكتوبر 1987 لتوظيف مجموعة من الأساتذة للتدريس على مستوى المعهد

Republique Algerienne
Démocratique et Populaire

INISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR

LE MINISTRE

284/90

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

الوزير

24 OCT 1990

مقرر رقم :

ان وزير الجامعات ،

- طبقا للمرسوم رقم 83 _ 543 المؤرخ في 24 سبتمبر 1984 المحدد للقانون الخاص للمعاهد الوطنية للتعليم العالي ،

- طبقا للمرسوم رقم 84 _ 182 المؤرخ في 4 أوت 1984 المتضمن انشاء جامعة العلوم الاسلامية الامير عبد القادر بقسنطينة ، المكمل .

يقرر :

المادة 1: في انتظار اصدار مرسوم إنشاء المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الاسلامية بباتنة تنظم ملحقة بباتنة لجامعة العلوم الاسلامية "الامير عبد القادر" بقسنطينة طبقا لإجراءات المرسوم رقم 84 _ 543 المؤرخ في 24 سبتمبر 1984.

المادة 2: يكلف مدير الديوان ورئيس جامعة العلوم الإسلامية " الأمير عبد القادر" بقسنطينة كل فيما يخصه ، بتنفيذ هذا المقرر الذي سينشر في النشرة الرسمية للتعليم العالي.

حرر بالجزائر في ....

وزير الجامعات

مصطفى شريف

مقرر تنظيم ملحقة باتنة لجامعة الأمير عبد القادر قبل صدور مرسوم إنشاء المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية بباتنة، بتوقيع الدكتور مصطفى شريف وزير الجامعات بتاريخ: 24 أكتوبر 1990

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،

الأستاذ الأكرم السيد مدير معهد العلوم الشرعية الفاضل الطاهر حليس

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فإني أسأل الله عز وجل أن تصلكم رسالتي هذه وأنتم تنعمون بوافر الصحة والأمن والأمان.

أخي الكريم أشكر لكم حسن ضيافتكم وإكرامكم وأسأل المولى العلي القدير أن يجزل لكم الأجر والمثوبة ويكافئكم على حسن صنيعكم مع من تعتقدون فيه الخير والفضل، كما أسأله أن يرزقنا جميعاً الصدق في القول والإخلاص في العمل، وأن يكرمني بلقياكم في دمشق ثانية لعلي أقابلكم بشيء على ما أسديتم إلي من معروف

أخي الكريم أرسلت إليكم نسخة من كتاب الإتقان في علوم القرآن لتعطوها إلى دار الشهاب ليقوموا بطبعها. ونسختين من مختصر صحيح مسلم لتعطوا واحدة منها إلى الأستاذ حمدي ليقوم زميله أبو تقي الدين صاحب مكتبة الزيتونة، وأرجو أن تلفتوا نظره إلى تكبير الحرف إن أمكن عند التصوير. وهذه النسخة الثانية هدية إلى المعهد، وأنا سأبعث إليكم إن شاء الله تعالى مع طالب من باتنة بالذات بعضاً من الكتب ولم أرغب أن أثقل على الأخ الذي كلفته بهذه النسخ.

ختاماً سلامي إلى السيد الحاج رئيس اللجنة وإلى الأساتذة الأفاضل وإلى ج. الذي [illegible] والسادة الطلاب الأجلة من بلدكم مع طلب الدعاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مصطفى البغا

رسالة من الدكتور مصطفى ديب البغا

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق في ٢/١١/١٤١٠هـ
٢٦/٥/١٩٩٠م

الأخ الفاضل الأستاذ حليس الطاهر حفظه الله ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من عند الله مباركة طيبة، وبعد:
فإني وصلت الوطن سورية بحمد الله تعالى وسلامته، بعد أن فارقت القطر الحبيب والبلد الشقيق الجزائر، وودعت فيه الأهل والأحبة والزملاء، وخلفت جزءًا من قلبي وعقلي في البلد المبارك «باتنة» و«قسنطينة»، وحملت أسمى المشاعر والانطباعات على المشاهد التي رأيتها، والإخوة الذين لقيتهم والطلاب الذين عشت معهم.

أخي الكريم: لقد ودعتكم صباح الثلاثاء ٢٢/٥/١٩٩٠م، ووصلنا الجزائر العاصمة قبل الظهر مع السائق الشهم، وزميله الكريم، ودخلت المطار، وبعد الجلوس بقليل حضر بعض طلابنا الكرام، المتخرجين من جامعة دمشق، وتشاورنا معهم في مخططات رسائلهم في الماجستير، ثم قدموا لنا المساعدة الكاملة في إجراءات السفر في المطار، ثم وصلنا سورية مساء، والتقينا بالأهل والأولاد، وهم بخير والحمد لله.

أخي الفاضل: لقد كنت سعيدًا إلى أقصى غاية في هذه الزيارة كأستاذ زائر، وإلقاء المحاضرات العلمية على طلبة معهد الشريعة الذين تتحملون عبء أعبائه وإدارته وتوجيهه، وسعدت بالروح العلمية عند الطلاب والطالبات، وبالطموح السامي نحو التعلم والتحصيل العلمي، والنهم في المعارف، كما شعرت أنكم أرهقتم كاهلي بأخلاقكم الفاضلة، ومكارم الأخوة، ورعايتكم الدائمة، وكرمكم الأصيل، والتضحية بالوقت في الجولات العديدة التي رافقتكم بها، وخاصة بالفرصة الذهبية بالتعرف على الزملاء الأفاضل، والأساتذة الكرام، والأحبة من جميع الإطارات، وأخص بالذكر الحاج الأخضر، والأستاذ بوزرزور والدكاترة أبو حطب والغزالي والكبيسي والجابي والأستاذ بودرس... وغيرهم، وهم كثر والحمد لله، وإني أهنئكم بعشرتهم، وتعاملك معهم، فجزاهم الله خيرًا، وجزاكم الله عنا خير الجزاء، وبارك الله فيكم، وأخذ الله بيدكم، وسدد خطاكم، ووفقكم لما يحبه ويرضاه.

وقد بلغت تحياتكم وسلامكم ورغباتكم إلى الإخوة والزملاء في الكلية، ونقلت لهم الصورة المشرقة عن الجزائر الشقيق، ومعهدكم المبارك، وعن معاملاتكم السامية، وأخلاقكم الرضية، والجميع يبادلونكم الود والتحية والتقدير، ويتمنون لكم وللقطر وللجامعة وللمعهد كل خير ونجاح وتوفيق.

وأخيرًا: أكرر لكم التحية، والشكر، والتقدير، والمحبة الأخوية، كما أهدي سلامي إلى جميع العاملين في المعهد، وإلى جميع المعيدين والأساتذة والدكاترة والإدارة والجميع،

ودمتم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخوكم المشتاق لكم والداعي لكم
بالتوفيق د. محمد الزحيلي

رسالة من الدكتور محمد مصطفى الزحيلي

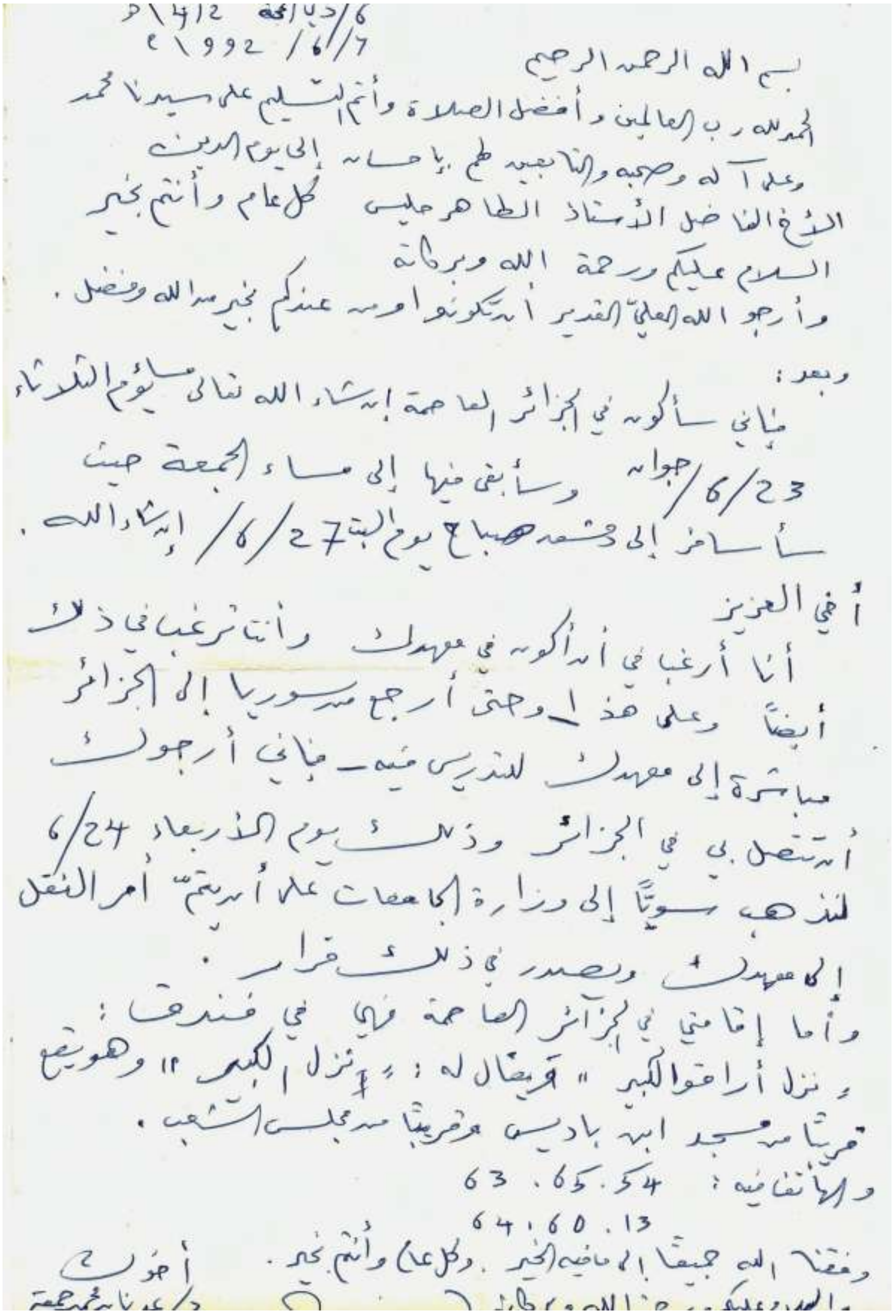

6/ ذو الحجة/ 1412 هـ
7/ 6/ 1992 م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

الشيخ الفاضل الأستاذ الطاهر حليس   كل عام وأنتم بخير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
وأرجو الله العلي القدير أن تكونوا ومن عندكم بخير من الله وفضل.

وبعد:
فإني سأكون في الجزائر العاصمة إن شاء الله تعالى مساء يوم الثلاثاء
23/6/ جوان وسأبقى فيها إلى مساء الجمعة حيث
سأسافر إلى دمشق صباح يوم السبت 27/6/ إن شاء الله.

أخي العزيز
أنا أرغب في أن أكون في معهدك وأنت ترغب في ذلك
أيضًا وعلى هذا وحتى أرجع من سوريا إلى الجزائر
مباشرة إلى معهدك للتدريس فيه – فإني أرجوك
أن تتصل بي في الجزائر وذلك يوم الأربعاء 24/6
لنذهب سويًا إلى وزارة الجامعات على أن يتم أمر النقل
إلى معهدك ويصدر في ذلك قرار.
وأما إقامتي في الجزائر العاصمة فهي في فندق:
"نزل أراقو الكبير" ويقال له: "نزل الكبير" وهو يقع
قريبًا من مسجد ابن باديس وقريبًا من مجلس الشعب.
والهاتف: 63.65.54
64.60.13
وفقنا الله جميعًا إلى ما فيه الخير. وكل عام وأنتم بخير.

أخوك
د/ عدنان محمد جمعة

والسلام عليكم ...

رسالة من الدكتور عدنان محمد جمعة رحمه الله

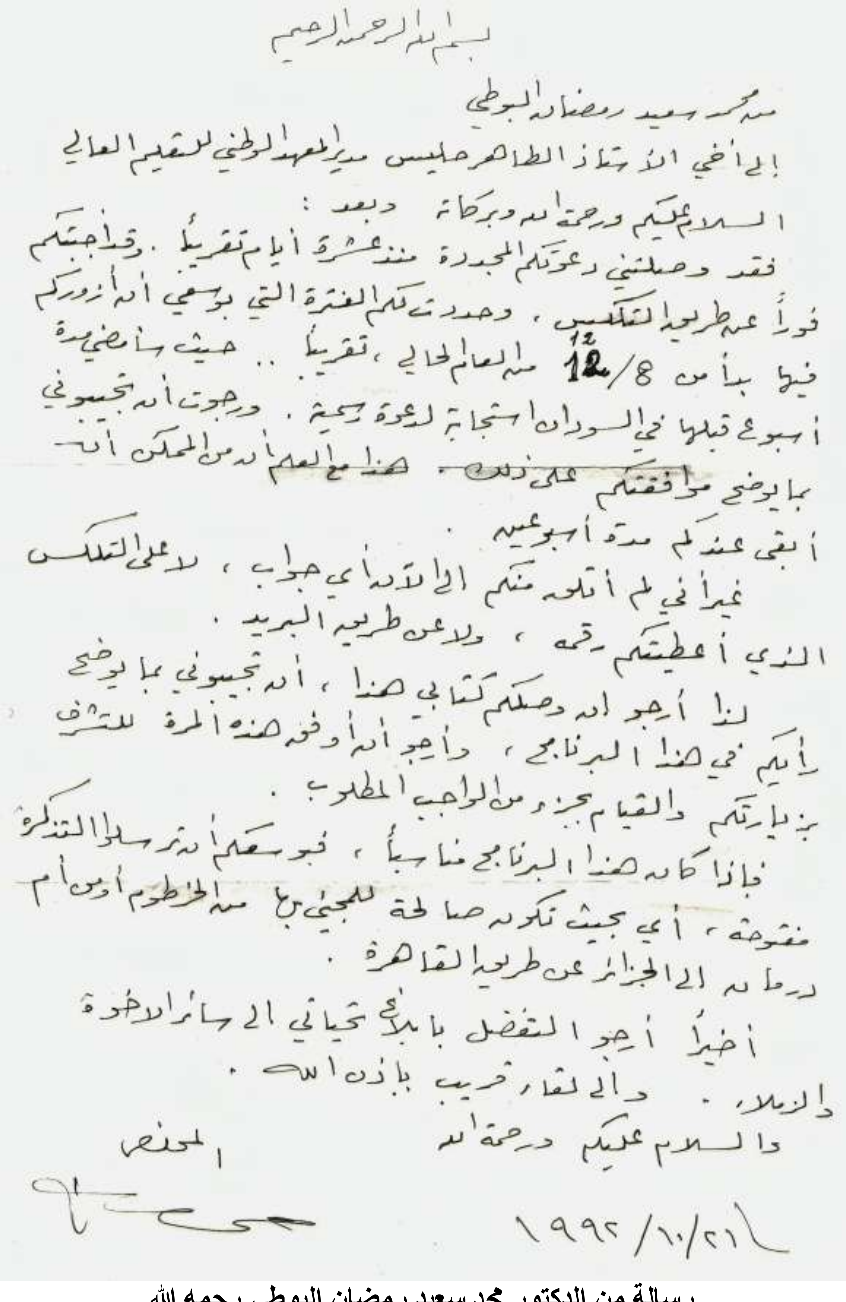

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد سعيد رمضان البوطي

إلى أخي الأستاذ الطاهر حليس مدير المعهد الوطني للتعليم العالي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد وصلتني دعوتكم المجددة منذ عشرة أيام تقريباً. وقد أجبتكم فوراً عن طريق التلكس، وحددت لكم الفترة التي يوسعني أن أزوركم فيها بدأ من 8/12 من العام الحالي، تقريباً.. حيث سأمضي مدة أسبوع قبلها في السودان استجابة لدعوة رسمية. ورجوت أن تجيبوني بما يوضح موافقتكم على ذلك. هذا مع العلم أنه من الممكن أن أبقى عندكم مدة أسبوعين.

غير أني لم أتلق منكم إلى الآن أي جواب، لا على التلكس الذي أعطيتكم رقمه، ولا عن طريق البريد.

لذا أرجو إن وصلكم كتابي هذا، أن تجيبوني بما يوضح رأيكم في هذا البرنامج، وأرجو أن أوفق هذه المرة للتشرف بزيارتكم والقيام بجزء من الواجب المطلوب.

فإذا كان هذا البرنامج مناسباً، فبوسعكم أن ترسلوا التذكرة مفتوحة، أي بحيث تكون صالحة للمجيء من الخرطوم أو من أم درمان إلى الجزائر عن طريق القاهرة.

أخيراً أرجو التفضل بإبلاغ تحياتي إلى سائر الإخوة والزملاء. وإلى لقاء قريب بإذن الله.

والسلام عليكم ورحمة الله

المخلص

١٩٩٢/١٠/٢٦

رسالة من الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي رحمه الله

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

المعهد الوطني للتعليم العالي
للعلوم الاسلامية -باتنة
رقم 96/005

وزارة التعليم العالي
والبحث العلمي

قرار

29 MAI 1996

المراقب المالي

ان وزير التعليم العالي والبحث العلمي

- بمقتضى المرسوم رقم 85/59 المؤرخ في 23 مارس 1985 المتضمن القانون الاساسي النموذجي لعمال المؤسسات والادارات العمومية.
- بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 99/90 المؤرخ في 27 مارس 1990.
- بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 122/89 المؤرخ في 1989/07/18 المتضمن القانون الاساسي الخاص بالعمال المنتمين للاسلاك التابعة للتعليم والتكوين العاليين.
- بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 01/93 المؤرخ في 19 جانفي 1993 المتضمن لقانون المالية لسنة1993 لاسيما المادة 145منه .
- بمقتضى المرسوم التنفيذي رقم 86/94 المؤرخ في 10 افريل 1994 المتعلق بمعاش الخدمة و تعويض الاضرار الناجمة عن اعمال الارهاب.

-بناء على القرار المؤرخ في 1987/12/21 المتضمن تعيين السيد /حليس الطاهر في رتبة استاذ مساعد.

- بموجب القرار رقم 95/61 المؤرخ في 1995/09/26 المتضمن ترقية السيد (ة): حليس الطاهر في الدرجة الثامنة الرقم الاستدلالي934 ابتداء من:1994/07/01.
- بمقتضى المقرر رقم 516/ديوان المؤرخ في 1995/02/15الصادر عن وزير الداخلية و الجماعات المحلية المتضمن تصنيف المعني من ضحايا الارهاب .
- باقتراح من مدير المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الاسلامية بباتنة .

يقرر

المادة الأولى: يعين السيد : **حليس الطاهر** استثنائيا في رتبة :**أستاذ محاضر** ابتداء من : 1994/10/21.

يرتب المعني بالامر من الصنف : أ القسم :02 الدرجة:08 الرقم الاستدلالي: 1176.

المادة الثانية : يرقى المعني في الدرجات في سلك الجديد الى غاية تاريخ الاحالة على التقاعد .

المادة الثالثة : يكلف كل من السيد مدير الموظفين ومدير المعهد بتنفيذ هذا القرار الذي سينشر في سجل القرارت الادارية .

حرر في 27 MAY 1996

عن الوزير وبتفويض منه
مدير المعهد

محمد خزار

قرار الترقية إلى رتبة أستاذ محاضر

من أنشطته في إطار محافظة حزب جبهة التحرير بباتنة

تدخل في ملتقى حول الثورة التحريرية

أثناء متابعته لمحاضرة في أحد الملتقيات

بعد نهاية مناقشة رسالته في الماجستير، على يساره كل من الدكتور محمد منصوري رحمه الله مدير معهد الآداب حينئذ والدكتور جودت الركابي عضو لجنة المناقشة، وعلى يمينه أحد معارفه ومشرفه الدكتور شرارة

على يساره كل من الدكتور أحمد عقون وأحد زملائه والدكتور أحمد رحماني

على يمينه كل من الأستاذ عبد الحميد مهدي والدكتور علي براجل

في مكتب الجمعية الدينية لمسجد أول نوفمبر 1954، ويظهر في الصورة كل من الرائد مصطفى مراردة، والعقيد الحاج لخضر، والمهندس الجمعي لغدير رحمهم الله جميعا

مع كل من الحاج لخضر والأستاذ العربي مومن رحمهم الله جميعا

مع الشيخ محمد الغزالي والدكتور عمار طالبي في دار الثقافة بباتنة سنة 1985

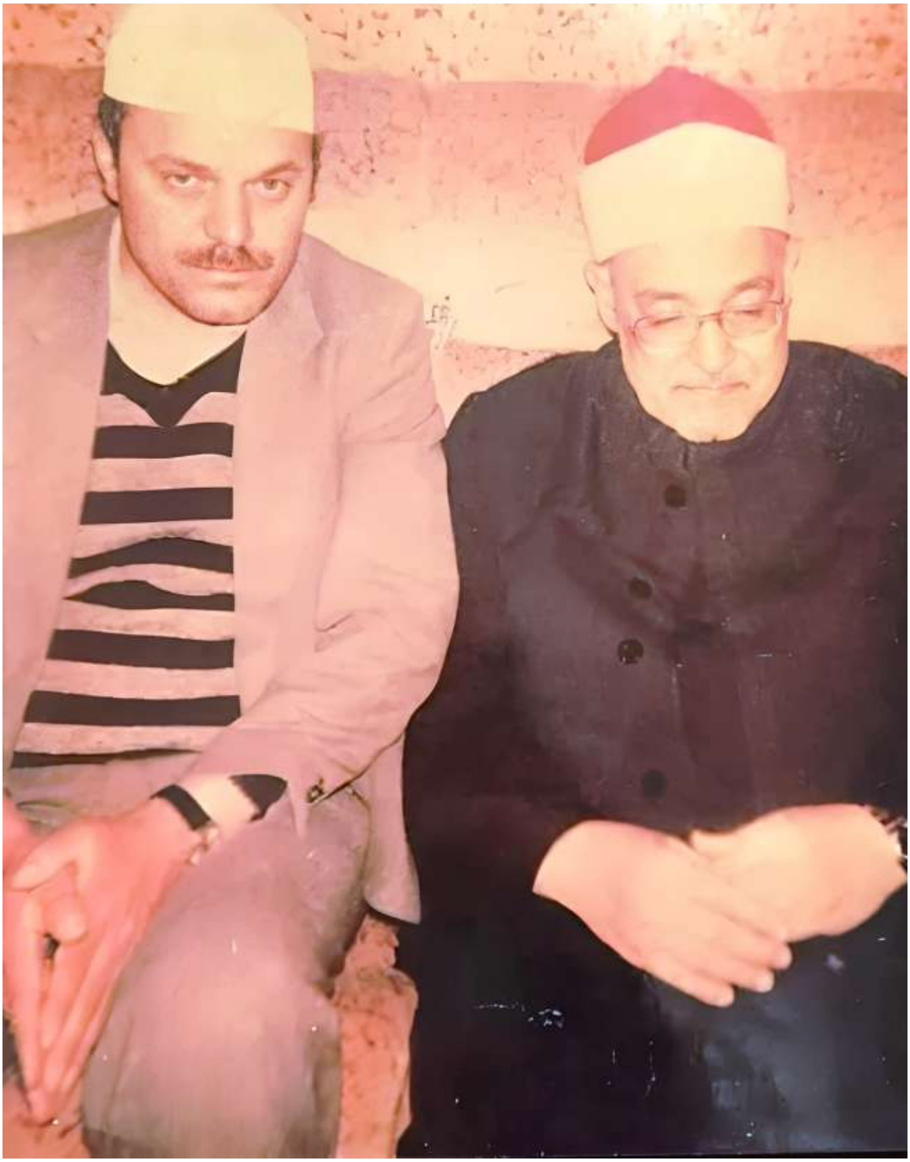

مع الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في زيارته لمدينة باتنة سنة 1985

في محافظة الحزب بباتنة وعلى يساره السيد عمار مخلوفي وزير الطاقة الأسبق

مع الأستاذ محمد الطاهر عزوي رحمه الله في إحدى المناسبات

مع الشيخ الدكتور مصطفى ديب البُغا (سوريا) في إحدى زياراته للمعهد

مع الشيخ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في محاضرة له بمناسبة زيارته للمعهد

من صوره الشخصية

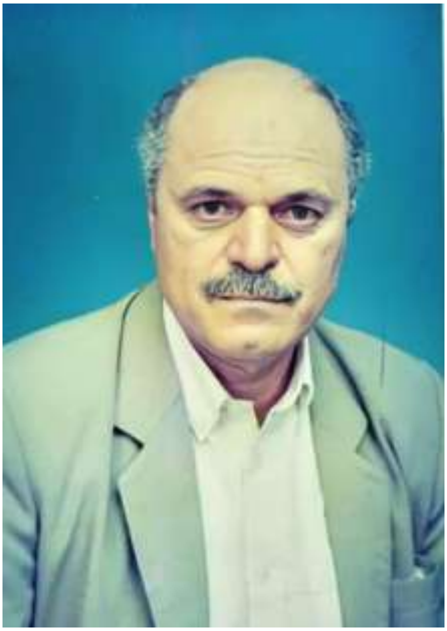

من صوره الشخصية

مع زميله الدكتور محمد منصوري رحمه الله

مع زميله الدكتور محمد منصوري رحمه الله

مع بعض طلبة المعهد

في خرجة سياحية مع أحد أصدقائه

جدارية مُعَرِّفة به في بهو الكلية

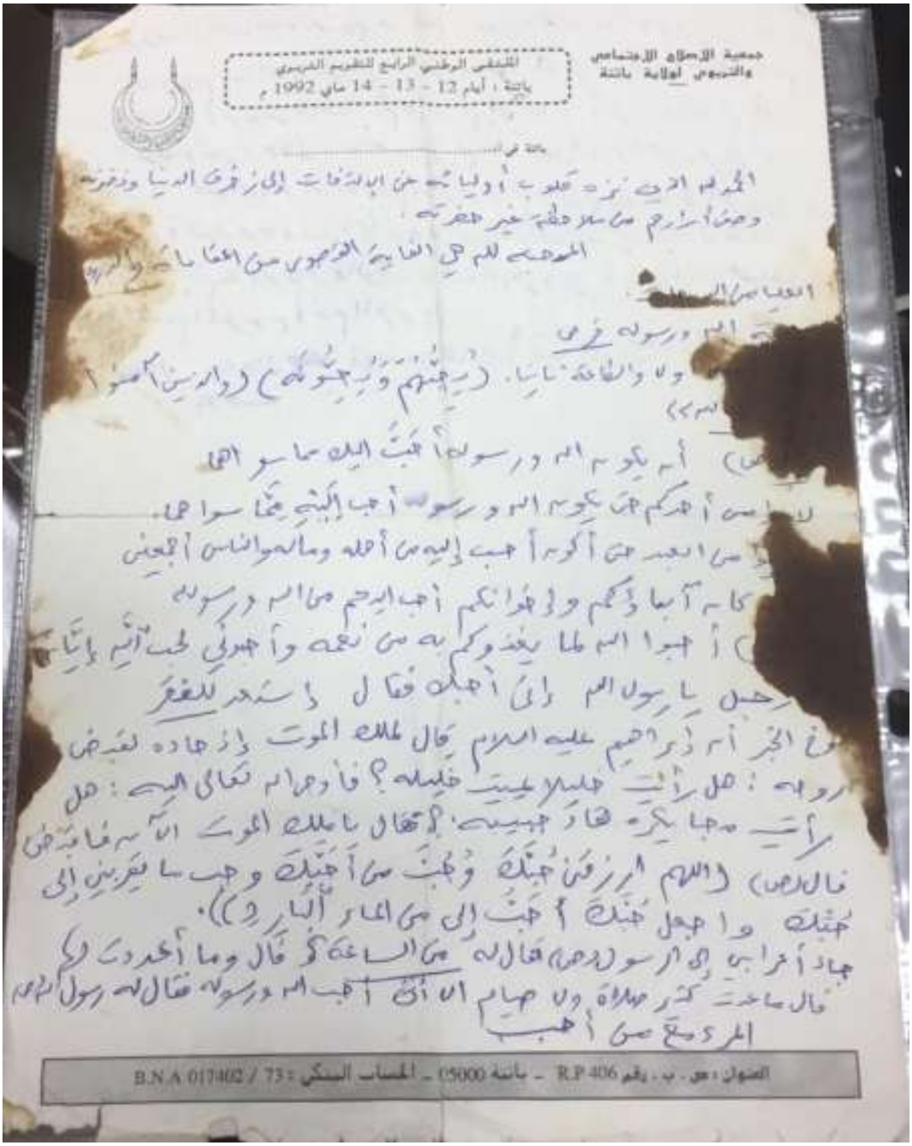
جمعية الإصلاح الاجتماعي
والتربوي لولاية باتنة

الملتقى الوطني الرابع للتقويم التربوي
باتنة: أيام 12 - 13 - 14 ماي 1992 م

باتنة في ....

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه من الالتفات إلى زخرف الدنيا و[illegible]
و[illegible] أرواحهم من [illegible] غير حضرته.
الموجب لهم في الغاية القصوى من العنايات [illegible]
العنايات السنية [illegible]
[illegible] الله ورسوله [illegible]
[illegible] والطاعة ثانيا. (يحبهم ويحبونه) (والذين آمنوا
[illegible])
[illegible] أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما
لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.
[illegible] من العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين
[illegible] كان آباؤكم وإخوانكم أحب إليكم من الله ورسوله
[illegible] أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي
رجل يا رسول الله إني أحبك فقال استعد للفقر
وفي الخبر أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض
روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل
رأيت محبا يكره لقاء حبيبه؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض
قال (ص) ((اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى
حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد)).
جاء أعرابي إلى الرسول (ص) فقال له متى الساعة؟ قال وما أعددت لها
قال ما أعددت كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله (ص)
المرء مع من أحب

العنوان: ص. ب. رقم R.P 406 - باتنة 05000 - الحساب البنكي: B.N.A 017402 / 73

مسودة خطبته الأخيرة التي كانت في جيبه يوم اغتياله

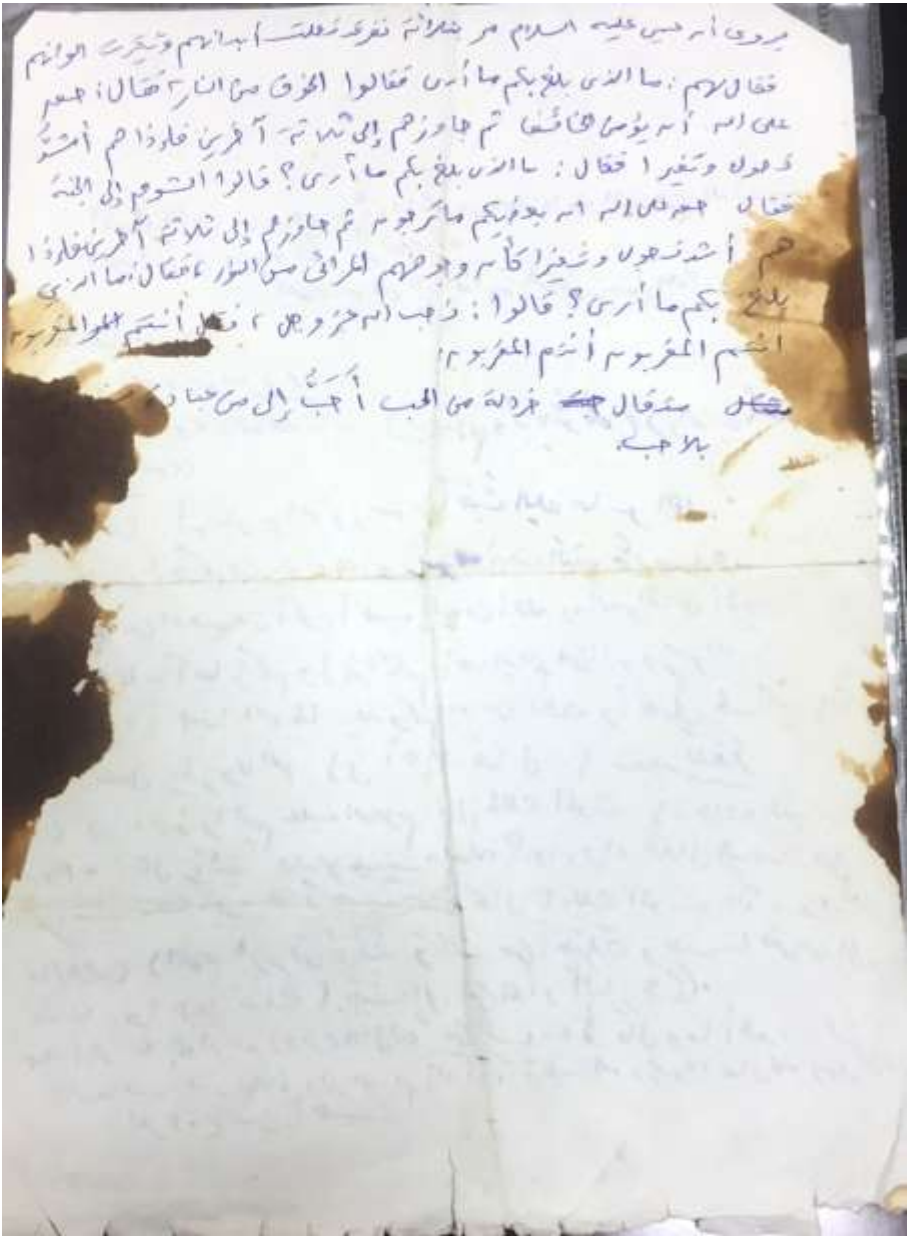
يروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة. فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون.

وقال سقطي: ذرة من الحب أحبّ إلي من عبادة بلا حب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

شهادة تقدير

يسعد الرابطة الجزائرية للفكر والثقافة أن تتقدم بهذه الشهادة التقديرية

لـ : الأستاذ : الطاهر حليس

تقديراً للجهود النبيلة والخدمات الجليلة المقدمة لتعزيز الفكر والثقافة .

بباتنة في 16 / 11 / 1414هـ

الموافق لـ 27 / 4 / 1994م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
المجلس الشعبي البلدي
لبلدية باتنة

شهادة تقدير

يتشرف المجلس الشعبي البلدي لبلدية باتنة بمنح هذه الشهادة التقديرية
للسيد المرحوم الدكتور/ حليس الطاهر
عرفانا وتقديرا على ما قدم من خدمة للعلم والمعرفة

16 افريل 2000
رئيس المجلس الشعبي البلدي

بسم الله الرحمن الرحيم

ولاية باتنة

نظارة الشؤون الدينية

الجمهورية الجزائرية

الديمقراطية الشعبية

شهادة تكريم

تمنح للسيد : الطاهر حليس

المولود بتاريخ: 3 جويلية 1943. مكان الميلاد : باتنة

شهادة تكريم، تقديرا لجهوده التي بذلها في

خدمة بيوت الله وتعميرها.

الوالي

م . ق . جباري

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العقيد الحاج لخضر باتنة
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية

شهادة تقدير

بمناسبة احتفال تخرج الدفعة الحادية عشر للعلوم الإسلامية، يسر أسرة وعميد كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية بجامعة العقيد الحاج لخضر -باتنة- أن يمنح هذه الشهادة الشرفية: للمرحوم الدكتور حليس الطاهر، تقديرا له على المجهودات التي بذلها في بناء مجمع أول نوفمبر 54 وتطوير وترقية المعرفة الإسلامية بهذه الكلية.

عميد الكلية

قبسات

من ثورة نوفمبر 1954
كما عايشها
العقيد الحاج لخضر
قائد الولاية الأولى

كتبها :

الطاهر حليس

شركة الشهاب الجزائر

الصفحة الأولى من كتاب مذكرات الحاج لخضر رحمه الله الصادرة سنة 1991م

غلاف رسالته التي نال بها درجة الماجستير بعد طبعها في كتاب سنة 1996م

البصائر — أعلام — الاثنين 26 محرم 02 صفر 1434 هـ - 10 ديسمبر 2012 العدد: 630 — 11

أستاذي الشيخ الطاهر حليس كما عرفته

بقلم: الدكتور مسعود فلوسي

قبل ثمانية عشر عاما، غادر الدنيا إلى غير رجعة، أستاذنا الشيخ الطاهر حليس رحمه الله، أول مدير للمعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية في باتنة.. خلال هذه المدة أنسانا تتابع الأيام وتوالي الليالي ومر الشهور والأعوام أن نذكر أستاذنا بما يستحق وأن نشيد بخصاله التي تميز بها. لقد انصرف كل واحد من تلاميذه وزملائه إلى خاصة نفسه واشتغل بما يعنيه، ناسين ما لهذا الرجل من فضل وما يجب له من حق. وهذه المقالة الوجيزة محاولة للتعريف به وذكر بعض ما تميز به من فضائل وما تحلى به من خصال.

معرفتي بــه

تعود معرفتي بأستاذي الشيخ الطاهر حليس رحمه الله، أو الحاج سي الطاهر كما كان يعرفه الناس في باتنة، إلى أيام المرحلة الثانوية، حيث كنت أزاول دراستي في ثانوية عائشة أم المؤمنين بحي بوزوران في مدينة باتنة، وكنت عند العودة إلى البيت أسلك طريقي عبر شارع الاستقلال (طريق بسكرة)، وأمر رفقة بعض زملائي أمام مقر محافظة حزب جبهة التحرير الوطني، وكان الحزب الوحيد حينئذ أين كان الحاج الطاهر حليس يشغل منصب نائب محافظ مكلف بالثقافة. وكانت المحافظة في إطار نشاطها الثقافي تنظم ندوات وملتقيات دورية، وعادة ما تجري فعاليات تلك الندوات والملتقيات في المساء، وكان الأستاذ الطاهر حريصا على حضور الطلبة واستفادتهم مما يُلقى من محاضرات، ولذلك كان يعترض طريقنا عندما نكون بصدد العودة إلى بيوتنا حين نخرج من الثانوية، ويصر علينا أن ندخل إلى قاعة المحاضرات في المحافظة لنستمع إلى ما يقوله المتدخلون من أساتذة وباحثين، ويؤكد علينا أن في ذلك فائدة كبيرة لا ينبغي أن نضيعها.

وفي تلك المرحلة كانت جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قد افتُتحت في قسنطينة، وكان يُدرِّس فيها عدد من العلماء من جنسيات مختلفة، فكان الأستاذ الطاهر حريصا على استقدامهم وتعريف أهل باتنة بهم، وأذكر أنه استقدم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله والدكتور عمار طالبي والدكتور جبر الفضيلات الأردني وغيرهم، وكان يطوف على المساجد ويعلن للناس عن هذه المحاضرات ويدعوهم إلى حضورها والانتفاع منها.

وعندما حصلت على شهادة البكالوريا كان في نيتي أن ألتحق بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة، وفعلا ذهبت إلى هناك وشاركت في مسابقة الدخول، وكنت من بين الناجحين، ولكنني عرفت بعد ذلك أن معهد العلوم الإسلامية بباتنة سيُفتتح في تلك السنة أيضا (سبتمبر 1987)، ولذلك بادرت إلى التسجيل ضمن قائمة طلبة أول دفعة تدخل هذا المعهد.

انطلقت الدراسة في المعهد وتم إلحاقه مبدئيا بمعهد الشريعة في جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة، كما تم تعيين الحاج الطاهر حليس - الذي كان حينئذ أستاذا بمعهد الآداب - مديرا له.

جهـــوده في إدارة المعهـــد

كانت صلتنا نحن طلاب المعهد بالشيخ الطاهر دائمة ومستمرة، فقد كان عددنا قليلا، إضافة إلى أن اهتمامه بنا كان مستمرا فكان يستطلع آراءنا ويستمع إلى انشغالاتنا ويحرص على تحقيق ما أمكن تحقيقه من طلباتنا.

وخلال أربع سنوات من الدراسة، رأينا اهتمامه الشديد بالتحصيل العلمي، وحرصه على انتظام الدروس، وتفانيه في توفير الأساتذة وتهيئة الظروف المساعدة لهم على العمل والإفادة.

وكان من دأبه خلال تلك السنوات أن يدعو أساتذة زائرين من خارج الجزائر لتقديم محاضرات إضافية، وكان ممن حضر وحاضر جملة من كبار الأساتذة المشهورين في العالم الإسلامي، أذكر منهم: أ.د. مصطفى ديب البغا (سوريا)، أ.د. محمد الزحيلي (سوريا)، أ.د. طه جابر فياض العلواني (العراق)، أ.د. أبو اليزيد العجمي (مصر)، أ.د. سليمان الخطيب (مصر)، أ.د. محمد حسن هيتو (الكويت)، أ.د. يوسف القرضاوي (قطر) وغيرهم. وأذكر أن محاضرات هؤلاء الأساتذة كان الناس يجتمعون من أنحاء المدينة لحضورها والاستماع إليها، ولم تكن مقصورة على طلبة المعهد وحدهم، وهو ما جعل المعهد حينئذ قِبْلة لأهل باتنة ومركز إشعاع علمي حقيقي.

تتلمذنا على يديــه

درَّسنا الشيخ الطاهر حليس في السنتين الثالثة والرابعة مادة البلاغة، وكان يرجع إلى بعض الكتب المهمة في هذه المادة ومنها كتاب (البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل حسن عباس رحمه الله، وكتاب (البلاغة العربية) للدكتور عبد العزيز عتيق، وغيرهما. وكان يدرسنا بطريقة متميزة تجمع بين الجد والفكاهة، ومن ذلك أننا كنا نسأله أحيانا عن بعض المسائل المشكلة في البلاغة محاولين فهمها، فيقول مازحا: وما دخلي أنا اسألوا عنها الجرجاني أو السكاكي أو غيرهما من علماء البلاغة، ثم يبتسم ويجيب.

بعد أربع سنوات من الدراسة، وقبل انتهاء السنة الرابعة صدر المرسوم الحكومي بترسيم استقلال المعهد عن جامعة الأمير عبد القادر وتسميته (المعهد الوطني للتعليم العالي للعلوم الإسلامية)، ومع ذلك فقد تخرجت الدفعة الأولى (جوان 1991) تحت وصاية جامعة الأمير عبد القادر حيث حضر الأستاذ الدكتور أحمد عروة رحمه الله مدير الجامعة حينئذ إلى باتنة ووقع شهادات الليسانس وأشرف على حفل التخرج.

وبعد أسبوعين أو ثلاثة من التخرج بشهادة الليسانس في العلوم الإسلامية، التقيت أستاذنا الشيخ الطاهر، وبعد أن سألني عن أحوالي وما أفكر في عمله بعد تخرجي، أخبرني رحمه الله أنه تم اختياري أنا وزميلي صالح بوبشيش وزميلتين أخريين للالتحاق بالمعهد لمعاونة الأساتذة في التدريس كمطبقين، مع العمل في الإدارة والتكفل بالجانب البيداغوجي، وأوصاني بتحضير ملف التوظيف في أسرع وقت.

وفعلا التحقت بالمعهد وزملائي الثلاثة، في بداية شهر أوت 1991. وفي بداية السنة الجامعية (1991-1992) كلفنا الشيخ الطاهر بتدريس بعض المقاييس كمطبقين.

فتـــح الدراســـات العليـــا

لكن طموح الشيخ الطاهر لم يكن ليتوقف عند هذا الحد، فقد كان هاجسه الأكبر هو دفعنا إلى التكوين العلمي العالي وتمكيننا من ولوج عالم البحث العلمي، ولذلك سعى إلى فتح الماجستير على مستوى المعهد، رغم حداثة المؤسسة وقلة الإمكانات.

وقد أثمر سعيه، إذ لم يلبث طويلا حتى تمكن من الحصول على ترخيص من وزارة التعليم العالي بفتح الماجستير، وأجريت حينئذ مسابقة لاختيار الطلبة، نجح فيها مجموعة من المترشحين من طلبة المعهد وطلبة جامعة الأمير عبد القادر وكنت واحدا منهم.

حرص الشيخ الطاهر على أن يوفر لنا الأساتذة الأكفاء المؤهلين لتدريسنا المواد المقررة، وفعلا تم تكليف الدكتور يوسف حسين أحمد الذي درسنا الأصول والفقه المقارن، والدكتور علي عبد الفتاح المغربي رحمه الله الذي درسنا منهجية البحث العلمي، كما تم استقدام أستاذ من جامعة الأمير عبد القادر هو أستاذنا في التفسير والحديث الدكتور محمد الطاهر الجوابي رحمه الله.

انتهت الدروس النظرية، وجاء موعد اختيار الموضوعات لتسجيلها على مستوى المجلس العلمي، واخترت أن أبحث في موضوع (مدرسة المتكلمين ومنهجها في دراسة القواعد الأصولية)، على أن يكون المشرف هو الدكتور محمد الطاهر الجوابي (تونس)، واختار زميلي صالح بوبشيش موضوع (الحيل الفقهية ضوابطها وتطبيقاتها على الأحوال الشخصية) مع نفس المشرف.

ورغم أننا كنا نعمل كإداريين، أنا وزميلي صالح، إلا أن الشيخ الطاهر سمح لنا أن نخصص أكبر وقت ممكن للعمل في البحث، وما هي إلا سنة حتى كنا قد أعددنا رسالتينا، بعد أن أصبح المشرف عليَّ هو الدكتور يوسف حسين أحمد (الهند)، والمشرف على زميلي صالح هو الدكتور حسيب حسن السامرائي (العراق)، وتم تشكيل لجنتي القراءة على مستوى المجلس العلمي.

بعد وصول التقارير بصلاحية الرسالتين للمناقشة، كان لابد من الحصول على رخصة المناقشة من وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العاصمة، ولذلك سافر الشيخ الطاهر بنفسه مرتين إلى العاصمة وجاء برخصة المناقشة، بعد أن تكبد متاعب مضنية.

وكان اليوم المشهود يوم المناقشة 15 جوان 1994م حيث أقبل الناس من كل حدب وصوب لحضور مناقشة أول رسالتي ماجستير على مستوى المعهد، وقد غصت بهم القاعة الكبرى لمسجد أول نوفمبر وتمت مناقشة رسالة أخي صالح في الصباح ورسالتي في المساء، وحصلنا على شهادة الماجستير هو في الفقه وأنا في الأصول.

فرحـــة لم تـــدم

وإن نسيت فلست أنسى تلك الفرحة الغامرة التي ملأت نفس أستاذنا الشيخ الطاهر حليس، وظهرت جلية على محياه، وعبر عنها بلسانه عدة مرات. وهي الفرحة نفسها التي ظهرت على وجه الرجل الكريم المجاهد العقيد الحاج لخضر رحمه الله، الذي حضر المناقشتين، وظل جالسا مستمعا ومتابعا لما يقوله الأساتذة المناقشون منذ الصباح إلى آخر المساء.

أيام قليلة بعد ذلك، وافق المجلس العلمي على ترقيتي وزميلي صالح بوبشيش إلى منصب أستاذ مساعد، وبذلك اكتملت فرحتنا بفرحة أستاذنا الدكتور الطاهر حليس رحمه الله.

لكن هذه الفرحة لم تدم طويلا، إذ بعد ثلاثة أشهر امتدت أيادي الغدر والإجرام لتغتال أستاذنا الكريم، ففي مساء يوم الجمعة (21 أكتوبر 1994)، وبعد أن صلى المغرب في مسجد علي بن أبي طالب بحي كموني، وهو أقرب المساجد إلى بيته، ولما خرج منه وكان في طريق عودته إلى بيته، اعترض طريقه من أطلق عليه النار فأصابه برصاصة أو بضع رصاصات في رأسه، سقط إثرها شهيدا مضرجا بدمه. وفي اليوم الموالي تم تشييع جنازة أستاذنا بعد أن صُلي عليه في مسجد أول نوفمبر، وقد سار خلف نعشه الآلاف من أهل باتنة الذين يعرفون فضله وأعمال الخير التي كان يشارك فيها. وبعد كلمة التأبين التي ألقاها الدكتور أحمد رحماني، تم دفن الفقيد إلى جوار أمه رحمها الله والتي كانت قد توفيت قبله بشهر أو أكثر قليلا.

خصالــه النـــادرة

واليوم، وبعد ثمانية عشر عاما من رحيل أستاذنا رحمه الله، نذكره بخصاله الكريمة وأخلاقه العالية التي كان يتمتع بها ويتميز بها عن كثير من الناس.

لقد كان يتميز بتواضع مثالي لا نظير له، فما عاملنا يوما على أننا تلاميذه أو مرؤوسوه وإنما كان يعاملنا كإخوة وأصدقاء، فكان لا يَمَلُّ جلوسَنا معه في مكتبه، وإذا غاب أحدُنا أو تأخر قليلا في الحضور سأل عنه ولامه على عدم المجيء إليه.

وكنت شخصيا أجلس معه في مكتبه كثيرا، وعندما نكون لوحدنا كان يخرج من محفظته مبحثا أو فصلا من رسالته، ويناولنيه ويخاطبني قائلا: اقرأه وانظر ما يحتاج منه إلى تقويم فقومه، رغم أني تلميذه وفي عمر أكبر أبنائه. وفعلا كنت أقرأ العمل وإذا وجدت فيه خطأ من أي نوع أشرت عليه، وعندما أجلس معه من جديد أذكر له ما وجدته من أخطاء، وهي في العادة أخطاء بسيطة جدا، نتيجة السرعة في الكتابة أو السهو في النقل، فيأمرني قائلا: وماذا تنتظر لكي تصححه، صحح في الورقة نفسها وسأعمل بالتصحيح عند رقن البحث.

وإضافة إلى التواضع، كان الرجل بسيطا كل البساطة، في كلامه وسلامه، في حديثه وصمته، في ملبسه ومركبه ومسكنه، في جلوسه ووقوفه ومشيته، كان يأتي كلَّ ذلك على سجيته، دون تكلف أو افتعال، يعامل الكبير والصغير، والرئيس والمرؤوس، والمشهور والمغمور، معاملة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير.

ومن عجائب بساطته، أنه كان في بعض الأحيان لا يعود إلى بيته عند الظهر، فإذا شعر بالتعب أو غلبه النعاس، افترش على الأرض قطعة من الكرتون أو سجادة صلاة، واستسلم للنوم بعد أن يوصي أحدنا بإيقاظه إذا لزم الأمر.

كما تميز رحمه الله بالكرم المنقطع النظير، فلم يكن يبخل على أحد بشيء، وكان يحرص على دعوتنا إلى بيته وتناول طعامه، وخاصة في المناسبات، بل أذكر أنه دعاني أكثر من مرة دون أي مناسبة.

وقد انفرد رحمه الله بالتفاني في خدمة المصالح العامة بشكل يجعله في أحيان كثيرة ينسى حقوق أسرته وأولاده، وأذكر أني رأيته أكثر من مرة يوم الجمعة في المعهد، إذ بعد أن ينتهي من إلقاء الخطبة وأداء صلاة الجمعة في مسجد «فسديس» في الضاحية الشمالية من مدينة باتنة، كان يمر بالمعهد أولا، حيث يقضي وقتا يطول أو يقصر قبل أن يعود إلى بيته. وكان إذا قصده أحد في مصلحة ما، يبذل كل ما يمكنه من جهد في سبيل تحقيق تلك المصلحة، كائنا من كان ذلك الشخص، وربما عرَّض نفسه للإحراج بسبب ذلك، دون أن يبالي.

لقد عشنا مع الشيخ الطاهر رحمه الله سبع سنوات متتالية، ما رأينا منه خلالها إلا كل خير، وما عرفنا عنه إلا الصلاح والتقوى والسعي في نفع المجتمع والناس.

والحق أني ما رأيت في حياتي مثله فيمن عرفت وعايشت من الناس، ومهما قلت فيه، فإنني لن أستطيع الوفاء بحقه.

وما شهدت للرجل إلا بما علمت، ولا أزكي على الله أحدا.

نسأل الله عز وجل أن يتغمد أستاذنا برحمته الواسعة، ويحشره في زمرة الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. آمين.

مقال نشرته عنه في جريدة البصائر، العدد 630، 10 ديسمبر 2012م

الشعب — الثلاثاء 04 نوفمبر 2014 م، الموافق لـ 11 محرم 1436 هـ — مساهمات — info@ech-chaab.com — www.ech-chaab.com — العدد 16556 — 09

20 سنة على رحيل الدكتور الطاهر حليس

وقفة تذكر لخصال شخصية أفنت حياتها من أجل العلم

بقلم: أ.د مسعود فلوسي، جامعة الحاج لخضر باتنة

الحلقة 1

عقدان من الزمن مرا على رحيل أستاذنا الدكتور الطاهر حليس رحمه الله. كان رجلا مثاليا ومنهجيا، فالرجل لم يكن قد تجاوز العادية والتسيب من العمل، ولم يكن يكل أو يمل من العمل والنشاط والحركة، فمن إدارة معهد جامعي، إلى تدريس الطالبات، إلى الخطابة في المساجد، إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية المختلفة، كل ذلك توقف في لحظة ما من مساء يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1994، حين امتدت الأيادي الآثمة لاغتيال هذا الرجل عندما كان عائدا إلى بيته بعد أدائه لصلاة المغرب في المسجد القريب من مقر سكناه.. واليوم، وبعد مرور عشرين سنة على رحيل أستاذنا، من حقه علينا أن نتذكره ونذكّر بمآثره، ونبرز خصاله ومناقبه. وهذه هي الحلقة الأولى من هذا المقال الذي نكتبه عنه بمناسبة هذه الذكرى.

موجز عن حياته

الأستاذ المرحوم الطاهر حليس

اغتيال الأستاذ جريمة في حق المعرفة

جهوده في إدارة المعهد

جهوده لفتح الدراسات العليا

معرفتي به

تتلمذنا على يديه

يتبع

مساهمات ، مقالات لا تلزم إلا أصحابها

مقالي عنه في جريدة الشعب، سنة 2014، الحلقة 1

20 سنة على رحيل الدكتور الطاهر حليس

وقفة تذكر لخصال شخصية أفنت حياتها من أجل العلم

بقلم: أ. د مسعود فلوسي
جامعة الحاج لخضر باتنة

الحلقة 2 والأخيرة

عقدان من الزمن مرا على رحيل أستاذنا الدكتور الطاهر حليس رحمه الله، كان رحيلا مفاجئا ومفجعا، فالرجل لم يكن قد تجاوز الحادية والخمسين من العمر، ولم يكن يكل أو يمل من العمل والنشاط والحركة، فمن إدارة معهد جامعي، إلى تدريس الطلاب، إلى الخطابة في المساجد، إلى المشاركة في الأنشطة الاجتماعية المختلفة، كل ذلك توقف في لحظة ما من مساء يوم الجمعة الحادي والعشرين من شهر أكتوبر من سنة 1994، حين امتدت الأيادي الآثمة لتغتال هذا الرجل عندما كان عائدا إلى بيته بعد أدائه لصلاة المغرب في المسجد القريب من مقر سكناه. واليوم، وبعد مرور عشرين سنة على رحيل أستاذنا، من حقه علينا أن نتذكره ونذكر بمآثره، ونبرز خصاله ومناقبه. وهذه هي الحلقة الثانية من هذا المقال الذي نكتبه عنه بمناسبة هذه الذكرى.

فرحة لم تدم

قصيدة الدكتور حبيب السامرائي في رثائه

الأستاذ المرحوم الطاهر حليس

اغتيال الأستاذ جريمة في حق المعرفة

خصاله النادرة

مساهمات، مقالات لا تلزم إلا أصحابها

مقالي عنه في جريدة الشعب، سنة 2014، الحلقة 2

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
إهداء	05
شكر وتقدير	06
مقدمة	07
لمحات من سيرته وجهوده	
خلاصة السيرة العلمية والعملية للأستاذ الطاهر حليس	11
أستاذي الشيخ الطاهر حليس كما عرفته	16
كلمة الدكتور أحمد رحماني في تأبينه	25
قصيدة الشيخ الدكتور حسيب السامرائي في رثائه	27
نماذج من خطبه	
الإسلام دين الوحدانية	31
وجوب القراءة وطلب العلم	36
الهجرة النبوية الشريفة	39
مشاهد يوم القيامة	46
الإيمان باليوم الآخر	50
الإسلام حارب الوثنية	53
حال كل من المؤمن والكافر عند الموت	57
شروط الفلاح	62
ضرورة مخالفة الهوى	65
فضيلة الصبر	67
فريضة الزكاة	70
تحريم الربا	74

كلمة قبل صلاة الغائب على ضحايا زلزال مدينة الأصنام (1980) 76

نماذج من محاضراته الدينية

مقاصد الصيام في الإسلام 81
ذكرى غزوة بدر 88
رسالة النبي محمد ﷺ وفضلها على الإنسانية 98
كلمة في حفل افتتاح معهد العلوم الإسلامية بباتنة 113

نماذج من محاضراته التربوية والعلمية

دور المربي في الجزائر 117
أهمية التعليم وضرورة القضاء على الأمية 129
تكوين المتربص ثقافيا ومهنيا 143
مداخلة حول الالتزام في الأدب الجزائري 155
نظام القضاء في الثورة التحريرية 158

نماذج من مسرحياته

الحَيْرة 175
مع أبي المسك في قصر الزهراء 187
دمدوم الحياة 198
عندما يتفلسف الرجل العادي 209

....

وثائق ورسائل وصور وشهادات 215
فهرس الموضوعات 259